

كسرء الأءير

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٨/١٦٢٢٠

بطاقة فهرسة

السيد، حازم إسماعيل
كسرى الأخير: رواية/ حازم إسماعيل السيد، ط ١ -
القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٨
٣٢٠ صفحة؛ ٢٠ x ١٤ سم
تدمك: ٦-١٣٦-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١ - القصص العربية

أ - العنوان

٨١٣



دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر - القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

عبد الرحمن حافظ

التدقيق اللغوي

خالد رجب عواد

التنسيق الداخلي

أحمد البسيوني

كسرى الأخير

رواية

حازم إسماعيل السيد



الفصل الأول

مالت شمس الأصيل إلى الغروب، وتوارى شيئاً فشيئاً محيط قرصها الأحمر الناري في أفق النهر الأزرق البعيد ليصنع لوحةً بديعةً ذات ألوان وظلال تخلب العقل وتأسر الروح، وأبت خضرة الأرض الزاهية إلا أن تشارك في صنع هذا المشهد البديع، وقد أضفت شمس الغروب الذهبية ريشة فنان على مساحتها المترامية الأطراف فزادتها إشراقاً وتألّقاً يُلهم الشعراء.

وشياً فشيئاً تخفت الأضواء، وتنكسر زهوة تلك الألوان المبهرة.. بدأ النهار ينسلّ منسحباً، وشرع الليل يرخي أستاره.. وكأنّ الليل البهيم يأبى على هؤلاء البسطاء الذين يعايشون هذا الجمال أن يتمتّعوا به فلفّه بأثواب الحداد السوداء..

وهل يستمتع بالجمال من تكبّله الهموم، وتقيدّه الأحزان؟! قرية بسيطة من قرى أرض السواد^١ ببلاد الرافدين تطلّ على نهر الفرات.. نموذج

(١) أرض السواد: وهي الأرض المحصورة بين نهري دجلة والفرات، وقد سمّاها العربُ بذلك لخصوبة تربتها ولشدة خضرتها، حيث كان العربُ يدهشون حينما يخرجون من الصحراء فجأةً على خضرتها، ويوافق هذا الوصف التعبير القرآني عن الجنتين اللتين أعدهما الله للمتقين من عباده في الدار الآخرة (مُدْهَامَتَانِ) (الرحمن: ٦٤) ومعناها سوداوان من شدة الخضرة، أو شديدتا الخضرة من كثرة الري، والدّهمة في اللغة السواد ومنها الأدهم أي خالص السواد.

مصغر لقطاع عريض من شعب مطحون يرزح تحت نير الظالمين.. أصلهم عربي كانت لهم السيادة على أراضيهم إلى أن زحف عليهم العدوان.. التهم أرضهم الماردُ الفارسي الرهيب، وبالتحديد الإمبراطورية الساسانية^١ وريثة مملكة فارس سلالة الأكاسرة.

لقد تبدَّى الظلم بصورته البشعة وكشف عن وجهه القبيح، وزادت وطأة العملاق الفارسي على أجساد العباد يدوسهم فيكسّر عظامهم ويسحق جماجمهم.. وظهر نفوذ الدهاقنة^٢ تلك الفئة المستغلة من الإقطاعيين، وأصحاب النفوذ، ورؤساء القرى وأكابرها الذين تسلّطوا على البلاد فنهبوا وعلى العباد فأثقلوهم بالضرائب والمكوس، ونشروا رجالهم في طول البلاد وعرضها ينهبون الأموال ليسترضوا المرازبة^٣، ورجال الملك. ومع ظلمة الليل خيّمَت حالةٌ محبّطةٌ من الكآبة والحزن خالطت سكان القرية وغشت جدرانها وكافة أركانها، فما خلّفت بيتاً إلا ووسمته بروحها المقبضة؛ فقد صبّحهم هجوم رجال الدهقان على الدور والأراضي يجمعون

-
- (١) الدولة الساسانية: هي الإمبراطورية الفارسية الثانية (٢٢٦م - ٦٥١م) كان أول ملوكها (أردشير الأول)، وآخرهم (يزدجرد الثالث).
- (٢) الدهقان: رئيس الإقليم، أو كبير القرية، وكان الدهاقنة من النبلاء، وكبار الإقطاعيين، أو ما يعرف عندنا الآن برجال الأعمال، وأصحاب الغرف التجارية.
- (٣) المرازبان: الفارس الشجاع المقدم على القوم، كان يعد كرئيس بين الفرس، وهو ذو رتبة عالية، لكنها لا تعلق عن رتبة الملك (كسرى)، وكانوا يبجلونه ويسجدون له.

الضرائب والمكوس التي أثقلت كواهلهم وهم الفلاحون البسطاء الذين يجدون بالكاد قوت يومهم.

وكان من أشقى بيوت القرية بالظلم بيت بسيط لأحد الفلاحين البؤساء.. (ميراز) ذلك الشيخ المسن الذي لم يكن يمتلك من حطام الدنيا سوى دار تأويه وأهل بيته جدرانها الطينية المشققة.. ترعاه ابنته الشابة (جومان)، والأرض التي يستزرعها، يعينه عليها ولده.

فوجئ الشيخ البائس برجال الدهقان يحاصرون بيته ثم اقتادوه إلى السجن بعد أن عجز عن سداد ديونه؛ فقد استدان الرجل ليزرع أرضه على أمل أن يسدّد من بيع محصولها، لكن المرزبان كان سبباً آخر من أسباب شقائه، فقد استدعى ولده الوحيد إلى الجندية فلم يجد بعده من يزرعها حتى بارت.. فلا الدهقان يسمع، ولا المرزبان يجيب!

ولولا أن جيرانه الطيبين ساعدوا ابنته الوحيدة على الفرار في الوقت المناسب، وأخفوها عن أعينهم لأخذوها هي الأخرى بالدّين، فما إن عاينوا جنود الدهقان تحيط بدار الجار الطّيب حتى قادوها من سطح بيتها إلى سطح بيتهم الملاصق، وأخفوها في مكانٍ آمنٍ حتى انصرف الجند.

إنهم جيرانهم منذ سنين.. "عشرة العمر"، ورفاق الكفاح سعيًا وراء لقمة العيش.. ومن يدري فربما توطدت العلاقة أكثر لتجمعهم علاقة مصاهرة عن قريب؟!

أسرة بسيطة كبساطة قريتهم وما حولها من قرى.. الكهل (طهمان) ربُّ أسرة صغيرة قوامها زوجة عجوز رافقته سني رخائه وشدَّته، وأنجبت له من الأبناء أربعة.. أكبرهم (باندان) شاب يافع تقع على عاتقه مسئولية تعليم أخويه (زاران) و(شودار) وقيادتهما في زراعة الأرض بعد أن شاخ الأب ولم يعد له جَلَدٌ على العمل، أما (ماهان) فكان أصغر الأبناء ولم يكن له طموح أخوته ولا وجهتهم.. درج في ميدان الصناعة، واعتاد السفر والترحال، فهو يتنقَّل من بلد إلى آخر، ويتردَّد على المدن الفارسية الكبرى، وقد تعلَّم حرفة النسيج وأشربها حتى صار نَسَاجًا بارعًا.. يأتي من آنٍ إلى آخر لزيارة أسرته، وقد تقدَّم لخطبة جارته الحسنة (جومان)، وأصبح على بعد خطوات قليلة من الزواج، ومن هنا وجد الدافع للإقبال على العمل حتى يفي بالتزامات ذلك الزواج، الذي تنوء بتكاليفه الأسرة رقيقة الحال.

لقد اختار الأبوان لأبنائهما أسماءً فارسية، على الرغم من أصولهما العربية الواضحة، مداراةً لحكام الفرس الذين فرضوا لغتهم وثقافتهم، وأظهروا العداء تجاه كل ما هو عربي، لذا كانا لا يُسرَّان لأحدٍ بتلك الحقيقة مخافة بطشهم.

في أول عتمة الليل جلس الأبناء حول والدهم الكهل يريحون أجسادهم المنهكة من عمل يوم شاق، وقد اطمأنوا على الأم الطيبة وضيقتهم المحزونة، ووجدوا في ظلمة الليل سترًا لهم فدعوها لمجالستهم كي تستروح من

نسَمَاتِ الهَوَاءِ المنعشة ما يزيل عنها كآبة محبسها، فأقبلت تتهادي مع مشية
الأم العجوز، تتساندان.

ومع ستر الليل استقر مجلسهم، وقد أسندوا ظهورهم إلى جدار بيتهم
الطيني المتواضع في مواجهة الحقل الذي يلفُّه الظلام، كما يلفُّ كل معالم
القرية من حولهم.. فبدا كل شيء كبيت الأشباح.. الدور، والأشجار،
والنهر المنساب في ثوب الصمت، والظلام..

وما كان ليقطع الصمت المخيم على المكان إلا جيرانهم الطيبون.. يروحون
ويجيئون على الطريق الترابي في رحلة العودة اليومية المعتادة إلى بيوتهم، وقد
سحبوا ماشيتهم وامتطوا ظهور دوابهم، فكانت التحية تنتقل منهم وإليهم..
يبتعد جمعٌ ويتقدّم آخرون حتى انقطعت آخر قدمٍ في غسق الليل.

أطرق الأب في سكون، فاحترم الجميع صمته.. كان مهموماً كاسف
البال يبدو أنه في انتظار موعدٍ أوف.. لم تنقضِ دقائق حتى أوماً برأسه
إلى (باندان) أكبر أبنائه أن انتظر!

همَّ الأب بالوقوف فثقل عليه جسده.. امتدت أيدي بنيه الأقوياء يعينوه
حتى استوى قائماً..

تقدّم الأب ابنيه (زاران) و(شودار) في مواجهة كبيرهم (باندان).. ربت
علي كتفه بلمسة حانية، بيّنه ثقته، ويستودعه أمانة هو أهل لها، ومسئولية هو
جدير بحملها.

انصرف الأب يطأ أديم الأرض بخطوات متثاقلة لكنها خبيرة ثابتة،
يتبعه ابنه يرفلان في حلة الفتوة، والشباب..
انطلقوا إلى أعماق الحقول والغابات.. تودّعهم عينا (باندان)، ودعوات
الأم العجوز و(جومان) التي انفطر قلبها حزناً على والدها.. حتى ابتلعهم
الظلام، وأعفت العتمة آثارهم.
سارت أقدام ثلاثهم طويلاً حتى ابتعدوا عن القرية الصغيرة..

في بقعة نائية تكتنفها الأشجار، ويلفُّها الظلام جلس الأب وبنوه في
انتظار الاجتماع بوفد جيرانهم في منأى عن أعين حرس المربان وجنوده،
وعن سطوة الدهقان ورجاله التي ترصد كل شيء في القرية وما حولها،
وتحصى عليهم أنفاسهم..
لم يمض وقت طويل حتى بدأ القادمون يتوافدون.. يتسلّلون فرادى..
لم يكتمل بعد نصاب جلستهم..
مال (شودار) على أذن أخيه مُسرّاً إليه:
ألم يكن من الأفضل أن نحضر شمعة، أو مصباحاً لنرى به طريقنا بدلاً
من هذا الظلام الدامس؟! لقد كدت أن أنكفى على وجهي!
أجابه (زاران) على الفور بصوت خافت مرتعش:
اصمت! ألا تعلم أن إشعال النار في غير بيت النار جريمة تستوجب
العقاب!

(١) بيت النار: هو دار العبادة عند المجوس، وكانت أشهرها عند الفرس في كرمان،
وسجستان، وخراسان، وأرمينيا، وجبال أذربيجان...

وماذا يضير من شمعةٍ صغيرةٍ تؤنس وحشتنا في تلك الظلمة؟!
ألا تذكر ليلة (عيد النيروز) حين تأخرنا في بيت النار حتى انتصف الليل
وانقطعت عن الطريق الأقدام فأخذتُ جذوةً من النار نستبصر بها طريقنا!
شارك (شودار) أخيه ذكرياته، فقال مقاطعاً:
وما كدنا نتجاوز بيت النار بأمّاتار قليلةٍ حتى سمعنا صوت الجند من
بعيد فعدنا سريعاً من حيث خرجنا.. أنا أذكر جيداً..

أكمل (زران) حديثه:

حينئذٍ كنتَ تشاركني حيرتي هل أطفؤها أم أمسك بها؟! وكلاهما جريمة
في نظرهم! حتى ألهمني إله النور أن ألقياها في نار المعبد فالتهمتها..
كل هذا ونقول نحضر مصباحاً أو حتى شمعة ضئيلة؟! فلا أستبعد
حينئذٍ أن تُعلّق جثتنا جميعاً على أبراج الصمت^١ أحياءً نفترسنا الجوارح!!
صدقتَ يا أخي! لكنك نسيت شيئاً آخر، فلو انبعث من عندنا أثر ضوء

(١) أبراج الصمت: هي أبراج خاصة كان المجوس وفق معتقداتهم يعلقون عليها
جثامين الموتى، حيث كانوا يحرقون على ألا تختلط جثثهم بعناصر الحياة الأربعة
المقدسة عندهم: الماء، والهواء، والتراب، والنار، حتى لا تلوّثها، وكانوا يتركون
جثامين الموتى معلقة على هذه الأبراج للطيور الجارحة لتلتهمها، وبعد أن تخلص
الجثامين من اللحم يقوم بعض رجال الدين بجمع العظام في فجوةٍ خاصةٍ داخل هذا
البرج، أما الأمراء والملوك فكانت جثامينهم توضع في صناديق معدنية محكمة الغلق
وتدفن في قبر تحت الأرض، فلا تختلط بعناصر الأرض وتلوّثها.

أو صدر أدنى صوت لانكشف اجتماعنا، ولا شك أن النتيجة ستكون واحدة، لكن هذه المرة على أيدي الجند والحرس.. حينئذٍ لا أستبعد أن يتهمونا بالتخطيط لقلب نظام الحكم!!

أشار (زاران) إلى أخيه أن اصمت!

قرأها في عيني والدهما الذي همَّ بالكلام بعد أن اكتمل نصاب الجلسة.. أخذ الأب المسن دفعة الحديث، فكان أكبرهم وله منزلته لدي الجميع.. يعرفهم ويعرفونه، ولهم عشرات السنين جيراناً..

تكلم بهدوئه المعتاد، ونبراته الوئيدة:

إننا اليوم على خطر عظيم.. لقد عشت على هذه الأرض منذ زمن بعيد ولم يمر علي من الأحداث - مع حياتي الطويلة مثلما يمر علي اليوم.. لقد بلغ الظلم مداه.. فبالأمس اقتاد رجال الدهقان جارنا (ميراز) ذلك الشيخ المسكين إلى السجن لعجزه عن سداد دَيْنه، ومن قبله فلاناً وفلاناً.. وغداً أناساً غيرهم..

لم تعد لدينا قدرة مالية.. الأرض في حاجة إلى مصاريف حتى تعطيك الخير.. فلا أنتَ لديك القدرة على زراعتها، ولا الدهقان ينتظرك حتى تجني خيرها!.. لقد أصبحنا أجراء في أرضنا! يحتكرها الحكام ويأكلون خيرنا، وخيرها!

قال أحد الحاضرين:

وماذا لو اشتكيناً للموبدان؟! فربما كانت له كلمة أمام المرزبان، أو حتى الدهقان؟!!

(١) الموبدان: رجل الدين الفارسي في المجوسية.

قال الشيخ (طهمان):

الموبدان وجميع الهرازمة^١ في بيت النار هم أيضًا سيف مسلط على رقابنا، فهم لا يهتمون إلا بجمع المال منا سواء بالعسف والقهر، أو بالرضى والتسليم زلفى إلى النار.. نتصدق بالمال وما من أحد يستحق الصدقة أكثر منا؟! إنهم يأخذون منا نحن الفقراء ليملاؤوا خزائنها، ويدوسون على رقابنا أكثر وأكثر!

قال أحد الحاضرين:

وأي دين هذا الذي يفرض على الناس بالقوة والإجبار.. صحيح أنني لم أعاش بدايات احتلال الفرس لأراضينا، ولا كيف فرضوا المجوسية بها، لكنني أذكر فترة من حياتي قضيتها في البادية بين الأعراب نعبد مثلهم الأصنام.. نصنعها.. نشترها، ونبيعها.. لكننا على أي حال كان لنا مطلق الحرية في العبادة، لم يجبرنا أحد على شيء.

وقال غيره:

إن الدين اختيار، وهذا هو جوهره، ولولا الحرية المطلقة في الدين لما كان هناك معنى لثواب أو عقاب.. لجنة أو نار!

لقد سمعت من أحد أحبار النصارى بالحيرة أن هذا أو أن نبي يأتي في آخر الزمان، ينشر العدل، ويقيم ميزانه المائل.. وقد أظننا زمانه!

(١) الهرازمة: هم الذين يخدمون نار المعبد في كل قرية وكانت كل مجموعة منهم تحت رئاسة الموبدان.

قال الشيخ (طهمان):

أجل.. لقد سمعتُ ذلك، وإني لأرجو أن يمدَّ الله في عمري، فأدرك
مبعث هذا النبي، وأكون أول المؤمنين به..

صمت الجميع لحظة وكأن على رؤوسهم الطير، ثم تحدَّث واحد من جيل
الشباب يذكرهم بالمصاب الذي اجتمعوا عليه:

إن الضرائب والمكوس زادت عن طاقتنا، ولم تعد لنا قدرة على سداها..
فكيف يكون لنا أمل في حياة؟!

أجابه الشيخ (طهمان) معقَّب

يا بُني! الأمل موجود.. ورحمة الله واسعة.. ولا بد لطوق الظلم أن
ينكسر.. سيأتي يوم يثور الناس على ظلم (هرمز)^١ ذلك الكسرى الظالم الذي

(١) هرمز الرابع: أحد أكاسرة الفرس، وصل إلى سدة الحكم بعد موت كسرى أنو
شروان، نُصِّب على عرش إمبراطورية الفرس الساسانية مدة ١١ سنة في الفترة
الممتدة بين (٥٧٩م - ٥٩٠م). لم يكن فارسياً خالصاً فقد كانت أمه تركية، وقد بدأ
الضعف يدب في عهده فهاجم مملكته الروم، والخزر، والترك، وقد تأمر عليه العظماء،
والأشراف، والمرابذة فعزلوه لفساده، وطغيانه، وما جرَّ عليهم من هزائم، ثم قتله
أحد قواده. عاصر حكمه طفولة النبي ﷺ في بيت جده عبد المطلب، وصباه في بيت
عمه أبي طالب.

أوردنا المهالك.. لقد كان (أنو شروان)^١ على ما في عصره من مفسد أهون علينا من هذا الظالم.

قاطع (زاران) بحميّة الشباب:

هما سواء.. فكلاهما ظالم يا أبت.. وأي أمن وأمان يجده شعب في جوار ملك ظالم لا يأمن شرّه؟! ملك ظالم لا يأمن شرّه؟!

قال الشيخ (طهمان):

يا بُني! على الأقل كان هناك نوع من الاستقرار.. لكننا اليوم لا نأمن على أنفسنا من بطش الحاكم وجنوده، أو من هجوم أعداء البلاد المتربّسين بها من الخارج، والخطر في كلا الأمرين واحد، والضحية معروفة.. ذلك الشعب التعس.

تطرّق (شودار) إلى الحديث بحماسة المعهودة:

كلنا يشرب من الكأس المترع بالظلم، وجميعنا يقياسي من اضطهاد الحاكم، لكن لا بد أن يثور هذا الشعب على الملك الظالم.. فالنصر حتماً للشعوب.

تدخل شيخ طاعن في السن من الحاضرين فقاطع (شودار):

(١) أنو شروان (قباذ الأول) عُرف بالروح الخالدة، وهو أول من اتخذ لقب كسرى، كان من أقوى أكاسرة الفرس وأضبطهم لأُمور مملكته، وفي عهده بدأ ظهور الدهاقنة. تولى مقاليد الملك في الفترة بين (٥٣٢م - ٥٧٩م). شهد عصره مولد رسول الله ﷺ، وفي عهده ارتجس أيوانه، وسقطت ١٤ شرفة من قصره، وانطفأت ناره المقدسة.

يا ولدي! أنت شاب صغير.. لقد كنت في مثل سنك يحرّكني الحماس
واندفاع الشباب، وكنت أحسُّ بما تحسُّ به وأفكرُ مثلك، لكن الحياة علّمتني
أنَّ الاندفاع والتهور لا يحلان المشكلات بل يزيدانها تعقيداً.. إننا نحيا على
هذه الأرض منذ سنين طويلة تعاقبت عليها أجيال من الجدود والآباء وقد
بسطت إمبراطورية الفرس نفوذها عليها.. يتحكّمون في مقادير حياتنا..
ولا شيء يتغير، ولن يتغير شيء مهما مرّت الأعوام.. إنهم ملوك ونحن لهم
عبيد.. حفنة من المزارعين، والعمال..

والفلاح، والعامل لا يستطيعان حمل السلاح ولا يستطيعان استخدامه..
إنهما لا يجيدان إلّا استخدام الفأس والمنجل، والحكم لا يكون إلّا للقوي.
قال (زاران):

وما قيمة حياتنا ونحن لا نملك إرادتنا ولا حريتنا؟! وما معنى الحياة في
ظِلّ العبودية والذلّ؟!

قال شاب من الحاضرين:

ومن قال لك أننا على قيد الحياة؟! إننا والموتى سواء.. لو كنتُ أستطيع
أن أهاجر من هذه البلد لارتحلت عنها غير آسف.. ولو أستطيع لهاجرت
من الدنيا كلها!

قال الشيخ (طهمان):

بَنِي! لا أحبُّ أن أسمع منكم حديثاً يحمل تلك النبرة اليائسة! إنكم
جيل الشباب، والتغيير سيكون حتماً على أيديكم، فلا تيأسوا يا أولادي!
ستحسن الأمور قطعاً، وسيعتدل الميزان المائل يوماً.

قال أحد الحاضرين مقاطعاً:

يا سادة! لقد أخذنا الحديثُ بعيداً عن المشكلة التي ما اجتمعنا بعيداً عن بيوتنا التي تترصدها عيون الدهقان إلا لحلّها.. ماذا سنفعل لننقذ (ميراز) المسكين ونفك أسرهِ؟! من الظلم أن نتخلّى عنه ونتركه يلقي الذلّ والهوان في آخر أيامهِ.. لا بد أن نجتمع له المبلغ المطلوب لنطلق سراحه ولو مددنا أيدينا بالسؤال!

قال (طهمان):

إنه جاري، وعمّا قريب سيكون صهري، وهذه مسئوليتي أنا وأولادي تجاهه وتجاه ابنته التي ستصير واحدةً منا.. سوف نتكفّل بسداد ديونه، ومن اليوم ابنته في كفّالتي.

قال أحد الحاضرين:

سيشارك كلُّ منا بما يستطيع تقديمه، وهذه أول مساهمة مني.. أخرج الرجل بضعة دراهم كانت بحوزته فوضعها في حجر (طهمان)، ثم تلاه ثانٍ، وثالث، ورابع.. وهكذا حتى جمعوا مبلغاً مناسباً من المال.. اغرورقت عينا (طهمان) من الفرح، وقال ممتناً، والتأثر واضحاً على نبراته المرتعشة:

هكذا تكون الأخوة، وهكذا يكون الوفاء.. حقاً إن المبلغ الذي جمعناه لا يساوي نصف الضريبة المفروضة على الشيخ (ميراز) لكنه مبلغ لا بأس به..

غداً سأذهب أنا وولديّ، ومن شاء أن يأتي معنا إلى قصر الدهقان لننقده
ما جمعناه ونفكّ أسر الرجل من بين يديه..
وانفضّ جمعهم فتسلّلوا فرادي تحت جناح الظلام كما جاءوا فرادي..

عاد الرجال الثلاثة إلى البيت تستقبلهم عينا (باندان)، تتواصل بينهم
نظرات الثقة بيئها إلى الأب وأخويه، ويئثها الأب وأخواه إليه، أنهم تركوا
للبيت رجلاً يحميه.. بينما اختلطت نظرة القلق والريبة في عيني الأم بنظرة
الخوف من المجهول في عيني (جومان) التي فقدت أباه، وبات مستقبلها
مُهدّداً بالضيايع.

بادرتهم (جومان) باستفسار المتلهّف ماذا سيفعلون تجاه والدها
السجين.. وقف الأب بشيخوخته الهرمة أمام الفتاة بمستقبلها المجهول
فربت على كتفها، وقال في نبرة يتعكّر فيها على كلماته:

هَدِّي من روعك يا بُنَيَّ! الفرج قريب.. وغداً سيكون لنا تصرّف..

لم تجد الفتاة من الكلمات ما تشكر به الشيخ الطيب وزوجته العجوز
سوى نظرة امتنان غاصت في بحر من الدموع، ثم حيّتهما لتصرف في أدب..
التقطت الأم العجوز يدها برقّة وجذبتها إلى صدرها في حنان.. التقت
رحمتها بها بحزم الأب في قرار بقائها معهم حتى تنقش تلك الغمّة فلم يعد
لها خيار، فاستجابت إلى رغبتها في ضراعة وتسليم.

أسفر الصبح فاستفاق الجميع بعد ليلة أبى فيها النوم أن يحلَّ بمآقيهم..
تأهَّب الأب وولده اللذان شهدا معه اجتماع الأمس للخروج، وعلى الرغم
من إصرار كبيره أن يصحبهم إلا أن ثقة الأب فيه ألزمتَه بالاستجابة إلى
رجائه في البقاء، فهو كبير العائلة من بعده وعلى عاتقه تقع مهمة حفظ
البيت، والعمل في غيبته.

انطلق وفد الأمس على عجل إلى (جaban) دهقان القرية الذي كان
نموذجاً للإقطاعي المستغل الذي يتعالى على الناس بنفوذه وثروته، واستقر
جمعهم في مواجهة قصره المنيّف عالي الأركان، فأوقفهم على أبوابه الحرس.
استيقظ الدهقان على ضجيج الجماهير الغفيرة مدعوراً.. هبَّ من فراشه
فزعاً وقد تملكه الضجر على هؤلاء الفلاحين الذين تجرّأوا عليه فأرّقوا نومته،
وأضجّجوا مضجعه.

تعالّت الأصوات بالرجاء والتوسلات.. الجميع يستعطفه في سداد ما
تيسر لهم جمعه من دين (ميراز)، وليرحم شيخوخته!

استرحموا ليمهلهم بعض الوقت وسيأتونه عن قريب بما يريد..

تعالّت أصوات الفلاحين، وجهر أحدهم بالقول:

اخرج لنا يا سيادة الدهقان! نريد أن نتحدّث إليك.. وإلاً..

أطلّ الدهقان من شرفته ليتحدّث بملء فيه، وبخطرسته المعهودة أرغى

وأزبد:

لقد أعطيتكم وقتًا كافيًا لتدبير المبلغ، ولن أصبر أكثر! ليس لديّ وقت لأضيّعه في الاستماع إلى أمثالكُم، فما أنتم إلا عبيد إحساناتنا، والمال مالنا، والأرض أرضنا..

تعالّت أصوات المحتشدين من الناس بالصياح والزجرجة على أبواب القصر، وحول أسواره..

أقبل (نرسي) قائد الحرس فوقف بين يدي سيده الدهقان، وامثل له قائلاً:

سيدي! إن تراخت قبضتنا عن هؤلاء الصعاليك فلن نستطيع أن نحكمهم بعد اليوم.. إن لنا أموالاً كثيرة وديوناً عند الفلاحين يجب أن نحصلها، فإذا تعذّر واحد عن السداد فسيمتنع الباقيون..

تدبّر الدهقان كلامه ملياً، ثم قال:

معك حقٌّ.. علينا أن نأخذهم بالشدة فيعرف باقي الفلاحين أن البلد لها من يحكمها.. لقد أطلقتُ يديك فيهم فافعل ما بدا لك، لكن تذكّر!.. عليك بجمع المبالغ المطلوبة اليوم، بأيّة طريقة!

انطلق القائد (نرسي) إلى جموع الناس المحتشدة.. تحدّث (نرسي) إلى الناس بحديث المكرير وأوغهم به مراوغة الثعالب.. نصّح الناس بالانصراف حتى يجري التفاهم بين الدهقان وبين شخص يمثلهم..

مال قائد الحرس على (طهمان) فأخبره برغبة الدهقان في مقابلته بقصره ليستمع إلى شكواه.. تعالت تحذيرات الفلاحين من خداع الرجل ومكره،

لكن (طهمان) طمأنهم، وطلب منهم العودة، وتمسك بالفرصة التي قد لا تتكرر.

تقدّم (طهمان) وابناه وبضعة رجال من بوابة القصر فاجتازوها، ودخلوا حديقة القصر واستمروا في طريقهم حتى غابوا فيها، في حين أصرت جموع الناس على البقاء لمواصلة الضغط على الدهقان.

وجد (طهمان) ورجاله أنفسهم محاصرين بحرس الدهقان الذين أغلظوا لهم القول، وتناولوا عليهم بالضرب، ونهبوا ما معهم، واحتجزوهم رهائن، وكانت تلك هي ساعة الصفر المتفق عليها لغارة جديدة تقوم بها فرقة أخرى من جند الدهقان على بيوت القرية في غيبة أصحابها.

انطلق (نرسي) قائد الحرس وجنوده رأساً إلى داريّ (طهمان) و(ميراز)، ثم إلى سائر بيوت القرية..

وإذ بقائد الحرس في زمرة من رجاله يدفعون الباب على (جومان) وجارتها العجوز..

واجهت (جومان) الموقف بثبات الحقّ وفي مواجهة الباطل، وصرخت فيهم بشجاعة:

قفوا مكانكم! والزموا مواضعكم! رجل البيت غير موجود!
لم تعز ذلك القائد في هذا الموقف الصفاقة، التي كانت سمة أصيلة فيه، فأمرها في فظاظة فجّة:

افسحي الطريق آيتها الصغيرة الحمقاء! ألا تعرفين أنني قائد حرس الدهقان؟!

أجابته الفتاة في تحدٍّ:

فلتكن من تكون! أهذا يعطيك مبررًا للتدخل بيتنا عنوة في غيبة صاحبه؟!

قال (نرسي) وقد تفجّر الدم في وجهه غضبًا:

لكن من أنت؟! أنا أعرف أن جميع أبناء (طهمان) من الذكور، فمن تكوينين أنت؟!

همس واحد من الجند في أذنه بكلمات ففكر مليًا، ثم ما لبث أن قال:
إذا لم تكفّي عن مقاومتنا فسوف نقتادك معنا لتؤنسي خلوة والدك
(ميراز)!

وما زادت الفتاة إلا ثباتًا، وما زاد المعتدي إلا تبجحًا..

تقدّم (نرسي) نحوها فأزاحها بقوة، ودفع العجوز أرضًا، وهتك وجنده
حرمة الدار..

طار الخبر إلى (باندان) في الحقل فأقبل يشتدّ في زمرة هائجة من شباب
القرية تغلي في دمائهم الحميّة..

دارت معركة غير متكافئة بين الشباب المتحمس الثائر وبين الجند
المدججين بالسلاح، لكن ماذا تفعل الشجاعة في مواجهة الكثرة والقوة
الباطشة؟!

سقط (باندان) فاقد الوعي مُضَرَّجًا في دمائه بعد أن أبلى في مواجهتهم
أشدَّ البلاء، وجاس الجند خلال الديار، فنهبوا أمتعتهم، وسلبوا دوابهم
وماشيتهم، ثم عادوا من حيث أتوا تودِّعهم لعنات المظلومين..
أكبَّت العجوز على ابنها تتحنَّسه، وقامت إليه (جومان) تضمِّد جراحه،
وتمسح دماه التي اختلطت بتراب دارهم المنكود..

وفي قصر الدهقان صدر أمره أخيرًا بإطلاق سراح الأسرى بعد أن أنهى
قائده المهمة التي عهد بها إليه، فرجع (طهمان) ومن معه إلى دورهم وقد
خاب سعيهم ولقوا من الإيذاء ما لقوا.. وإذ بهم يلتقون بآلام القرية التي
لحق بها وبأهلها من أذى جند الدهقان مثلما لحق بهم.
أسرع (طهمان) بقلب أب حنون إلى داره مهرولاً وقد بلغت الأخبار فهاله
ما رأى.. أكبر أولاده بلا حراك قد شارف على الموت، ونُهبت الدار وصارت
رأسًا على عقب.

ثار الأب وابناه والتقت فجيعتهم بفجيعة أهل القرية.. كلُّ أصابه من
الهمِّ مثل ما أصابهم..

لقد فاض الكيل، ولم يعد لهم بعد ما يخسرونه، فقد فقدوا كل شيء..
تعالَت الصيحات بالتمرد على الظلم والثورة عليه.. وإن أزهقت أرواحهم
جميعًا فلضربة سيف في عزٍّ وشرف خير من ضربة بسوط في انكسار وذل..
لم يعد لهم على الظلم صبر، ولا على الذل احتمال!

توجّه الجمع الثائر رأسًا إلى قصر المرزبان الذي كان يمثل ضيعة واسعة تقع على أطرافها عدة قرى متجاورة من بينها قريتهم الصغيرة ليشكون إليه.. واحتشدت جموع مماثلة من أبناء القرى المجاورة حول قصره المنيف الذي كان يفوق قصر (جaban) في الفخامة والأبهة، وكثافة الجند والحراسة.. تجمهروا، وثاروا.. تعالت صيحاتهم، وطالت وقفتهم.

تزايدت أعداد الحرس والجند حول أسوار القصر، قد أشهروا أسلحتهم، وحلّ الخوف محل الشجاعة والجرأة لدى جموع الناس، لكنّ طول فترة الهدنة وتأخير المواجهة أكسبهم جرأة وثباتًا..

توجّه كبيرهم في زمرة من ممثلي كل قرية فطلب مقابلة المرزبان ليستجير به من ظلم الدهقان.

لكن أمرًا مريبًا حدث.. كان جميع من بالقصر، والحرس في حالة عجيبة.. كان الاضطراب والفوضى باديين في كل حركة وسكنة داخل القصر وخارجه.. جند يخرجون، وآخرون يدخلون.. بعضهم يقبل وغيرهم يغيب عن الأنظار.. بدا جميع من بالقصر ومن حوله ينسحبون بعد أن أوصدوا أبواب القصر العالية.. تقدّم الجمع يتسلقون الأسوار، ويقرعون أبواب القصر.. يصيحون، وينادون، لكن لا أحدًا يسمع، ولا أحدًا يجيب!

عمّت الفرحة جموع الحاضرين.. وانتشرت الأخبار.. إنها الثورة اندلعت في أرجاء المملكة!!

استقبلت جماهير الفلاحين النبأ بلهفة المشتاق.. بقلوب تتفجّر بالسعادة والفرح.. وتعالّت صيحات النصر، وأقبل بعضهم على بعض وهم في حديثهم يستفيضون:

لقد ثار الناس على الظلم، ومزّقوا الظالمين في كل مكان.. كان هذا اليوم آتياً لا محالة.. لم يكن الشعب ليرضى بالظلم أبد الدهر، ولم يكن ليقبله إلى ما لا نهاية.. كان لابد لهذا اليوم أن يأتي، وقد جاء!.. بعد سنوات طويلة من التفكك والضعف، والاستعباد والقهر.. غزا الروم، والترك، وغيرهم أراضينا.. دبّ الضعف، وانتشرت المفاسد، والظلم..

عمّت الفرحة جموع الثائرين.. ولم لا؟! فقد تخلّصوا من قبضة الظلم، وعادت إليهم حقوقهم.. حقاً إنهم لم يعد لديهم مალأ بعد أن نهبت ممتلكاتهم، وخُربت دورهم، لكن لم تزل الأرض المزروعة في حوزتهم يزرعونها ويأكلون من خيرها، ومن يدري؟! ربما صارت ملكاً خالصاً لهم في ظلّ عهد جديد من الحرية؟! وقد أزيح الظلم الذي جثم على صدورهم قروناً..

تطوّرت الأحداث سريعاً ففرّ المرزبان بحاشيته، وفرّ كثير من رجال الدولة، واستطاع (ميراز) ومن معه أن يفلتوا من قبضة الدهقان الذي لاذ هو الآخر بالفرار، لكن (ميراز) لم يحمله جسده الضعيف، ولا كهولته الفانية على تحمّل المزيد من الجهد فخرّ ميتاً قبل أن يبلغ عتبة داره، فلم يهنأوا بإطلاق سراحه!

وسرعان ما خابت الظنون.. فما لبثت الأمور طويلاً حتى تكشفت الحقيقة المؤلمة! فما كانت الأحداث على حقيقتها بالثورة، ولكنه الصراع على الحكم، وبسط النفوذ، والتنافس على الممتلكات.

وهكذا.. فقد أسرف الفلاحون البسطاء في أحلامهم، فلم تتجاوز تلك الثورة أبواب قصر كسرى، ولم يُكتب عليهم إلا الدور الذي لم يخرجوا عن سياقه يوماً.. دور المتفرج!!

فقد تأمر على كسرى العظماء، والأشراف، والمرازمة.. دخلوا عليه قصره فنكسوه عن سريره، وأخذوا تاجه، وسيفه، ومنطقته^١، وقبّاه^٢، وأرسلوا بها إلى ابنه (خسرو) الذي كان غائباً بـ(أذربيجان)، وقد راسلوه ليأتي فيخلف والده المعزول، لكن لم تلبث الأحداث غير بعيد حتى طمع في الحكم (بهرام) أحد أكبر قادة كسرى، فانقلب عليه في ظل تلك الفوضى العارمة، وتحرك بجيش كثيف فحاصر القصر، وقتل كسرى (هرمز الرابع)، ونصّب نفسه ملكاً على البلاد، وأعلن نفسه كسرى باسم (هرمز السادس)، وما إن انتزع القصر حتى وجّه جيشاً لقتال (خسرو) الذي جاء لاهثاً يسعى وراء العرش، فما لبث أن انهزم وكُسِر جمعه، وفرّ هارباً ليلحق ببلاد الروم، بعد أن دانت البلاد لحاكم جديد.

(١) المنطقة: ما يُشدُّ به الوسط كالخزام ونحوه.

(٢) القِبّاء: ثوب يُلبس فوق الثياب أو القميص، ويَتَمَنَّق عليه.

ودخلت البلاد في حالةٍ من الفوضى، والاضطراب، والظلم، والإفساد، والعسف، والقهر بغير ضابط ولا رابط.. وانتشر الجند في جميع الأنحاء ينتهكون حرمة الأراضي والديار، واستحرقوا القتل والفساد في كل موضع، واشتعلت حرب ضروس بين جبهتين: جبهة الحاكم العسكري الذي انتزع الملك بالقوة، وجبهة الملك الصريع وريثه على العرش، ومناصريه..

وكان الشعب المسكين هو الضحية - كما هو الحال دومًا - وذاق الذلَّ والهوان، وصار بين نارين، وأمرين كلاهما مرًّا!!

ولم يكن في هذا الصراع ناقةٌ ولا جملٌ، لا لأسرة (طهمان) وغيرها من أسر الفلاحين البسطاء الذين يعمرّون الريف، ولا لهؤلاء الذين اتخذوا من الصناعة حرفةً لهم بالمدن، إلا أنهم كانوا ينشدون العدل المفقود، وتتحرق أكبادهم ظمًا إلى مظلة من العدل تسعهم جميعًا، تقيهم من غدر الزمان، وغوائل الأيام.. كانت طموحاتهم بسيطةً.. يطمحون في حياة كريمة لهم ولأولادهم.. ظنُّوا في البداية أن ما يجري من أحداث كفيل بأن يرفع عنهم قبضة الظلم الجاثمة على صدورهم قرونًا، وأن يُغيّر واقع حياتهم المؤلم، لكن سرعان ما تبددت الأحلام! انكشف الوجه القبيح للقائد (بهرام) الذي ظنَّوه المنقذ المخلص، فما إن استقر به المقام واعتلى كرسي العرش حتى عاث هو وجنوده في الأرض الفساد.. الأسوء من ذلك تزايد نفوذ مراكز القوى متمثلًا في سلطة الدهاقنة الذين بسطوا نفوذهم، وازدادت قوتهم، فطفقوا

يستنزفون أموال الناس ومصادر أرزاقهم بشهوة لا تشبع يتقربون بها إلى
المرازبة ورجال كسرى.. فازدادوا طغياناً على طغيانهم.. وطمَّ البؤس، وعمَّ
بيوت القرية وما حولها.. ما ترك بيتاً إلا وحطَّ عليه..



الفصل الثاني

خُلِصَت البلاد لحكم (بهرام) الذي أعلن كسرى على البلاد بعد أن قتل سابقه، وهزم ابنه، وفرَّ أفراد العائلة الملكية.. ولم يلبث (جaban) دهقان القرية ومن هم على شاكلته أن تملَّقوه وأغدقوا عليه الهبات والهدايا التي اقتطعوها من أقوات الفلاحين الفقراء، فصاروا ذوي حظوة عنده، وفي المقابل ازداد نفوذهم وبطشهم بالعباد.

وأطلق كسرى مناديه في طول البلاد وعرضها يعلن تعُُّبه لفلول الأسرة الحاكمة، ويتوعَّد كل من يتعاون معهم أو يخفي واحداً منهم بأشد العقاب، وأعلن مناديه في الميادين والطرق عن خيانة (خسرو) ابن كسرى المقتول الذي تعاون مع عدوِّتهم الكبرى إمبراطورية الروم، وبذلك استطاع أن يستعدي عليه رجال المملكة، والمرازبة، والدهاقنة، ورجال الدين في كل إقليم.

وكان (خسرو بن هرمز) قد فرَّ هو وخاصته، وتبعته فلوله من أسرته وخاصته إلى الشام حيث التقى بإمبراطور الروم (موريقيوس) بعد مكاتبات كثيرة، ورسائل متبادلة..

لم يكن لابن كسرى أدنى مشكلة لو تعاون مع أعدى أعداء بلاده في سبيل الوصول إلى سُدة الحكم.

لقد كانت مقاومة محفوفة بالمخاطر، غير مأمونة العواقب لكليهما، لكنها الفرصة المتاحة أمامهما فسعى كلاهما لاستغلالها.. ابن كسرى الذي تحرّكه رغبته في استرداد العرش؛ فهو يرى أنه الوريث الشرعي للبلاد، ولن يتنازل عن حكمها، وسيبذل كل طاقته لاسترداده ولو تعاون مع الشيطان نفسه!.. وإمبراطور الروم الذي رأى أن يصنع للفرس كسرى على يديه، فيكون صنيعته وطوع يمينه، وبذلك يكون قد هزم الفرس في عقر دارهم، وبسط نفوذه على عدوّه، وأتى بما لم تأت به الأوائل.



نزل (خسرو) ببلاد الشام فاستقبله إمبراطور الروم خير استقبال، وأقامه بقصره، ووطّد الروابط بينهما أكثر فزوَّجه ابنته (ماريا)، وازدادت أواصر تلك العلاقة قوة بأن أنجب منها (شهرويه) أول أبنائه، ووجّه جيشاً كثيفاً من الروم لمناصرته..

لقد تسامع بذلك أهل فارس، لكن لم تفلح دعايا (بهرام) بخيانة (خسرو) الذي جاء يغزوهم بجيش الروم؛ لأنه كان يحارب باسم أسرته وعلى عرش سلالاته من الأكاسرة، ولم تكن هذه الحرب على حقيقتها أكثر من معركة بين (بهرام) ومناصره، وبين عائلة كسرى يدعمها جند من الروم.

وبعد صراع طويل وقتال متتابع قُتل (بهرام) وهُزم أتباعه، واستطاع (خسرو) أن يستردّ عرشه ويستعيد حكمه، فتوجّ على العرش ولُقّب بكسرى

الثاني.. وانقلبت الدعايا على القائد المهزوم وحاشيته لمصلحة كسرى الجديد، تلك الدعايا التي ما كان منها إلا أن تغت ببطولته، وشجاعته، ووطنيته في مواجهة القائد الخائن وبطانته.

مرّت الأحداث على أسرة (طهمان) وجيرانه سريعة متتابعة.. لم يخرجوا فيها عن كونهم مشاهدين.. كانت مباراة غلب فيها أحد الملكين جولة، ثم انقلب عليه حظه فخسر جولة تالية، وهكذا يتأرجح النصر بين فريقين كليهما مستبد غاصب.. بينما كان أهل القرية البسطاء يترقبون.. يتابعون المشهد بين صمت اليأس المستكين، وبين طرح الرؤى والتفلسف للظهور بصورة من يستوعب الأحداث، لكنه لا يعدو عن كونه حديث لغو لا يملك صاحبه رؤية واضحة للأحداث، أو توقعاً يُنبئ عن غرائب المفاجآت التي يمكن أن تتكشف لهم مع الأيام.

كانوا كلّما فاجأهم ذلك الصراع بجديد يستقبلونه بدهشة وتعجب.. يفغرون أفواههم كالبلهاء، ثم يفيقون من سكرتهم على جملة كم تردّدت على ألسنتهم:

وما شأننا نحن البسطاء بهذا الصراع؟! ليس هناك فرق بين هذا أو ذاك، بل ربما غلب الأسوء!.. وما حالنا وحالهم إلا كالمستجير من الرمضاء بالنار، مع اختلاف أننا لم نستعِزْ من شيء بشيء، وإنما هي الأحداث تجري بنا على مقادير، ونحن على دين ملوكنا.

هذا هو منطق الناس الذين يريحون أنفسهم من عناء التفكير، ويسلمون زمامهم طائعين إلى من يقودهم في أيّ طريق.. ولا يهم أيّ شيء.. المهم أن يعيشوا.. يأكلوا، ويشربوا.. يُساموا كالبهائم!.. المهم أنهم يعيشون.

”يعني إحنا هنغير الكون؟!“ عبارة تُقال في كل عصر، وتحت أيّ سماء!.. وانطلق المنادون باسم الملك الجديد يجوبون المدن والقرى، وقد انقلب الخيال حقيقة، والمستحيل معقولاً!.. ”وإن كان المتكلم مجنوناً، فالمستمع عاقلاً“.. لكن لا عقل، ولا منطق، ولا احترام لعقل.. إن الشعوب سريعة النسيان إذا ما تربّت على الدّلة، والانكسار.

انطلقت الدعايا لكسرى الجديد البطل الذي لم يُخن، ولم يتحالف مع عدوّ!! حتى وإن كان قد فعل! فعليك أن تكذب نفسك!!

بالتأكيد كانت خدعةً منه، و”ضربة معلم“.. فالنصر أوالهزيمة لمملكة ليس لها مجالاً في حديثنا، المهم انتصار الملك لنفسه، فحياته أغلى من الوطن.. هذا ما قيل وهذا ما صدّقه الناس.. وهكذا عادت لكسرى بلاده موروثة أجداده بمن عليها.

خرجت جموع الناس تصفّق وترقص فرحةً بطاغية جديد جاء على أنقاض طاغية سقط، ومن قبله عشرات الطواغيت.. وبلادهم هي مسرح الأحداث، والشعب البائس هو من يدفع الثمن.. اندفعت الجماهير إلى الميادين مدفوعين بإغراء بعض الدراهم تطرح فوق رؤوسهم ينحنون لالتقاطها، أو لينفضوا عن كواهلهم تُهمّاً مُعلّبة قد تلصق بهم أنهم يناوئون الحاكم ويعارضوه.

وإظهار الفرحة أكبر دليل على الطاعة، و"من لم يكن معنا فهو بالتأكيد علينا!!".. وهذا هو دأب طغاة الحُكَّام في علاقتهم بشعوبهم الذليلة، وذيئذهم أبداً.. احتشد الناس بالمئات والآلاف تتوسط جموعهم بطانة الحاكم التي يسيل لعابها طمعاً في إطلاق يديها أكثر وأكثر.. تنشب أنيابها، ومخالبها في أجسادهم.. تلغ في دماء البسطاء التي تسيل من جراحهم.

خرج (طهمان) وولده بين جماهير الشعب التي اكتظت بها الميادين.. قطعوا مسافة طويلة من القرية إلى أقرب مدينة.. دفعهم الخوف والتهديد، ليس من قبل الدهقان وحده، وإنما من قبل المرزبان نفسه، وغيرهما.. كلُّ منهما يتباهى أمام كسرى برعيته.. بانكسارهم أمامه، وانصياعهم له.. وهكذا تنقل عيونه الصورة إليه: الجميع يُحِبُّونه، ويتمرغون في عزّه وسلطانه!!



خلت الدار على (جومان)، إلا من العجوز ربّة البيت، و(بانندان) المسجّى على فراشه.. فخطت خطوات قلقة بين أرجاء البيت، وأسلمتها حيرتها إلى باب الدار فاجتازته، لتقف في مواجهة الدار لحظات، ثم ارتكنت على جداره الخارجي، وسرحت ببصرها تنسم ذكريات الماضي.. تفتّش فيه لعلها تجد ما تحفّف به مرارة واقعها المؤلم.. موت الأب.. أخيها الذي اقتدته منذ أن سيق إلى الجندية.. أمها التي ماتت تحت وطأة المرض منذ سنوات فاختلفت ملامحها في ذاكرتها بين حالتها في نضارة عافيتها، وهزال مرضها.

عادت إلى الومضة المضيئة المتبقية في حياتها من ذكرياتها التي صارت مظلمة.. ابن جيرانها (ماهان) الذي تفتحت عينها على حبه، ثم قاسمها ذكريات طفولتها، وأحلام مستقبلها.

قطع صمت ساعة الهاجرة شدو بلبل صدّاح ترنم بلحنه الشجي بين غصون شجرة وارفة الأغصان.. تابعت ببصرها مصدر الصوت فلم تلحظ صاحبه.. كان يتخفّى بين الأوراق الكثيفة وكأنّها يراوغها في مداعبة رقيقة ذكّرتها برفيق طفولتها وهو يشاركها لعبها.. يختبئ خلف تلك الشجرة الضخمة التي شهدت سنوات تفتح قلبها الصغير على الحب.. نقلت بصرها بين الأشجار، والبيوت.. بين صفحة النهر الجاري، والأطيار.. بين الطريق الترابي، والحقول الخضراء المترامية الأطراف التي تنطبق عليها في الأفق زرقة السماء.. في كلّ بقعة سيل من الذكريات لا ينتهي..

لم تنتبه الفتاة وهي في نشوة ذكرياتها إلى تلك الأقدام التي تسلك نحوها في خفة، ولا لذلك الفرع الريشي الرهيف الذي داعب خصلاتها المسترسلة التي تنساب على جبينها.. ألحّ عليها مرات قبل أن تستفيق من غفوتها، فأزاحت بيدها ذلك الشيء.. لكنه عاد.. التفتت فجأة ليلتقي وجهها بوجهه..

ويعجز الكلام عن وصف شعورها، وما ينتظرها من السعادة والأمان.. إنّه حبيبها (ماهان)! وكأنّها هبط من عالم خيالها لتشرق شمسها على عالمها.. لقد استجاب الله لدعائها، وحقّق حلمها بوجود حبيبها إلى جانبها في هذه الظروف القاسية.. لم تعد وحيدة بعد اليوم!

أناخت همومها على عتبه، وأرخت أشرعتها في بحر محبته.. تُشبع حينها منه، وتضع قلبها بين راحتيه، يحدّثه بشوقها إليه..

عجز لسانها عن الكلام، فانطلق دمعها على وجنتيها يخبره بالأمها..
انطلق الابن العائد بلهفة الاشتياق إلى داخل الدار فارتقى في أحضان أمه، وأكبّ على أخيه يقبله وقد هاله ما رآه من رقده، وأحزنه، وما آل إليه حاله وحالهم.. أقبلت الأم على الابن العزيز تحدّثه بحديث قلب محزون، والابن يصغي إليها بأذان قلبه، يُقبل عليها بجميع حواسه.

وما هو إلا يوم أو يكاد حتى عاد الأب وابناه فشكر الجميع ربّهم الذي عوّضهم، وأبدلهم بأحزانهم أفرأحاً.. اجتمع شمل الأسرة كلها بعد تفرُّق، وحلّقت الأسرة بأجنحة السعادة من جديد.

جلس (ماهان) على شفا سرير أخيه، الذي سحب جذعه بعض الشيء بعد عناء فاعتدل قليلاً في جلسته، واستجمع تركيزه، وابتسامة رضاً تكسو وجهه..

أحاط الجميع بـ(ماهان)، الذي بدأ يقصّ عليهم من أسفاره وعجائب رحلته..

تحدّث (ماهان) بأريحية، وقال:

تعلمون أنني منذ طفولتي ليس لي جلد على الفلاحة وأعمال الزراعة، وكانت لي في صحبة خالي بالمدينة عوضاً عن العمل مع أخوتي، وذلك بتعلّم حرفة من حرف المدن؛ فالمدينة أكبر ورزقها أوسع من القرية، والعمل فيها

متاح للجميع، وتعلّم إحدى الحرف المنتشرة بها له مستقبله الطيب.. وقد وجدتُ في حرفة النسيج بغيتي وهي كما تعلمون حرفة خالي - فعلمني فنونها، وأسرار صنعتها، حتى أشربتها وأتقنتها.

هزّ الجميع رءوسهم بالموافقة، مما شجّع على مواصلة حديثه، فأكمل قائلاً:

كان دكان خالي صغيراً، يقع في مكان متطرّف من المدينة، ولم تعد صحته تعينه على العمل فاضطر لبيعه مكتفياً بما تقاضاه من ثمنه، ليعيش معتمداً عليه بقية حياته.. وكنت أرى أني قد أدركت من هذه الصنعة ما يكفي لتحقيق طموحاتي العريضة، فودّعتُ خالي الذي أقعده كبر سنّه ومرضه بين أهله وأبنائه، وارتحلتُ إلى (أصفهان) أشهر المدن في تلك الصنعة فعرضتُ صنعتي على أحد رفاق خالي في الحرفة كان له دكان بـ(أصفهان) يقصده رجال الدولة والأعيان فأحبّني وجعل لي بين عماله موضع الصدارة، وهكذا عملتُ حتى عرفني الناس، وذاع صيتي.

و ذات يوم قدّمتُ أفخراً بأجل ما صنعتُ بين يدي أكبر دهاقنة (أصفهان).. كان بساطاً كبيراً أخذ مني ساعات طويلة من العمل، فأعجبه أيّما إعجاب، وأجزل لي العطاء.. وإلى هنا فجميع ما سبق من أحداث يمكن أن يدخل في إطار الطبيعي المألوف، لكن ما جرى لي من أحداث بعدها كان أعجب..

فغر الجميع أفواههم في دهشة، مما شجَّعه أكثر على مواصلة حديثه، قال:
التقيتُ عنده بشابٍ عرفتُ أنه ابنه، كنتُ قد ألتقيتُ به من قبل في بيت
النار - قلتُ في نفسي حين وصلتُ إلى المدينة أن أتوجَّه أولاً إلى بيت النار
لأتبرَّكَ بالنار المقدَّسة، وأتضرع إلى الربِّ لعلَّه يوفِّقني كان الشابُّ يدعى
(مابه)، وكان يقوم بأمر النار المقدسة التي لا تخبو أبداً.. وهذا عمل كما
تعلمون- يلزمه انقطاع للعبادة، فكيف يقوم بهذا العمل الشاق، وهو من
هو؟!.. ثم كيف به بعد ذلك يرافق أباه في ضيعته طوال الوقت ويترك عمله
المقدس؟!!

أسئلة كثيرة تراحت في رأسي..

ولا أخفي عليكم، فقد نزل هذا الشاب في قلبي منزلة عظيمة لما رأيتُ فيه
من دينٍ وخُلُقٍ، وتوطَّدت بيننا الصداقة وكان يحبُّ أن أناديه (سلمان)!!..
وكثيراً ما كان يضيِّقني عنده في قصر والده، حتى صارت لي حُظوة عنده..
واستمرت الأمور بيننا على هذا المنوال فترة حتى ذهبْتُ إليه يوماً فأنكره
حرس القصر عني..

مرَّ على ذلك بعض الوقت، ثم داهمتني قوة من الجند فألقوا القبض عليَّ،
واقْتادوني إلى قصر الدهقان.

فوجئتُ بتغيُّر كبير في المعاملة، فقد لقيت منهم غلظةً وشدةً لم أكن
أتوقَّعها، وإذ بهم يسألونني عن صديقي الشاب:

أين ذهب؟ لابد أنك تعرف.. أخبرنا عن مكانه وإلا أذقناكَ أشدَّ العذاب!
أقسمتُ لهم بالآلهة العُلى والخالدين المقدسين^١ أني لا أعرف وبالفعل لم
أكن أعلم شيئاً عما يجري من حولي.. ظللتُ عدَّة أيام رهين الحبس حتى أفرج
عني.. عرفتُ من أحد الخدم بالقصر أن صديقي (سلمان) مال إلى النصرانية
فحبسه أبوه وعذبه، لذا لم أره، ثم فرَّ بدينه الحديد، فاستدعاني الدهقان لعله
يستدلُّ مني على مكانه، ولما علموا أنه ارتحل إلى الشام وأنني على دينهم ولم
أتبعه خلوا سبيلي.

وكانت هذه الأحداث سبباً في أن رغبتُ عن تلك المدينة التي أُوذيتُ
فيها فهجرتها إلى غيرها، ولبثتُ فترة تفرَّغتُ فيها لصنعتي حتى بلغت مبلغ
الكمال فيها، وبدأتُ أرتاد قصور الدهاقنة، والمرازمة، والأعيان، ووجوه
القوم.

وصلتني أخبار صاحبي فعرفتُ أنه وضع رحاله بـ(الموصل)، وكنتُ
قريباً منها فارتحلتُ على الفور إليها.. وجدتُها فرصةً لألتقي به بعد غيبة،
وأعمل في هذه المدينة ذات التجارة، والأسواق.

وهناك التقيتُ بصاحبي (سلمان)، فطلب مني أن أكتُم عنهم مكانه،
وأخبرني بقصته التي لم أكن أعرف كثيراً منها، ولم أكن بعد قد ربطتُ
أحداثها، قال:

(١) الخالدون المقدسون: هم المساعدون الستة للإله (أهورا مزدا) إله الخير في معتقد
المجوس، حيث يعتقد المجوس في وجود إلهين أحدهما للخير، والآخر للشر، وهما في
صراعٍ دائمٍ ينتهي بقيام الساعة، وانتصار إله الخير.

كما عرفت.. فأبي (بوذخشان) أكبر دهاقنة (أصفهان)..

واصل (سلمان) حديثه قائلاً:

وكنْتُ ولده الوحيد، وأحبَّ الخلق إليه؛ فأجلسني في البيت كالجوارى..
لم أكن في حاجة إلى العمل وبذل الجهد، وأنا مَنْ أنا، فأبي صاحب قصوراً
وضياع.. واجتهدتُ في المجوسية ففرح بي أبي، وتقدَّمتُ أكثر في العبادة حتى
كنتُ في جملة خدم النار التي تُوقَد ولا تحبو، لكن انشغالي بالعبادة عن مصالح
والدي لم يرقُ له، فأمرني أن أنطلق إلى الضيعة فأتابع العمل فيها، وأحافظ
على أموالنا، فأطعتُ والدي وخرجتُ لذلك، فمررتُ بكنيسة النصرى
وهم يصلُّون فمالت نفسي إليهم، وأعجبني أمرهم، وقلت في نفسي:

هذا والله خير من ديننا..

قال (ماهان):

فأنكرتُ كلامه وعجبت له.. واستطرد (ماهان)، ليتابع كلام (سلمان)،

قال:

فأقمت عندهم حتى غابت الشمس.. لا أنا أتيتُ الضيعة، ولا أنا أتيتُ
أبي.. فاستبطنني أبي، وبعث رسله في طلبى..
وقلت للنصارى حين أعجبني أمرهم:
أين أصلُ هذا الدين؟

قالوا:

بالشام..

ثم رجعتُ إلى والدي فتعجب من أمري، وقال:

أين كنتَ؟!

قلتُ:

مررتُ بقوم يصلُّون في كنيسة فأعجبني ما رأيتُ منهم، وعلمتُ أنَّ دينهم خير من ديننا!

فقال أبي غاضبًا:

دينك ودينُ آبائك خير من دينهم.

فقلتُ:

كلا والله!

فحبسني وقيدني.. فبعثتُ إلى الكنيسة أحد الخدم سرًّا، وأعلمتهم ما وافقني من أمرهم، وسألتهم من يصحبني منهم إلى الشام.. ولما وافاني الخادم بالردِّ أقيتُ الحديد من رجلي، وخرجتُ معهم حتى أتيتُ الشام، وسألتهم عن أعلمهم فدلُّوني على أسقف بها، فأتيته وأخبرته بأمري، وعرضتُ عليه أن أقيم معه وأخدمه، لكنَّه كان رجل سوء؛ كان يأمرهم بالصدقة فإذا أعطوه شيئًا أمسكه لنفسه حتى جمع سبع قلال مملوءة بالذهب والفضة، وما لبث قليلًا حتى مات.. وأخبرتهم بأمره فأنكروني، فدللتهم على ماله فصلبوه،

ثم رجوه ميّتا، وأحلّوا مكانه رجلاً فاضلاً في دينه، صالحاً، زاهداً، راغباً في الآخرة، ألقى الله محبته في قلبي، فصحبته حتى حضرته الوفاة، فقلت: أوصني!

فذكر لي رجلاً بـ(الموصل)، فأتيتها حتى التقيت بك الآن.. وإني مكثت قبل أن ألقاك هنا فترة، فلقيت ذلك الرجل فأخبرته بخبري، وأقمت معه فوجدته كسابقه في حسن السيرة حتى حضرته الوفاة، فقلت له: أوصني!

فقال:

لا أعلم أحداً اليوم على مثل ما كنا عليه، ولكن قد أظلك نبيّ يُبعث بالحنيفية دين إبراهيم، مُهاجرُهُ بأرض ذات نخل، وبه علامات لا تخفى.. قال (ماهان):

فعجبتُ لأمرٍ ما سمعتُ مثله قبل اليوم!.. نبيّ يأتي في آخر الزمان!! وسألته:

وما هي علاماته؟!

قال:

بين منكبيه خاتم النبوة، ويأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة..

وأوصاني أن أتبعه وألزم دينه، وقال:

أنا مرتحل إلى الشام، وإلى أي أرض أجدها تلك العلامات التي سيُبعث فيها هذا الرسول، أو يهاجر إليها..

ولم يكن ما أصاب (ماهان) من العجب بأقل مما أصاب مستمعيه!

قال (ماهان):

فما إن أنهى حديثه، حتى وقع أمره من نفسي موقعاً عظيماً، ورأيتُ من عزمه، وإصراره، وما يكابد من مشقة ما حملني على إجلاله وتعظيمه، وتشوّقتُ للقاء هذا النبي الذي سيستقيم على يديه ميزان العدل المختل، وتُرفعُ عنا يد الظلم الباطشة التي كم أذلّتنا! وكم ربضت على صدورنا!.. صمت الجميع للحظة، وقد أخذ منهم العجب كل مأخذ، ثم واصل (ماهان) حديثه، قائلاً:

تردّدتُ أن أصحبه في رحلته تلك، لكنني كنتُ في حاجة إلى المال لآتي به إليكم، فودّعته.. ثم عكفتُ على عملي فأجدتُ الصنعة حتى ذاعت شهرتي، وعوّضني الله عن المدينة ذات الصيت في هذه الحرفة التي غادرتها بأن ذاع صيتي في أرجاء المملكة كلها.. وأوصلتني مهارتي في الصنعة إلى (طيسفون)^١ مدينة كسرى، حيث عملت في دار صناعة النسيج بها.

اختلطت مشاعر الفخر بها آل إليه أمر (ماهان) بمظاهر الدهشة التي بدت واضحة على وجوههم من عجب ما سمعوا.. فبادره (شودار) متسائلاً، وقد تملكه العجب:

(١) طيسفون: هي عاصمة دولة الفرس الساسانية، وكانت تقع شرق نهر دجلة، وكان العرب يسمونها: المدائن.

سمعنا كثيرًا عن القصر الأبيض، فهل يشبه في بنائه وهيئته قصر المرزبان،
أو حتى قصر الدهقان؟!

أجابه (ماهان)، وقد لمعت عيناه ببريق الانبهار:
القصر الأبيض.. إنه شيءٌ من وراء العقول!.. ومهما وصفته لكم فلن
تتصوّروا مبلغ فخامته وعظمته!
وتمتم بكلمات:

سيأتي يومٌ أصل فيه إليه.. لَكُمْ تَمَنِّيْتُ أَنْ أُنْزِلَكُمْ بِقصرٍ مثله!
ونظر (ماهان) إلى عروس أحلامه.. قد أطلق لخياله العنان فتلاقت
الأحلام في عينيها بمثلها في عينيه.. وخاطبها بلسان قلبه:
ليتني أستطيع أن أسكنك في قصرٍ مثله.. فأنتِ تستحقين أن تكوني
ملكةً، كما كنتِ ولا زلتِ ملكةً على عرشٍ أحلامي..





الفصل الثالث

الحاكم الطاغية مهما جاوز المدى في الجبروت والطغيان لا يعدو عن كونه فرداً واحداً أمام جموع الناس الهائلة، وما استطال عليهم إلا بخضوعهم الذليل له، وما تسلط عليهم إلا بانكسار عزيمتهم أمام صلفه وغروره، وما علت هامته فوق رؤوسهم إلا يوم انحنوا له، ومرَّعوا جباههم في التراب ليطأ رقابهم بنعله.. إنَّه لم يستمد قوّته إلا من ضعفهم، ولا شجاعته إلا من جبنهم وتخاذلهم..

كان هذا هو حال كسرى الجديد وحال شعبه، وليكتب ذلك الشعب كدأبه دوماً فصلاً مكرّراً في كتاب تاريخه البائس الذليل!
وتعجب حين يأتي منهم مَنْ يفاخر به ويسمّي هذا الكتاب: كتاب الحرية، والكرامة، والنصر!!

وأئيّ حرّية يكتسبها المرء في ظلّ انتكاس العدل، وتقييد الحق، وصمت الضمير.. تحت وطأة ملك غشوم تستوي مرارة حكمه عند شعبه مع حكم أعدائهم وأعدائه؛ فكلاهما مُسلط على رقبتة.. مُتحمّك في مُقدّراته.. ساحق لإرادته.. وهكذا عاد الظلم بصورة غير مسبقة متمثلاً في هذا الكسرى الجديد الذي تحطّى في الفساد والظلم جميع من سبقوه من عتاة الأكاسرة.

وانطلقت جوقة النفاق التي تحيط بموكبه من سحرته الذين يدجلون على البسطاء، ويعزفون على أوتار قلوبهم المتعطّشة للأمل أنشودة الكذب.. أنشودة البطولة المزعومة، والجهاد الزائف.. أن قد جاءكم البطل الذي سيعبر بكم فوق أنقاض الهزيمة، ويقيم لكم على الهزيمة جسورًا تبلغ بكم إلى النصر.. لا بد للشعب أن يتحمّل الجوع والحرمان، وأن يصبر على مرارة العوز والفقر، وأن يتجرع راضيًا غُصَصَ الأحزان.. وليربط على بطنه حزامًا.. وليضيّق حلقته عليه أكثر وأكثر.. لا يهيم!.. حتى وإن تمزّقت بطنه.. لا يهيم!.. وإن استحال هذا الحزام حول رءوس أفرادهِ لجامًا، يقودهم به القائدُ الملهم الذي لا يريهم إلا ما يرى ولا يهديهم إلا سبيل الرشاد!!

يمشون فوق الأشواك، ويتحملون الآلام في سبيل الغاية الكبرى! في سبيل النصر! الذي لا تدفع ضريبته سوى جموعهم المطحونة، ولا يجني ثمرته إلا هو!.. عليهم المغرم، وله المغنم! عليهم الذلّة، والصّغار، وله وحده المجد، والعلّا!!

وانتشرت أبواقه بين الناس يعبثون بعقولهم، وانطلق سحرته يتلاعبون بقلوبهم.. ورغم افتضاح نفاقهم الفجّ، وازدحامهم على كل الموائد، وكذبهم البوّاح سيظلّ الشعب غافلاً مخدوعًا!.. إنهم لا يخدعون جموع الناس، ولكنهم يساعدونهم على خداع أنفسهم!

فقد أصبح الناس تحت حكم ملك خائن تحالف مع أعدائهم، وحارب بلادهم تحت راية أعدائهم.. يزعم أنّه مدّ إليهم يده ليتشلهم من الضياع

ويضع أقدامهم المرتعشة على برِّ الأمان! ثم يتسربل بسر بال الوطنية، ويأترّر
بإزار البطولة، ويدّعي النصر!!

والشعوب سريعة النسيان.. فسرعان ما حملوا معه راية الوطنية المزعومة،
ونسوا تحالفه مع أعدى أعدائهم!.. كذّبوا أعينهم التي رأت، وأذانهم التي
سمعت، وعقولهم التي وعت من قبل فصول خيانتة!.. ونادى مناديه بالجهاد
المقدّس!

أطلق رجاله يجمعون المال.. يفرضون الضرائب أكثر.. يسرقون،
وينهبون..

والشعب صنفان مالك، وأجير.. أكابر، وأصاغر.. الأكابر هم رجال
الملك المخلصين من المرازبة، والدهاقنة، والموازنة، وأعوانهم الذين لا تفرغ
خزائنها، فهي دائماً مكتظة.. ودورهم معروف، هو جمع المال.. امتصاص
دماء الفقراء الذين لم يتبقّ لديهم من الدماء ما يكفي ليقدموه.. ولا يحقّ لهم
حتى الاعتراض فهم الصغار الحقيرون.

انطلق الجباة يسلبون أموال الناس من أقواتهم الشحيحة ينتزعون معها
أرواحهم ودماءهم، ووقف الموبدان والهرابذة من رجال الدين يترنّمون
للكسرى بالدعاء، ويرتلون تراتيل النصر.. يباركون خطواته فهو لم يعد
ذلك القائد الملهّم، بل صار في عرفهم إلهاً!!.. لقد لَقَّبَ كسرى نفسه بالإله
العظيم!! ونادى رجال المجوسية في الناس بأنّه إله البشر الذي خلقهم،
وبيده رزقهم، وإليه مألهم!! فلا يعارضه إلا كافر مُستباح الدم، ولا يخالفه

إلا زنديق مُستحلّ القتل.. فانصاع له الجميع برهبة الكثرة من البسطاء الخائفين، وبجشع القلّة من المنتفعين الأفّاقين.

مرّت الأحداث على بيت (طهمان)، مثلما مرّت على غيرهم من أسر البسطاء وهم كثير- لا يأبهون بها، ولا يهتمون.. ولسان حال كل بيت منهم: "ما يجري على الناس يجري علينا".. ولتمرّ تلك الأحداث عليهم مرور الكرام!.. ظنّوا أنهم عنها ببعيد.. لكن للظلم يدًا قادرة تبطش بالجميع، ومن ظنّ أنّه بانعزاله عن الناس في مأمن منه فهو واهم، إنّهُ بلا شك على خطر عظيم؛ فحزمة الخطب لا تنكسر أعوادها مجتمعة، إنّها تنكسر فرادى.. وطوفان الظلم يكتسح أمامه كل شيء، وهو إذا عمّ وطمّ لا يدع بيت مدر ولا حجر، إلا وغشاه.

أصبح (طهمان) وأهل بيته وجندُ (جaban) يغشون أرضهم.. يتقدّم جمعهم قائده العنيد (نرسي) الذي لم ينس ثأره مع أهل هذا البيت.. جاء يحمل مرسومًا استصدره من الدهقان بإلقاء القبض على الكهل (طهمان) ونفر من أهل القرية بتهمة المشاركة في تدبير الانقلاب، وإطلاق سراح (ميراز) وعدد من المساجين.. لم تشفع عندهم حقيقة موت (ميراز)، فهو لم يزل في قانونهم السجين الذي تم تهريبه والتستر عليه وإخفاؤه جريمة تستوجب أغلظ العقوبة وأخيرًا القبض على (بانندان) الذي لم يتعاف بعد من إصاباته!.. كانت تهمة الأخير مقاومة السلطات!.. لم تشفع توسلات الجميع للإبقاء عليه حتى يبرأ! انتزعوه من فراشه انتزاعًا.. جرّوه جرًّا!

ووقف (نرسي) يرمقهم بعيني ذئب شرس، يقدح من عينيه الشرر..
تفرّس في وجوههم جميعاً.. صبّ على (جومان) نظرةً ثاقبة، لم يلتفت عنها
حتى أتمّ كلامه بالتهديد والوعيد، ثم انصرف هو وجنوده يقتادون (طهمان)
و(باندان).. كهولة الأب، ومرض الابن يئنان في الأصفاد والأغلال.

لا تدري (جومان) سبب تلك الرعدة التي سرت في أوصالها جراء
نظرات قائد الجند.. أحسّت أنّه سيُجهز عليها كذئب مفترس، ولعله أمهلها
حتى حين!

لم يمضِ عليهم يوم أو بعض يوم إلا ومنادي كسرى يجوب كل قرية
ومدينة ينادي بالجهاد.. ولتُقرّع طبول الحرب.. وطقق الدهاقنة يجمعون
الشباب للجنديّة بالسخرة، وكان لبيت (طهمان) من الهموم نصيبه.. كان
الفرار من الجنديّة جريمة مغلّظة تستوجب القتل، لذا كان على الشاين
(شودار) و(زاران) أن يتوجّها إلى ساحة قصر الدهقان ليسجلا حضورهما
في غضون ساعاتٍ قليلةٍ من إخطارهما بإشارة الاستدعاء، وإلاّ تعرضا لأشدّ
وأنكى العقاب.. يكفي ما أصاب الأب وأكبر الأبناء!

وانطلق الشبابان في حشد من أبناء قريتهما والقرى المجاورة، يحيط بهم
جند الدهقان.. ساروا طويلاً.. كان الجنود يتناوبون عليهم، وهم لا يزالون
في طريقهم تتوافد عليهم من القرى المجاورة جموع وجموع.. يسرون بلا
مئونة أو راحة.. لا يعرفون لمسيرهم وجهة، ولا لطريقهم نهاية.. أعطي كلُّ
منهم درعاً، وسيفاً، أو رمحاً.. واستمروا في طريقهم لينتهي بهم المسير إلى

ساحة القتال، وقد احتشد مثلهم أُلوف.. عرفوا أنهم متوجهون إلى الجنوب في قلب الصحراء لتأديب إحدى قبائل العرب المتمردة.. حقيقة لم يعرفها أكثرهم إلا على بعد ساعات قليلة من القتال المُحتم.

من السهل عليك أن تكون في صفوف جيش عرمرم قوي يقوده صلفه وغروره لتأديب حفنة من المارقين، لكن من الصعب عليك أن تواجه الحق ولو قلّ أنصاره - بسيف الباطل الذي يلوح من بعيد ببريق الغرور الزائف. كان كسرى قد غضب على (النعمان بن المنذر) عامله على (الحيرة)، وكلاهما في عرف هؤلاء البسطاء مَلِك، وأمامهما جميعهم مدفوعون بالأبواب.. إنَّه صراع الكبار!.. والصغار ما هم فيه إلا أداة تُحرَّك كقطع الشطرنج في هذا الاتجاه أو ذاك.. أداة بلا عقل، أو إرادة.. هذا كان حال هؤلاء الجنود من أبناء الشعب البسطاء.. لكن كان الحال مختلفاً على الجانب الآخر، فقد اصطفَّ للقتال جيش خرج يقاتل على مبدأ.. فما إن أرسل كسرى إلى الملك (النعمان) يطلبه حتى أحسَّ الملك (النعمان) أنَّه يضمّر له الشر، فنزل على (هانئ بن مسعود) سيد آل شيبان، فاستودعه أهله وماله، ثم توجَّه (النعمان) إلى كسرى فأساء إليه، وحبسه، وعذَّبه حتى مات، وولَّى عاملاً له مكانه، ثم أرسل إلى سيد بني شيبان يطلب منه أن يسلمه ما عنده من قِبَل النعمان، فأبت عليه نخوته وأمانته أن يستجيب لأوامره.. لم ترهبه مهابة كسرى وقوته، فأذنه بالحرب.

لقد جُنَّ جنون كسرى.. كيف يتجرأ العرب وهم الرعايا البائسون- على كسرى ملك الأرض، فأرسل كتابه، وأمر ملك (الحيرة) الحديد بالحرب.. فهل يتنصر الصلف والكبر على المروءة والشهامة؟!.. وكثيراً ما أهلك الغرور أصحابه!.. الغرور الذي يجعلك في غفلة عن مواضع قوة عدوك، وينسيك مواضع ضعفك.

وجد (شودار) وأخوه (زاران) نفسيهما وسط آلاف مثلهما كزغب متطاير في مهبِّ الريح.. مدفوعون في آتون حرب ضروس لا لشيء إلا لرغبة كسرى، ووفق إرادته، وغضبة على مَنْ تجرأ على حماه المهاب.. لم يقدم لهم كسرى شيئاً، بل أخذ منهم كل شيء، واليوم هم يضطُّون في سبيله!.. يقدمون أرواحهم فداءً!.. فأَيُّ ظلم هذا؟!

حقاً لقد كان الجيش كبيراً، ويؤرُّهم كبارُ المرازبة، وملك (الحيرة) الذي خلف (النعمان)، لكنها لا تعدو عن كونها جموعاً واهية بلا حميَّة، ولا روح. لم يشعر الأخوان وسط تلك الحشود الهائلة بالأمان.. كانت مشاعر الخوف من المجهول تسيطر عليهما.. كم عاشا تحت وطأة حاكم ظالم!.. بالأمس قد ظلمنا.. قبض على الوالد الكهل، والأخ المصاب.. لم يستمع رجاله إلى ضراعة توسلاتنا.. واليوم يُلقِي بنا في آتون الحرب، لا لشيء إلا من أجله هو، غيرة لنفسه!

لقد ظلمنا بذلك مرتين، وسيمتد الظلم على يديه في كتاب حياتنا فصولاً متعاقبةً لا تنتهي.. وماذا تعني حياتنا أو موتنا لديه؟!.. لا شيء عنده مهم..

المهم أن يبقى فوق الصدور والرقاب يدوسها.. يفتنى الشعب كله ويحيا
كسرى!!

ومني جيش الفرس بهزيمة نكراء على أيدي العرب قليلي العدد والعدة،
فيما عُرف بوقعة (ذي قار)^١.

لم يكن في مقدور الأخوين وغيرهما من أبناء الفلاحين البسطاء أن
يضخّوا بحياتهم، لا في سبيل دين ولا وطن، وإنما في سبيل عزّة ملكٍ كم
أذلّهم، وأهدر كرامتهم!

وما أشدَّ غضبة كسرى حين وصلته أنباء الهزيمة!

كانت الخسائر في الأرواح فادحة.. والخسارة في عُرف كسرى لا تعني
موت حفنة من الجند أو هلاك الجيش كله فما هم إلا رعاياه وعبيده لكن أن
يتجرّأ على سيد الأرض حثالة من الرعاع!!

جلس كسرى على عرشه يتلمّظ كالحية من فرط الغضب، وعيناه تقدحان
الشرر.. صبَّ جامَ غضبه على عامله الجديد على (الحيرة) الذي خيَّب أمله
فيه، وعلى قائده المهزوم الذي نجا بحياته من الميدان..

ما أسرع العقاب على لسان حاكمٍ ظالم! وما أهون الدّمّ المُستباح عنده!

(١) وقعت هذه المعركة قبيل بعثة النبي ﷺ وكانت نحو عام ٦٠٩م حيث قاتلت
فيها بنو شيبان، وبنو عجل من بطون بكر وإياد كتائب كسرى وهزموا جيشه هزيمة
ساحقة، وفيها قال الرسول ﷺ: «هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم».

أمر بقتل قائده وعدد كبير من القادة والجند، وسجن الكثير منهم..
كانت جريمتهم أن تقاعسوا عن الدفاع عن اسم كسرى!.. كيف يُهزَمون
وقد استحضروا روحه العليّة؟!

اجتمع لكسرى في مجلسه وزرائه، ومرابضه، وحاشيته، وسحرته،
ورجاله من الرءوس والأعيان يتذلّلون له ويسترضوه، بينما هو في ثورة
غضبه لا يقوم لها شيء.. لم يكن يعنيه إلا صورته المرهوبة تلك التي اهتزّت،
وتلاعب بها أجلاف العرب رعاة الشاة، كما اعتاد دوماً أن يصفهم.

وانفضّ الجمع.. لم تعرف جموع الناس ما دار في اجتماعهم، وربما لم يعرف
أكثرهم بالاجتماع ألَبَّة؟!.. المهم هي النتائج التي خرج بها منادوه على الناس
ضحى، وبجرأة بغى لا تستحي.. انطلق المنادون يجوبون القرى والمدن
يعلنون انتصارات كسرى المبهرة!.. يعلنون خبر تأديب كسرى لـ(النعمان)
عامله على (الحيرة)، ذلك الملك الكبير الذي جاءه يرسف في قيوده ذليلاً،
ومات عنده في العذاب!.. تمرد على الكسرى العظيم، فصار عبرة لمن يعتبر،
بل وأخذت بجريرته قبائل العرب التي أعانته، فذاقوا كأس الذل والهوان..
وهذا هو حال كل من يتجرأ على كسرى ملك الأرض!!

ونادى مناديه في الشعب باسمه الجديد.. (أبرويز) - بلغتهم أي: المظفر
أو المنتصر!!

توافدت جموع حول القصر تدعوا له وتبارك انتصاراته.. تهلّل وترقص..
تدور بلا عقل في دارات بطولاته الزائفة.. حتى الذين نُكبوا في تلك الحرب

بأبنائهم لم يحرك أحد منهم ساكنًا، كلُّ منهم يلوذ بصمته، فلا يصح أن يفسدوا الاحتفالات بالنصر، وإن لم يكن نصرًا!! وما يعني النصر في عرفه، إلا تثبيت مُلكه على جماجم شعبه المطحون؟! وما هو في عرف حاشيته ورجاله، إلا تفويض لإطلاق أيديهم بالسلب، والنهب، وجمع الأموال بالقهر، والعسف! أما أسرة (طهمان) فلم تعد أسرة بمعناها المعروف، فقد غاب الجميع وبقي (ماهان) وأمه العجوز، أُفردا كما أُفردت (جومان) من بيت (ميراز).. لقد رحل الجميع بين موت، وطول غيبة مع انقطاع أمل.. ولم يعد للأرض من يراها فبارت، وتفاقت على أصحابها الديون فانتزعت منهم أراضيهم لتنحسر حياتهم في بيتهم المتواضع.

تمددت الأم على فراشها البسيط تغالب أوجاع جسدها المنهك بأوهان الشيخوخة، وأحزان قلبها الذي كسره الحزن على غياب الزوج رفيق العمر، والأولاد فلذات الكبد.. وجلست (جومان) قبالة الأم على قفص من الخوص غطته بفراء شاة مدبوعة.. انحنت عليها تواسيها حدبًا، وعطفًا.. ترتوي من حنان أمومتها التي فقدتها ولم يعد لها في الدنيا سواها.. وتسقيها من عاطفة بنوتها ما تعوضها به عن فقد أبنائها.. تختلط دموعها معًا.. يرتشفان سويًا كأس الأحزان مترعًا بدموع المآقي، وأحزان القلب.

دخل (ماهان) عليهما الحجرة المتواضعة، وقد تنحنج في أدب، وعلى الفور عدلت (جومان) جلستها في تحفُّظ.. نقلت العجوز بصرها إليه، وقد

جاهدت بما أُوتيت من قوةٍ لترفع جذعها عن موضعه، فما استطاعت من فرط إعيائها.

بادرهما (ماهان) بالتحية والسلام، وأكبَّ على يدي أمه وجبينها يقبلها في بر ورحمة، ثم حيَّا (جومان) في رقةٍ وعدوبة، وطفق يحادثهما بلسان قلبه، وحديث روحه:

طالت غيبة أخويّ، لقد اشتقتُ إليهما فمتى يعودان؟! هل سنفقدهما كما فقدنا أبي، وأخي الأكبر؟!

انحدرت دمعتان من عيني (جومان) سالتا على وجنتيها.. تذكرت الأب المتوفى، والأخ الغائب.. قالت بلهجة متهدّجة منكسرة:

وهل يعود مَنْ أخذ في الجنديّة؟! إنّها السخرة بعينها.. جيش يخدم كسرى وأطماعه.. فأنا منذ سنين أنتظر عودة أخي بلا جدوى!!

قال (ماهان):

معك حقُّ يا (جومان).. فالسجن والجنديّة في بلادنا ليست بينهما ثمة فرق! كلاهما سخرة، وكلاهما عبودية!

قالت الأم بصوت متحشرج:

أيعني هذا ألا أمل في رؤية ولديّ؟! أحرمتُ منهما كما حرمتُ من أبيهما، وولدي الأكبر؟!

إنّني أشعرُ بدنو أجلي، وأخشى أن أفارق الحياة دون أن يجمعني بهم جميعاً مكان تحت السماء!

تحدّث (ماهان) في شروود وكأنّها يخاطب نفسه، ولكن بحديث مسموع:
لم يعد لنا في هذه القرية مكان، وقد فقدنا الأرض التي كانت مصدر رزقنا
الوحيد.. لا بد أن نرحل إلى المدينة.. إن رزقي هناك يناديني.. لقد أصبحت
صاحب حرفة، ماهراً في الصنعة.. المستقبل ينتظرنى هناك.. سأربح الكثير
من المال، وسنصبح أثرياء.. سنشتري بيتاً جميلاً نعيش فيه جميعاً بسلام..
سنودّع أيام الشقاء.

قالت الأم متأثرة:

ولدي! أنا لا أستطيع أن أترك بيتي الذي عشتُ فيه سنوات عمري
الطويلة.. يا بُنَيَّ أنا مثل السمكة إذا أُخرجت من الماء ماتت.. فلا تحرمني
أن أموت في بيتي! وليكن هذا آخر ما أتمنى من دنياي!
ارتسمت بسمة مرتجفة على شفيتها، وواصلت كلامها:

يا ولدي! لا يمكنني أن أفقد الأمل، سيعود إخوتك الثلاثة، وسيعود
أبوك.. هكذا يحدثني قلبي، وقلب الأم لا يكذب.. وإلى أن يعودوا فأنا في
انتظارهم.. فاذهب أنت إلى عملك بالمدينة! وفقك الله، وعُدْ بعد أن تجمع
من المال ما يكفي لسداد ديوننا، وتسترد أرضنا! حتى إذا رجعوا وجدوا كل
شيء كما تركوه.. ومن يدري؟! ربما رجعوا قبل ذلك ليستعيدوا ما سلب
منا!

ولم يعد أمام الشاب الذي أصبح العائل الوحيد للأسرة سوى الاستجابة
لمطلب أمه، وليوفقه الله!

سينطلق في صباح الغد إلى مدينة كسرى الكبيرة ليواصل عمله الذي
صار له باع كبير فيه.. وسيعمل بكل طاقته ليحقق أمل الأم الرءوم، والحبيبة
المخلصة.. وقريباً سيعود ليحقق الحلم الذي كم تمنّاه! لكن ما أبعد الآمال في
زمنٍ يضنُّ فيه على البسطاء ولو بمجرد حلم!





الفصل الرابع

ودَّع (ماهان) أمه وحيبته، وانطلق إلى مدينة كسرى، حيث دار صناعة السجّاد الشهيرة..

لم يكن (ماهان) في حاجة إلى تقديم نفسه، فقد كان معروفًا لدى شيوخ الصنعة، وهناك التقى بصنّاع مهرة جاءوا انصياعًا لأوامر كسرى، الذي أمر بجمعهم من أرجاء المملكة وخارجها في دار الصنّاعة التي أنشأها وألحقها بعاصمة مملكته؛ لتقديم أفخر وأعظم صناعاتهم في قصور كسرى، ولتكون أعجوبة زمانها.. وهكذا تجسّد سحر الشرق أعاجيب من وراء العقول تسحر الألباب، وتأخذ بمجامع القلوب إكبارًا وإجلالاً.. ولولا أنّ (ماهان) عاينها بعيني رأسه ما كان ليصدّق!

وبعد شهور طويلة من مشقة العمل المضني اكتملت تلك التحفة التي ليس لها مثل في عالم البُسْط والسجّاد.. أخرج فيها (ماهان) وخيرة صنّاع المملكة بدائع فنونهم وخبراتهم، وبلغوا في مجال الصنّعة حدّ الإتقان.. شيء ليس له مثل! بساط كسرى أو بساط القفط - كما سمّاه العرب أعجوبة زمانه، وواحد من أعظم عجائب عصره!!

وجاء موعد عرضه على كسرى، ووقف (ماهان) ومئات مثله من النّسّاجين في موضع قريب ينتظرون ماذا يرى كسرى فيهم.. من يدري؟!

ربّما إن لم يحظَ هذا الشيء بإعجابه لأمر بالإطاحة بـءوسهم جميعاً، وأما إن راقَتْ له صنعتهُم فربما يصيبهم من الخير ما يكفي لإسعادهم، وإسعاد أجيال متعاقبة من أبنائهم وأحفادهم!

وعلى مساحة واسعة من الصحراء في مواجهة الإيوان الهائل الذي يقبع تحته كرسيُّ العرش توسَّط (ماهان) جمعاً غفيراً من النساجين والعمال يحملون أكبر بساط عرفته البشرية! بساط شديد الاتساع بدا كحديقة مترامية الأطراف! ستون ذراعاً طويلاً، ومثلها عرضاً! فيها مثل العشب الأخضر يزهو، تشقُّه أنهار من الفضة تترقق، وتحيط بها سماءات صافية الزرقة، يتوسطها قرص الشمس ترسل أشعتها الذهبية، وكواكب تبزغ، ونجوم تتلألأ، وندف من السحاب ناصع أبيض، وأسراب الطيور تتسابق!.. وقد نُسجت على حافتها فصول السنة الأربعة، ففيها ألوان من زهور الربيع تتنوع، وجداول تتدفق فرحاً بالصيف، وشذرات ورق الشجر المذهب في الخريف، وثلوج ناصعة كالروح من برْد الشتاء!.. فبدت كعالم متداخل لا يُخَيَّل لأحد أنه يستطيع وطأه بقدميه!

ووضِع هذا البساط على مساحة كبيرة قبالة عرش كسرى، وقد اصطف رجال كسرى، ووزراؤه، ومرازبته قد فغروا أفواههم عجباً وهم يطالعون تلك التحفة الفنيّة التي لم يسبق لها مثيل.. كان الجميع في انتظار قدوم كسرى. وقف (ماهان) بين أقرانه يفاخر بدوره في هذا الإنجاز العظيم، يتباهى بصنعة يده.. رمى ببصره تجاه قصر كسرى الأبيض الذي كان هو الآخر

أعجوبة زمانه، وتطلّع في فضول إلى ما حوله من أعاجيب، فهذا موضع الإيوان من القصر.. بناء عالٍ ضخم لا يتجاوز بصرك أعلاه إلا بالجهد الجهد، رُفِعَ بناؤه المجوّف كالمحراب من غير أعمدة، واستقر العرش في تجويفه الرحيب، وقد تدلّت من سقفه سلسلة ذهبية عملاقة تنتهي بشيء يتلألأ يُقال له تاج، لكنه ليس كالمعهود من تيجان الملوك، فهو من الذهب الخالص يخطف الأبصار، مُرَصَّعٌ بصنوف الجواهر: الياقوت، والفيروز، والزبرجد، والعقيق، والماس، والمرجان، واللؤلؤ... على كافة الألوان والأطراف، بما ليس يُتصوّر من أحجام تلك الأحجار الكريمة!.. كان التاج من فرط الضخامة ما تعجز عن حمله رأس بشرية، لدرجة أنه يفوق وزن كسرى نفسه!

وبعد طول انتظار جاء كسرى.. أقبل في كوكبة من حرسه، وعلى الفور أكّبت جموع الناس من الحاشية، والعمال، والحضور على وجوههم وخرّوا له سجّداً.. خطا كسرى نحو العرش في تودة، ثم استوى عليه جالساً ليضع رأسه في ذلك التاج المدلّى بارتفاع رأسه، وبعد أن أشبع كبريائه بطول سجودهم، أشار بيده في استهانة وتأفّف، فاعتدلوا قياماً.

واكتمل المشهد المهيّب.. البساط، والإيوان، والعرش، والتاج.. شيء تحار في وصفه الألسن، وتعجز عن تخيله العقول!!

اختلس (ماهان) النظر فرأى عن يمين العرش شيئاً آخر لا مثيل له، سمع عنه من قبل ولم يسبق أن رآه.. راية المملكة العظمى (دارفش كايان)، وقد وُكِّلَ بها خمسة من الموابذة يحملونها!

أمعن (ماهان) النظر فيها يتفرّسها في دهشة.. راية ليس لضخامتها سابقة ولا لاحقة، مصنوعة من جلود النمر، نُقِشت عليها شمس بنفسجية، وقمر مُدْهَب، وفي إطارها تألّقت الجواهر النادرة، وُخِطت على صفحتها الطلاسم والرموز السحرية!

حقاً إنها لنفائس عجيبة، وفرائد غريبة لم يجِدْ الدهر بمثلهن في أزمنة مديدة، فكيف بهن يجتمعن في مكانٍ واحد؟!.. بساط كسرى، والإيوان، والعرش، والتاج، والراية؟!..

تقدّم رجلٌ طَوَّالٌ مهيبٌ بدا أكبر وزراء كسرى قُبالتَه في احترام العبد لسيده، فحيّاه في انكسارٍ وتذللٍ، وركع بين يديه.

أشار كسرى إليه بإصبعه، فأقبل عليه محافظاً على انحائه حتى لا ترتفع رأسه أعلى من هامة كسرى، ثم خاطب الملك بأدب، وألقى على مسامعه كلمات مقتضبة، ثم مشى القهقري.

خلّص كسرى رأسه من التاج، واستقام واقفاً، ثم سار خطوات واثقة يتبعه خاصةٌ من حراسه حتى انتهى إلى حافة البساط، فتلمّسه بقدمه، وقد انحنى أحدهم فالتقط نعليه في احترام بالغ، ليستقر كسرى بكلتا قدميه فوقه. انفرجت أسارير كسرى وهو يتمشّى داخل تلك الحديقة الغنّاء، لم يشاركه أحدٌ فيه، ثم أشار إلى بعض خاصته فاعتلوا البساط ليحيطوا به كعادتهم في حراسته؛ فقد كان البساط طرْقاً، وساحاتٍ، وميادينَ، وودياناً، ومرتفعاتٍ.. كان البساط معدّاً للملك حتى إذا انصرم الربيع يتبعه الصيف،

وأقبل الخريف يتبعه الشتاء يجد كسرى الربيع بأزهاره وأطيّاره في تلك الجنة
من النسيج اللين الوطني!!

تنفّس (ماهان) ومنّ حوله الصعداء وهم يرون ملامح الانبهار والفخر
يكسوان وجه كسرى!

وانتهت جولة كسرى على البساط ليستعيد مكانه على كرسي عرشه،
وأشار من جديد إلى وزيره الأكبر فتقدّم إليه مهرولاً، ثم أشاح إليه كسرى
فانصرف عنه لا يولّيه ظهره إجلالاً حتى ابتعد بالقدر الكافي عن حرم
عرشه، وعاد إلى موضعه بين حاشية كسرى، ليقف طائعا مثلهم.

وأخيراً هبّ كسرى واقفاً، فركع الجميع أمامه، وسار كالطاووس منتفشاً
حتى دخل مخدعه، وغاب عن المشهد.

رفع الحضور رؤوسهم ليلتقطوا أنفاسهم المذعورة بعد أن خلا المكان من
كسرى، وتقدّم الوزير الأكبر أمام الجميع، وأشار إلى شيخ النساجين، فجاءه
يهرول حتى مثل بين يديه.. بادره الوزير فألقى أمامه كيساً من الدنانير،
فانحنى الرجل والتقطها بعد أن سال ريقه، وتتابعت كلمات التملق والنفاق
على لسانه يسبّح بحمد كسرى، والوزير.

تحدّث الوزير برغبة كسرى في صنع بُسْطٍ أخرى لا تقلُّ عن سابقتها جمالاً
لثّقام داخل قصر الكسرى العظيم، وسمّى له أجلاً، ورمى له بكيسٍ غيره،
ثم صرفه ومن معه.

انتقى شيخ الصنعة الخبير نفراً من الصُّنَّاع المهرة من بينهم (ماهان)، وكم كانت سعادة (ماهان) كبيرة وهو يحوز على تلك الثقة الغالية! وكم كان معترّاً بها وصل إليه لدى الجميع من مكانة!

وكانت سعادته أكبر لأنه سيمكث في قصر كسرى أياماً وربما شهوراً، يُشبع فضوله المتعطش لرؤية بقيّة الأعاجيب التي سمع عنها طويلاً، ولم ولن يتاح إلا لقليلٍ من البشر رؤيتها!

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى قدم (ماهان) ورفاقه الصُّنَّاع يتقدّمهم شيخ السّاجين، فوقفوا بساحة القصر ينتظرون الإذن بالدخول ليعاينوا المساحات التي ستُقام فيها البسط من القصر.. كان موعد تلك الزيارة محدّداً من قبل حرس القصر، وكبير خدمه، على أن يكون ذلك في غيبة كسرى عن القصر للتريّض، أو للصيد.

منّى (ماهان) نفسه برؤية التُّحف، والنفائس في قصر كسرى الذي لم يحلم يوماً أن يطأ حرمه بقدميه.

أمضى (ماهان) أسابيع وشهور يتنقل بين القصر ودار الصُّنَّاعة، حتى أتم ومنّ معه لكسرى تحفاً من البُسط، والطّنافس، والنفارق ما يحار في حسنّها العقول، لتصنع مع غيرها من النفائس مشهداً فريداً في القصر الأبيض الذي يعد من عجائب الزمان.

كان لـ(ماهان) كل يوم مع أعاجيب قصر كسرى جديد.. مظاهر الثراء،
والبنخ، والزخرف في كل مكان من حوله.. كل شيء داخل القصر من
الذهب، والجوهر على كافة الأشكال والأحجام، والناس في سائر البلاد لا
يجدون ما يسد جوعهم أو يستر أبدانهم!!

أما ما رآه في حديقة القصر فشيءٌ تحار فيه العقول.. مساحة شاسعة من
الخنصرة الزاهية.. أشجار باسقة أوراقها وارفة، وثمار على صور وألوان شتّى،
وأزهار يُعَطِّر الأجواء أريجها.. جنةٌ بمعنى الكلمة، تشقُّها الأنهار، وتغشاها
أصناف الطير، والحيوان!

لولا أنه رأى بعينه ما كان ليصدّق!!

كان لكسرى مرابط للخيال على مساحات شاسعة.. خمسون ألفاً من
الخيال، والدوابّ سروجها من ذهب، وفضة! قد رُصِعتَ بالجواهر،
والحلي.. وأفيال ضخمة منها الأبيض كالثلج، والفضة!!

تأمّل (ماهان) مشدوهاً ما يحتويه قصر كسرى من العجائب، والفرائد..
نفائس، وجواهر، وحلي تزين نعلي كسرى، وأحزمته، وثيابه، وسائر أدواته
الشخصية.. وتذكّر حاله وحال كثير من الفلاحين الذين لا يجدون من
اللباس ما يسترهم، أو من الطعام ما يُشبعهم!

تذكّر أخويه اللذين ابتلعتهما رحي الحرب دفاعاً عن مجد كسرى ومملكه..
تذكّر ما أصابهم على أيدي رجال الدهقان، والمرزبان من ذلّة، وانكسار..
تذكّر كلّ ذلك فأكل قلبه الحزن على ما جرى له، ولأهله من ظلم!

قادته أفكاره إلى ذكرى صديقه (سلمان)، وما تسلّل إلى نفسه من ذكرى حديثهما عن نبيّ آخر الزمان الذي سيقم العدل، ويساوي بدينه بين الناس جميعاً.. وتساءل في نفسه متعجباً:

تُرى سيأتي علينا يوم نقف فيه جميعاً أمام الحق سواء؟! وماذا لو لم يتحقّق ذلك اليوم في الدنيا، أو لم ندركه؟! أتكون هناك آخرة يتساوى فيها الجميع في الحقوق؟! وإن تحقّق ذلك، فهل يتساوي في الحساب كسرى الإله مع سائر البشر؟! ألم يخبرنا الموبدان والهرابذة أنه الإله خالق البشر؟!.. وإن كان حقّاً إله؟! فهل يظلم، أو يسكت عن ظلم حاشيته وبطانته؟!

رَفَّت على شفّيته بسمة ساخرة اختلجت معها جميع قسّات وجهه، وأسرَّ إلى نفسه:

لو صدقوا لخسرنا آخرتنا كما خسرنا ديانا!!

تُرى أين ذهبت يا (سلمان)؟! أترأى بلغت غايَتك؟! أم هي أحلام البؤساء؟! لعلّك تبحث إلى الآن، ويوم تصل إليه ستشرق على الدنيا شمس العدالة تحت سماء دين جديد يساوي بين الجميع، ويأخذ للمظلوم حقّه من الظالم! اللهم عَجِّل بهذا اليوم!.. وأمدني بعونك حتى أصمد في الحياة إلى أن يحين الفرج، وأجد لقاربي في بحرها الهائج برّاً!



الفصل الخامس

انفضَّ ديوان كسرى بإشارة صغيرة من إصبعة بعد بضع ساعات من العمل، ليخلو مجلس الحكم عليه إلا من خاصة حرسه، وبعض جواريه، وغلمانہ.. كان قد جمع وزراءه، وأنظمة حكمه يُلزمهم بجمع أكبر قدرٍ من المال لتشييد قصوره، وتوسعة أملاكه، وأملاك عائلته على صورة مبالغ فيها من البزخ، والإسراف، والترَف.. وغشت مجلسه مظاهر الفرحه والتهليل لدوره القائد في النهوض ببلاده، وتحطّي نجاحات الآباء والأجداد في التشييد والبناء، على أحدث ما بلغا في عصره من إنجاز!!

هذا ما تردّد على لسان بطانته، ورجال حكمه!
قصور تُشَيّد، وحدائق تُستزَرع، وأنهار تُشَقُّ.. كل ذلك من أجل الكسرى العظيم بينما شعبه لا يجد ما يستره من لفح الشمس، وزمهرير الشتاء!!
سُتملاً خزانة كسرى بالمال لاستكمال مشروعاته العملاقة بأيّة وسيلة كانت، ولو من دماء الفقراء!

وانتهى المجلس استجابةً لأوامر كسرى، وانفضّوا من حوله، لكنّه كان في حالة عجيبة من الامتعاض، والضجر لم يجد لنفسه منها مهرباً!

تأفف كسرى في حنق.. أسند صفحة وجهه إلى راحة يميناه.. عبث بلحيته
الكثة مفتولة الشعر، ثم سرح ببصره في سقف البهو المزين بتفاصيل معارك
آبائه وأجداده التي خلدتها ريشة فنان حاذق.. لم يدرِ كم من الوقت مرَّ عليه
وهو على تلك الحالة؟!

اقترب قائد حرسه الملكي، وقال في أدب المتدلل المنكسر:
مولاي كسرى العظيم.. ترى ما يشغل بال جلالتكُم؟!
لم يجبه كسرى، وإنما ظلَّ في شروده وتأمله..
كرَّر الرجل جملته في أدب:
مولاي!.. مولاي!

وما إن استيقظت حواس كسرى الشاردة، وبدأ يلتقط خيط الحوار
مستمعًا، حتى بادره الرجل يأمر حاجبه:

ادخلوا المهرجين، وأصحاب الألعاب، والحيل، والحركات!
قال كسرى في غضب:
كلا!.. لا أريد أحدًا هنا!
عاد حارسه إلى سابق استكانته، وقال متملِّقًا:
كيف نُسرِّي عن مولانا العظيم؟!.. أرواحنا فداك!
صرخ فيه كسرى، وقد اشتعل غضبًا:
إليك عني! اخرج! اخرجوا جميعًا!.. لا أريد أحدًا منكم هنا!

هَبَّ حارس كسرى كاللديغ، وهُرِعَ على الفور خارجًا، يتبعه جميع من بالقاعة ترتعد فرائصهم فرَقًا..

لا بد أن أمرًا جلالًا يستحوذ على تفكير كسرى، ورغبة عارمة تطفئ في نفسه كل رغبة سواها!!

سار كسرى خطوات في ردهة القصر حتى انتهى إلى جناح حريمه.. ألقى نظرة حائرة تجاه حجراتهن.. حجرات ليس لكثرتها عدد تكتظ بها آلاف النساء.. دفعت حركة كسرى المضطربة بين حجرات الجواري قهرمانة القصر إلى الانتباه، فأقبلت إليه مهرولة تنحني بين يديه بالتحية.. صرفها عنه بامتعاض يسمم الأبدان، ثم وَلَّى مُنْصَرَفًا، ولم يُعْرِ أَيَّ اهتمام لمئات الفانات اللائي تزيّن له بمجرد ما التقطت حواسهن الأنثوية العابثة الأمل في لقائه، فتبارين في دلال ومجون ليملاّن عينيه، لعل إحداهن تلتقط فرصة لا تعدو ثوان من عمر الزمن قد ترفع شأنها دهرًا.. لكن لا جدوى فمزاج الملك اليوم مُتَكَدِّر!

جلس كسرى وحيدًا في قاعة العرش يلتقط من ذكرى أمسه حوارًا ليس من أمر ديوانه الذي انعقد طويلاً وانفرط عقده لتوّه، ولا من أحوال الرعيّة البائسة التي يملك زمامها، ولكن من حديث نديمه (شابور) الذي لعب برأسه أكثر مما تفعل بها الخمر!!

وقف كسرى فجأة لينادي في حرسه بصوته الجهوري أمرًا:

أين المدعو (شابور)؟! أريد (شابور) هذا على الفور!

قال حارسه بنبرات هادئة:

مولاي.. منذ أن أرسلته جلالتكُم أمس لم يحضر بعد.
لطفًا! فالطريقُ من وإلى (ميسان) بعيد، وسيستغرق وقتًا طويلاً حتى
يصل.

ضاق كسرى بكلام كبير حراسه، فأشار إليه بيده لينصرف، فأسرع يمشي
القَهْقَرى وهو ينحني أمامه احترامًا.

صرخ فيه كسرى بكلماتٍ مُقتَضِبة حازمة:

بمجرد أن يأتي (شابور) يحضر إليَّ على الفور!

كان الأمر الذي سيطر على كسرى، وأخذ بمجامع قلبه، واستحوذ على
عقله بلا شك أمرًا جلدًا!!

(شيرين)!! هذا هو اسمها كما أخبره نديمه، وأقرب خاصته من نفسه

(شابور)..

انتقل بالاسم إلى معناه بالفارسيَّة: (الحلو).. وكأنها يتذوق معناه..

فانتشى فرحًا، وسرح بخياله في أوصافها يتذكَّر قول نديمه فيها حين زار

أرض (ميسان) بالعراق:

فتاةٌ ملائكية..

كالبدر المنير..

سوداءُ العينين كما الحياة..

باسقةُ القوام كالنخلة..

أسنانها كاللؤلؤ.. وابتسامتها متألقة..

عينها ساحرة..

وصفها (شابور) وأسهب في وصفها فأحبَّها كسرى.. و"الأذن تعشق
قبل العين أحياناً"!

وما أعجب ما أصاب كسرى حين سمع عنها! وما أغرب ما دهاه
حينها!.. كسرى الذي جمع في قصره النساء من شتى البقاع! كسرى الذي
تملك يمينه محاسن نساء الدنيا، فهنَّ رهنَّ إشارته!.. يأمر في آلاف الجواري
وينهى.. يأتي يومٌ يقع فريسةً لامرأةٍ تتمنَّع عليه!!.. ينتظر نديمه (شابور)
بصبر نافذ! يرسله إليها مرة بعد مرة، فتردُّه يجر أذيال الخيبة! ولا يزال ينتظر!!
تناهت إلى سمعه طرقات وجلة تدقُّ بابه.. كبير حراسه يستأذن في دخول
(شابور) عليه..

أذن له كسرى على الفور بإشارةٍ من يده، فدخل (شابور) عليه مسرعاً.
خاطبه كسرى وهو يحتضنه بلهفة طفل صغير:

(شابور).. صديقي، ونديمي، وخليلي.. هل حضرت معك؟

بسرعة أخبرني أين هي؟.. لقد أمرتُ بتجهيز جناح خاص لها إلى جوار
مخدعي.. أددخلتها هناك؟.. حسناً فعلتُ! أعرفُ أنها تتجهَّز لي الآن كما

أمرت.. أليس كذلك؟! لم يعد لي صبر على فراقها.. سأذهب إليها على الفور!
أطرق (شابور) صامتًا، فتعجّل كسرى في إلحاح يكرّر كلامه.. لكنّ
صمت الرجل أسلمه إلى ثورةٍ عارمة من الغضب، فنهره قائلاً:

تكلم يا رجل! أفقدت النطق؟! ماذا جرى بحق النار؟!
بدأ (شابور) يتكلّم.. كان كمن يحاول جاهداً أن يزيح حجراً ثقيلاً جائئاً
على صدره.. تحدّث وأسرف في الإطالة:

مولاي كسرى العظيم!.. يا من مقاديرنا بيدك!.. أنا عبدك، ورقبتي
فداك.. أنا طوع أمرك، ورهن إشارتك..

لم يطق كسرى الانتظار حتى يتّم (شابور) كلامه، فانتهره:
لا تُكثّر الثروة، واختصر!.. لقد نفذ صبري.

حاول (شابور) أن يستعيد رباطة جأشه فخانتته أعصابه، وارتعشت
الكلمات على شفثيه:

أيّها الملك المعظم.. يا مليكنا المُفدّى.. لقيتها بالفعل، وتحدّثتُ عن
مولاي.. شجاعتم، وبطولاتكم، وعرض جاهكم، واتساع سلطانكم..
كنتُ أصفكم، وكانت تستمع إليّ بأذني عاشقة محبة..

كست ملامح كسرى للحظة ابتسامة رضا، ثم عاد إلى سابق تجهّمه
وصرامته بسؤالٍ نزل على رأس الرجل كالصاعقة:

قلتُ لك لا تُكثّر من الكلام! أرفضت تلك الجارية شرف منادمتي؟!!

أَرَفَضْتُ كَسْرَى مَلِكِ الْأَرْضِ؟!

طأطأ (شابور) رأسه في خزي، فجحده كسرى بنظرة نارية، وصرخ فيه:

إِذَا فَشِلْتَ فِي مَهْمَتِكَ؟!

قال (شابور) متذللًا، وقد لصق بصره بالأرض:

مولاي.. أقسم بالنار المقدسة أنني لم أقصّر.

اسمح لي يا مولاي أن أتحدث معكم بصدق فأنا مستشاركم الأمين،

وعبدكم المخلص، وخادمكم المطيع.. مولاي!! اعطني الأمان!

زجر كسرى في غضب، وقال:

تكلّم وأنت آمن!

قال (شابور) بحذر:

مولاي!! لقد لمحت في عينيها بريقًا لم أراه في امرأة من قبل.. إنه الطموح

المخيف!!

قال كسرى وقد جُنَّ جنونه:

أفصح يا رجل قبل إن أفقد أعصابي!

تحدّث (شابور) وقد تملّكه خوفٌ شديد جعله يحرص على انتقاء كلماته

بعناية:

قالت لن تكون لرجل أيًا كان إلا زوجة، فزوجة في جوار فقيرٍ خيرٌ من

جاريةٍ في جوار ملك الدنيا!

انفجر كسرى غاضبًا، وقد تملكته ثورةٌ من الجنون:
ألم تخبرها من أنا حتى تملي عليك شروطًا؟! .. واعجبًا!..
وظفك كسرى يضرب كفًا بكفٍّ!

أحسَّ (شابور) أنه ربما تجاوز في حديثه، فأسرع يتدارك خطأه:

مولاي.. ومن تكون تلك المرأة حتى تشغل بال مولاي؟!
مولاي.. لقد سمحتُ لنفسي وأنا عبدك وخادمك أن أرسل الجند
والعبيد في إحضار الجوراي لمولاي، وبعد ساعات قليلة ستكون هناك
ألف جارية من أنحاء المملكة طوع أمرُك، وملك يمينك، إلى جوار حريمك
ربائب نعمتك.. سيعوضنَّك، وسينسينَّك جاريةً واحدةً.. مجرد جارية أبقة
استعصت على مولاي!

شعر (شابور) أنه قد خانته التعبير، وتمنَّى لو ابتلعتة الأرض!
رنتُ العبارةُ في أذني كسرى فاستشاط لها غضبًا، وصاح في حدة:
ماذا تقول يا هذا؟! .. أنا؟! .. تستعصي عليَّ امرأة؟! .. كيف؟! .. لم تُخلق
امرأةٌ قط ترد لي طلبًا.. وعِزَّةَ آبائي، وأجدادي لآتينَ بها بنفسي!
تجهَّز! وجهَّز الأعوان!

سأتي بها رغماً عنها.. سأتي بها ولو في الحديد والأغلال.. سأتشفى منها في
نظرات الذل وهي تقبل قدمي.. سأتي بها!
رَفَّت على شفتي (شابور) بسمة ساخرة جاهد في إخفائها، وقد داعبت

خاطرةً في رأسه لم يستطع الإفصاح عنها:
ومن يدري؟! ربّما هي التي ستأتي بك؟!.. ومن يعرف فربما صارت
المملكة كلها لعبةً بيديها تُصرّفُها كيفما تشاء، مثلما بدت تُصرّف قلبك المفتون
بها؟!!

حقيقةً لا أعلم مَنْ منكما سيأتي بصاحبه؟!.. أنت أم هي؟!





الفصل السادس

جلست (جومان) في ظل الشجرة الكبيرة التي تكتنف جانباً من بيتهم العريق، وقد أُلقت مع جسدها المتعب همومَ ليلةٍ ماضيةٍ مكبَّلةً بأثقال ليالٍ طويلةٍ من اليأس قبلها.. تراود أيامها المقبلة ولو بيومٍ واحدٍ يحمل إليها الأمل!

انقضت ليلتها إلى جوار العجوز التي صارت لها الأم، والأب، وجميع الأهل، وقد أثقلها المرض فباتت ترعاها، وتدأويها، وتسهر على راحتها.. تحتال في بثِّ الأمل في نفسها التي أجهز عليها اليأس بغياب شريك العمر، وفلذات الكبد، وانفراط عقد الأسرة.

كان على (جومان) أن تطمئننها، وهي التي تحتاج إلى مَنْ يبلغها في رحلة شقائها بالأمان والطمئينة.

وما إن استسلمت الأم للنوم بعد معركتها مع الآلام والأحزان، حتى تهالكت (جومان) على مقعدها بجوار فراشها تخطف سِنَّةً من النوم.. تردَّد فجأةً في المكان نعيقُ غراب.. صوت عالٍ متتابع رنان، ففتحت عينيها بثناقل وفطور همة.. تأملت موضعها.. كانت قد غفَّت من التعب بجوار الأم.. لم تدرك كم من الوقت مرَّ عليها.. كانت الحجرة مظلمة، اللهم إلا من بصيصٍ من نور الصباح تسلَّل عبر خصاص النافذة الخشبيَّة الموصدة.

حاولت (جومان) أن تدفع عن نفسها ذلك الانقباض الذي احتل روحها.. عزمت على إخراج نفسها من موضعها المظلم الكئيب، لتلتقي بذكرى حبيبها الغائب عن عينيها، الحاضر دومًا في قلبها..

سارت نحو شجرة ذكرياتها في ثقفل، وكأنها تجر جر أحمالاً من الهموم تنوء بحملها.. ارتسمت ذكرى حبيبها في مخيلتها.. تذكّرت آخر لقاء جمع بينهما.. تأملت أغصان الشجرة مكتملة الأوراق تداعبها نسمة الصباح، لكنها افتقدت اليوم أطيّارها!.. كانت تُمني نفسها بشدو بلبل غريدٍ يذكرها بحديث حبيبها، لكن قطع عليها تفكيرها غرابٌ ناعق اعتلى قمة الشجرة، وطردها عنها أطيّارها.. حَمَلَقَ المخلوق الفاحم فيها، وكأنها يرمقها بعيني شامت.. وكأن الانقباض الذي ملأ قلبها حين رآته استحال بصنعة ساحر شرير واقِعًا ملموسًا، تسلَّلَ إليها ليفاجئها بوجوده.. إنها الأقدار كما تهدي إلينا الخير، تسوق إلينا الشر، أو تسوقنا إليه!!

(نرسي) قائد جند الدهقان (جaban).. أبغض خلق الله إليها..

فوجئت به يتقدّم منها في نفر من رجاله، يرمقها بعيني ذئب شره، أو كحيّة تتلمّظ، تفغر فاهها ذا الأنياب المتراصّة، تشهرها كي تنقض فجأة على فريستها.. كان يترقّبها عن كثبٍ كترقّب الصياد صيده، حتى كشفت عن وجوده سحنته التي تعبر عن قبح سريرته.

تراجعت (جومان) فزعّةً، بعد أن اقتحم عليها الشيطان دنيا أحلامها.. حاول أن يتصنّع الرّفة فخانتة فظاظته، وغلظة طباعه.. جاءت مغالطته

الفَجَّةُ دربًا من دروب الوقاحة والسماجة تسمُّ الأبدان، فما زادها إلا نفورًا وجفوة، ومع ذلك تُمادى العجوز المتصابي في سخفه، فزاد صَدَّها له.. كان مغرورًا عنيدًا يظُنُّ أن كلَّ شيءٍ يخضع لحسابات القوة التي يملكها.. لكنه بدا أمامها ضعيفًا مثيرًا للشفقة!.. هكذا كل من يظُنُّ أنَّه بقوته وبطشه يستطيع أن يقهر سلطان الحب.. فالقوة تَهْدِم، ولا يمكن أن تقيم في القلب للحبِّ بناءً.. وإن انتزعت قلبًا من موضعه فسيموت بين يديك ذبيحًا! والزهرة إن انتزعتها من غصنها ما تلبث أن تذبل، وتموت! ولن تنتصر الكراهية على الحب.

لن يفلح في قهر قلبها بسلطان قوته، ولن ينزع منه حبَّها لحبيبها، وإن غاب عنها طويلاً.. يا له من مخدوع غافل إن ظنَّ أنَّه سيجد له مكانًا بقلبها! لم تكن هذه هي المرَّة الأولى التي يسعى إليها.. كانت تعرف من نظراته الجائعة أنَّه لن يدعها تمضي لغيره، فلم يتوقف يومًا عن مضايقاتها بما جُبِل عليه من تبجح، وصفاقة..

لم يعد لها زادًا تتبلَّغ به في مسيرة حياتها القاسية وحدها، وتدفع عن نفسها مضايقات ذلك الذئب العجوز وأذاه سوى ذكرى (ماهان) الذي أخذه الانشغال بالعمل في دار غربته.. لم يكن تقصيرًا من الحبيب الغائب الذي كان يأكل قلبه الخوفُ عليها، ولكنها متاعب الحياة والسعي عليها.. ولولا احترامه لرغبة أمه في البقاء ما تركهما، ليكتفي بمراتٍ قليلةٍ من الزيارات التي أصبحت تُورِّله لحظاتُ الوداع فيها أكثر من الفراق نفسه.. كان من

أجلها يحارب الزمن ليجمع المال، ويعود إليها وإلى أمه بما يسد حاجتهم،
ويكفيهم غدر اللئام، ويجمع الشمل، ويسعد بها وتسعد به..

لم تتمالك (جومان) نفسها وهي تواجه صفاقة (نرسي) وقد تمادى في
وقاحته فجذب ذراعها بشدة، إلا وهي تصفعه على وجهه!

كانت صفة شديدة أودعتها كراهيته المفرطة له، ورغبتها في الثورة
على ظلمه، ورفضها ما أنزل به وبأهلها من مصائب.. كان ولا يزال الأداة
القادرة التي أمتدت بيد الظلم فبطشت وفرقت بينها وبين حبيبها.

ومهما كانت ردة فعل ذلك الظالم فلن تتجاوز الحد الذي تعانيه من آلام..
كانت هذه اللطمة بمثابة زلزال فجّر لديه براكين، وحمماً، وشواظاً من نيران..
أخرجه غضبه من مسلاخ البشر، فبدا كوحش خفيف لا يرحم! صفعها بكف
مارد فسقطت أرضاً، وقد تلطخ وجهها بالدماء!

أثارت لعنات الأم المريضة ثورة جنونه فانها على العجوز عديمة الحيلة
ضرباً وركلاً.. لم يرحم ضعف شيخوختها، ولم تفلح توسلات الجيران في
كبح جماحه، فوقفوا عاجزين مكتوفي الأيدي، فقوّته باطشة، وجنده كثير،
والسيوف إلى أيديهم أسرع من جريان الكلام على شفاههم!

لم يعد له رغبة فيها، وأقسم أنه سيذلّها، وسيحطّم تمنّعها عليه ورفضها
له.. فأسرّها في نفسه بضاعة.. قرّر أن يبيعها ويقبض الثمن!!

كان (شابور) قد أقدم على حيلةٍ ليخلص نفسه مما تَوَرَّط فيه من أمر (شيرين) مع كسرى، وليشغله عنها لينساها!.. أعلن (شابور) باسم كسرى أن من سيأتيه بأجمل جارية ستكون له مكافأة كبيرة..

وكان (جومان) أصبحت ملكاً خالصاً للقائد الظالم، وإن لم يستطع أن يملك قلبها، فهو يستطيع بقوته أن يمتلك جسدها نفسه، ومن حق المالك أن يتصرف فيما يملك كيف يشاء.

أمر (نرسي) جنده فانترعوها من موضعها كما تُنتزع النبتة من الأرض بجذورها.. لم يستطع جيرانها مع ما عاينوه من قوة الجند وتسليحهم أن يجرؤوا ساكنًا، وقد ألهب الهواء فوق رؤوسهم سياط الجند، وقتلت الرهبة في قلوبهم أية مقاومة.

كشف (نرسي) لـ(جومان) عن ابتسامة شامخة ارتسمت على فم ضبع كاسر أنيابه مشهرة، فهو ماض لما عزم عليه لم يجرؤ على منعها منه أحد.. اقتادها رجاله يودّعها بصر الأم الذي شَخَص مع مفارقة روحها الجسد، فأسبلت إحدى جاراتها عينيها بعد أن أُخِذَت في جوفها أنفاس الحياة على يدي ظالم كم تجبر، وافترى!

أسرع الجيران في مواراتها التراب في غياب أهل بيتها، ومع انقطاع السبيل إليهم..

لقد تحققت لها أمنيته بالموت في بيتها، وإن ماتت مقتولة!!

ماذا كنا سنفعل في مواجهة أمثال هؤلاء الجبابرة ونحن عاجزون

بسطاء؟!.. هذا ما دار بينهم من حديث، فقد فعلوا ما بوسعهم، وأدّوا ما عليهم تجاهها.. وعلى حدّ قولهم: ”ماتت وارتاحت!“..

أما (جومان) فقد بدا الموت لها راحة لم تجد إليها سبيلاً وهي تُساق على يدي الظالمين إلى ما ينتظرها من حياة العبوديّة والذلّ.. لقد تمَنّت الموت، لكن أنّى لها أن تدركه وقد أصبحت في نظر مالكيها سلعة ذات ثمن!.. سيحافظ على حياتها بحياته؛ فقد أصبحت ثروته، وتجارته، وستكون له عزّاً، وسلطاناً، وسُلماً يصل به إلى تحقيق مآربه.

عزم (نرسي) أن يذهب بها مباشرة إلى قصر كسرى فيظفر بالصفقة لنفسه، وينال بها الخطوة لديه.. قرّر أن يتخطّى الدهقان، والمرزبان، فلن يعطيها الفرصة ليحقّقا كعادتهما مكسباً سهلاً عن طريقه.

قال في نفسه مستنكراً:

كم أخلصْتُ لـ(جابان) ذلك الدهقان فاحش الثراء الذي لا أعدو عنده أكثر من كلب شرس يطلقني في أثر صيده، فإذا ظفرتُ بما يريد ألقى إليّ بعظمة، وفاز هو بالصيد!.. لن أدعه اليوم يعتلي كتفي ليصعد عليه كما تعود دائماً! سأنتصر مرة لنفسِي، وأحقّق غايتي، ومَنْ يدري فقد يرضى عني كسرى فينصّبني دهقاناً، أو مرزباناً، أو حتى قائداً من بين خاصة رجاله؟!

انطلق الجنود والأعوان بالفتاة إلى بيت (نرسي) فأوكل بأمرها إلى جواريه فهيأوها، وألبسوها الحرير والديباج، وطبّبوها بأطيب الطب، فصارت على خير ما تكون الجوّاري، ثم أصدر أوامره فتحرّك الركب مسرعاً تحت

جنح الظلام ليلقي بها في عالم المجهول، لكنه وإن استعبد جسدها فلن تجد
العبودية طريقاً إلى إرادتها الحرّة، وروحها الأبيّة.. ستناضل نحو حريتها ما
دامت عروقتها تنبض نبض الحياة!

وصل الموكب بـ(جومان) إلى قصر كسرى في ظلمة الليل، وخط رحاله
بساحة القصر الخلفية، وجيء بالفتيات، والجواري.. أقبل بهن من كل فجّ
نخاسون، وقطاع طرق، ولصوص، وكثير من القادة المفسدين الذين عدّوا
على شعوبهم الكادحة فاستحلوا حرمة، وسبوا حرائره!

ووسط جمع غفير من حرس القصر الملكي وقف (شابور) ممثلاً لكسرى،
وعدد من الوزراء، والقواد.. وسيقت الحرائر سلعة في زمن العبوديّة،
وتقاضى لصوص الأعراض ثمن بضاعتهم!!

لم يقنع (نرسي) بأداء دور مشابه لأدوار غيره، فالفرصة سانحة، والطريق
مفتوح أمام طموحه كي يرتفع إلى مصاف الكبار.. كان يعرف قيمة سلعته،
وكان يعرف كيف يروج لها وهو التاجر الشاطر، والصياد المكيث الذي
يعالج طول الانتظار بالصبر، ثم ينقض حين تحين الفرصة فانتظر حتى
هدأت حركة التجار قليلاً، واستعد للعمل..

أما هي فقد رأت ألا جدوى من الهياج والصراخ، فهي ضعيفة وحيدة
وهم أقوياء كثيرون، فتماسكت، وعزمت على أن تعرض قضيتها على أحد
الكبار حينما يصير أمرها إليه، وتشكو إليه القائد الحقير الذي اختطفها،
وأسرف في ظلمها، وظلم أهلها.

كان (شابور) قد أنهكه الاختيار، والتطلع في وجوه الجواري، وتفحص ما برز من مفاتن أجسادهن، فانصرف بعد أن استدعى أكبر القادة، وبلهجة واثقة صارمة أسند الأمر إليه، وحذّره ألا يغادر موضعه حتى ينتهي عمله، وإلا تعرّض لأشدّ العقاب!.. كان الوزراء وكبار الدولة، والقادة يعرفون للرجل قدره عند كسرى، فكانوا يسرفون في تبجيله، ويسترضونه، ويتحاشون غضبه، ويتملّقون إلى كسرى عن طريقه..

كان (نرسي) كغيره يعلم تلك الحقيقة، فأصر أن يعرض عليه سلعته بنفسه، لكنه وجد هناك من أمثال الدهقان والمرزبان كثيرين، كلٌّ يريد أن ينسب الفضل لنفسه، ويجني ثمرة المكسب وحده على رقاب من تحته، لذا قرّر القائد العجوز ذو المكر، والحيلة أن يستعين بالمال، يرشي به الحرس حتى يصل إلى (شابور) فيعرض عليه بضاعته، لكنه بعد أن عاين هناك النساء صنوفاً، وأشكالاً، وألواناً، وجدها كاسدة، وإن كانت (جومان) في عينيه جميلة فأمثالها في الحسن كثيرات، ومن يفوقها في الجمال لسنّ بقليل..

حينما طالع وجوه النساء لم يرَ في بضاعته تميزاً، فهو لم ينظر إليها يوماً بعيني قلبه، فقد كان بغير قلب، والحب لم يُخلَقْ لمثله، وإنما الشهوة والطمع!! رآها سلعة بائرة، فقدّمها هدية لأحد كبار القادة تعبيراً عن إخلاصه لكسرى العظيم، واستعداده لتقديم روحه فداء!

تمنّى عليه أن يكون في خاصة جنده، وحرسه الخاص، وهكذا غير تكتيكه، واتجه مباشرة إلى هدفه في إحراز المنصب والجاه..

وكان لهذه الدعوة رواجها لدى القائد الكبير أكثر من تلك الهدية، فالنساء لدى كسرى كثرات، والجميلات على كلِّ صنفٍ ولون، فقد كان كسرى يزيد في حرسه الملكي، وكان هذا القائد يتولَّى بنفسه هذه المهمة فقبل على الفور طلب (نرسي).. وهكذا انضم (نرسي) إلى الحرس الملكي، الذي ربما كان يزيد عددُ أفرادهِ على جيش المملكة الفارسيَّة على اتساعها!!

وكما بيَّعت (جومان) بيعَ (نرسي)، لكن مع الفارق.. فقد بيَّعت هي مُكرَّهة.. بيعَ جسدها، لكن روحها ظلَّت حرَّة، ولا بد حتمًا أن تجد الروح الحرَّة بجسدها إلى الحرِّيَّة طريقًا.. أما هو فقد باع نفسه مُختارًا كما باع من قبل عقله، وضميره، وعافيته.. جسداً يدَّعي صاحبه أنه القائد الذي يأمر وينهي، لكنه كان يحوي روحًا رخيصة جُبِلَتْ على العبوديَّة، والذلِّ..

وضاعت (جومان) في سوق الجوّاري، وحيدة بين آلاف مثلها، وضاع صوّتها، وفُقدَت شكواها، فما سمعها أحد.. وهل يُلتفتُ إلى شكوى الجوّاري؟!!

واستقبلتها غرف الحريم التي زاد عدد نساء كسرى فيها على اثني عشر ألفاً من الجوّاري، والمغنّيات، والعازفات، والإماء، والخادّات، والمحظّيات، منهن ثلاثة آلافٍ على الأقل للوطء!!

مرّت أيام وأسابيع، وانطلق (ماهان) إلى بيته بعد غربة طويلة متلهّفاً إلى لقاء الحبيبة التي طال شوقه إليها، وإلى حضن الأم الدافئ الذي كم افتقده.. كان يُمنّي نفسه بسماع خبر يطفئ نيران حنينه إلى الأب، والأخوة الغائبين، ويتمنى أن تسترد أمه عافيتها، ويجمع شمل الأسرة من جديد.

كانت ساعة هاجرة، والشمس حامية، فخلت الطرقات من الناس، فجَدَّ (ماهان) في السير، وأسرع نحو بيته.. اجتاز الشجرة الضخمة التي أصبحت تُؤنس وحدها وحشة البيت بعد خُلُوه من أهله.. تداعى في ذهنه طيفُ حبيبته، فأرجأ التفكير فيها إلى لقائهما القريب وقد صار على أعتاب بابها.. لقاء يجمعهما جسداً وروحاً، وليس كطيفٍ عابر!

وإذ به والدار مُفَتَّحة الأبواب، قُلبت رأساً على عقب، فبدت أشبه بالخربة تنبّحها الكلاب، وتنعقها الغربان!.. لم يجد فيها أثراً للحياة، فناوشته مخاوفه، وتفجّر في قلبه بركان من الفزع، وتساؤلات ثورتها لا تهدأ.. لكن مَنْ يسأل؟!.. فلا أحد يسمع، ولا أحد يجيب!!

شاهدته إحدى الجارات الطيبات كانت تربطها بالأم عشرة، وأخوة فأقبلت عليه تتهدّأ تحت وطأة شيخوختها، وأجابته دموعها، وتبعها زوجها الشيخ الطيّب، فربت على كتفه بأبوة.. وهدوء، وروية حدّته بما جرى، وأرخی عليه أسبالاً من السكينة، والصبر..

كانت صدمته لا تُوصف، فقد ماتت الأم مظلومة، واختُطِفَت الحبيبة في ثوب الجوارى!.. استوعب (ماهان) الخبر فاسودّت الدنيا في عينيه.. تمنّى

للحظة لو كانت قد قتلت نفسها فيكون عزأؤه فيها كعزائه في أمه، لكن تحرّك في قلبه حبُّها وخوفه عليها فاستنكر على نفسه دعوتها، وعاد ليهدهد أفكاره، ويطمئن مخاوفه بكلماتٍ شدَّ بها عزمه:

حتماً إنها لن تستسلم، فأنا أعرفها جيداً.. سيكون لي سبيل إليها.. سأطلق سراحها، وأنقذها من قبضة الظالمين، ولو أزهقتُ روحي فدائها!!
قال الجار الطيّب في انكسارٍ تؤمّن على كلامه زوجته:

تحرّرها ممن؟! من قبضة (نرسي) وهو مَنْ هو؟!
ومَنْ أين لك بها وقد سمعنا أنها استقرت في قصر كسرى، وقبض (نرسي) الثمن؟!!

ماذا تفعل يا مسكين في مواجهة كسرى وجنوده؟!.. فعلى الرغم من تكثّم (نرسي) الأمر، وفراره ليلاً، إلا أن الأمر قد شاع، وبلغ الدهقان (جaban) ما حدث فغضب، وتوعّد.. سيُنزل أشدّ العقاب بقائده الخائن الذي استأثر بصفقة لنفسه، وذهب مباشرةً إلى كسرى وتخطّاه..

وفي القصر الأبيض الكبير أقبل (شابور) على كسرى مبايهاً، يعرض صيد رجاله على مولاه، وما أكثر الصيد لديه!
تلقّاه كسرى بامتعاضه المعتاد، فبدأ كصاحب تجارة اعتاد على رؤية بضاعته على الأرفف كاسدة؛ فجميع رعيته ملك أمره.. ويكفي هؤلاء النساء ما نالهن إلى جواره من الشرف والرفعة! ويكفيه تواضعاً أنه يخالط أمثلهن!.. فهن اللواتي يأخذن، وهو الذي يعطي!

أمضى كسرى ليله، ونهاره يهدر طاقته البشرية في وطء ما يقدر عليه من النساء، ثم ينزوي على نفسه في كل ليلة من التعب، ويخس إلى النوم، لا يبالي!.. وكل امرأة يُجهز عليها يدمر معها أسرة، ويهدر كرامة أب، وأم، وإخوة، وعشيرة أو قبيلة!

وعلى مدار أيام، وأسابيع جهّزت له القهرمانات، والأغوات نساءً كثيرات، ومن حُسن حظّ (جومان) أنّها لم تكن من بينهن! فما هي إلا امرأة من بين آلاف النساء.. منهن من يضارعهن جمالاً، ومنهن من يفقنها فيه.. فمن إذاً يشعر بها؟!.. ناهيك عن من كن يتقربن للقهرمانات، والأغوات بالمال والهدايا ليجدن طريقهن إلى مخدع كسرى، فربما داعبت إحداهن بجمالها قلبه؟! ومنْ يدري فربما انتزعت منه بذرة تنمو في أحشائها جنيناً يكون طريقها إلى مجاورته في كرسي العرش!؟

وتمرُّ الأيام وما يزيد كسرى إلا ضجراً.. ويزيد شوقه إلى (شيرين).. المرأة التي امتنعت عنه.. لم تفلح امرأة أن تحل مكانها في قلبه، أو تتزع شجونه، وأحزانه.. ولم تفلح زوجاته، وحريمه في تصفية ما تكدر في نفسه.. فاعتزل النساء، وخلد لهمومه بعد أن أنهك قلبه الحزن، وافترسته الأشواق.. وإن كانت النفس البشرية تزهد فيما لديها، وتتطلع إلى البعيد بمنطق "المطلوب مرغوب"، فما بالك بكسرى الذي بلغ الغاية في الطمع، والجشع!؟

كيف تُظل السماء امرأة يطلبها ولا تحبّه، ويدعوها فلا تلبّي دعوته؟!!



الفصل السابع

على بعد مئات الفراسخ من جَدوة النار التي باتت مَتَقْدَةً في قلب كسرى، تطلُّ على معشوقته فاتنة الدنيا (شيرين) لفحةً من شمس الضحى في الوادي الأخضر الرحيب، ما إن مَسَّتْ بأشعتها المتوهجة بشرتها الناعمة حتى أيقظتها من أحلامها الوردية، فأسرعت إلى شجرة ظليلة.. أَسْتَدْتُ إلى جذعها، وافترشت الخضرة تحتها، فبدت في تناغمٍ بدیعٍ مع مظاهر الحياة من حولها، وكأنها زهرةٌ برية تفوح عطرًا، وشذاً..

استعادت من جديد أحلامها، وشحذت ذاكرتها بالفكرة التي ملأت عليها حاضرها ومستقبل أيامها.. مدَّت كَفَّها المخملية البَضَّة لتُدَاعِبَ زهرةً تفتَّت حديثاً عن أكمالها.. أحاطت أصابعُها الرقيقة بعنقها في حنانٍ، وانتزعته برفق لا لتسلبها الحياة، وإنما لتَهَبَ لها من طراوة بشرتها حياة، فبدت أنضر، وأبهى حتى حسدتها أنوارُ الوادي، وأزهاره.. وما إن مرَّرتها على خدِّها، ولا مست أوراقها الرقيقة وجهها حتى توارت حُمُرُها خَجَلَةً في حُمْرة خدِّها، ليستقر بها المَقام بين خصلات شعرها العنبري، فلم يُعرَف أيُّ منهما زَيْنَت صاحبتِها (شيرين) أم تلك الزهرة؟!

سرحت الفتاة بخيالها في سماء أحلامها.. تذكَّرت كلمات نديم الملك الذي كاشفها بشوق كسرى إليها، وهَيَّامِه بها.. كسرى الذي يصل سلطانه

إلى موضع قدميها.. صحيح أنها ابنة أحد ملوك الأرمن، استقرت بصحبة أهلها في أرض (ميسان)، وصحيح أنها تحيا في عزّ والدها الثري في ضيعة واسعة حيث حياة الرفاهية والتّرف، لكن طموحها كان أبعد من سقف السماء!

داعبت كلماته الشاعرة روحها المتوهّجة كنسمات الصبح العليل تحرّك الغصون والأزهار فتنعشها، وتثير أريج عبيرها فتراقص الدنيا على نغمات فرحتها:

جميل رشيق، ماهر شجاع..
في حنان الغزال، وغَضبة الأسد
هو الشمس..
تضيّق طرقاً الدنيا بموكبه..
وتتّئن الأرض تحت وقع أقدامه..
وتكبّح سرعته دورانَ الفلك
لقد هوى ذلك المضيء بكلِّ عظمته
أسير هوى حبك..
حين شاهد طيفك في منامه..
فما عادَ يحسّي الشراب..
ولا ينامُ ليلَه، ولا يجدُ راحةً في نهاره..
فلم يعد يطلبُ من الحياة سواك..

مرت هذه الكلمات بخيالها، وكأنها تسمعها من كسرى نفسه حتى حفظتها.. صارت كلمات تسري في روحها، وتجري على شفثيها الرقيقتين، وفكرة تتوهج في رأسها توهج الشمس من حول شجرتها التي تحمي بظللها..

ذكرتها الشمس به.. لا تدري لماذا علق بذهنها تشبيهه بالشمس؟!

نعم، هو كالشمس كما حفظت عن نديمه.. تلك الشمس التي لم تعد عنها بعيد، سيأتي يوم تقطف زهرتها المتوهجة لتصنع بها تاجاً متألقاً، تضعه فوق جبينها المرمرى الذي يطمس بنوره نورها..

غادرت موضع الظل لتستقبل قرص الشمس الذي بدا متوهجاً في كبد السماء، فلم تحس منها إلا نورها.. انطلقت تعدو كطفلة صغيرة إلى أعلى موضع فوق التل الأخضر المزهر.. أحاطت ببصرها كل ما بدا من تحتها.. جبلاً، وتلالاً.. أشجاراً، وبيوتاً.. حقولاً، وبساتين.. أضحي كل شيء من مكانها صغيراً صغيراً.. مدّت ذراعيها على اتساعها، وكأنها تمسك بينهما كل العالم الذي بدا في قبضتها، وملك يمينها.. تنهّدت في سعادة، وارتياح.. ارتسمت ابتسامة ثقة على شفثيها تغازل أفكاراً صارت موضع العقل من رأسها.. ساكون حتماً ملكة.. ملكة أحكم الدنيا كلها!

وفي موضع قريب كان كسرى على صهوة فرسه (شبدبز)^١ في جمع من
حرّاسه المقربين يتقدّمهم (شابور) يحدّد له الموضع الذي التقى فيه بها..
أعطى كسرى أوامره، فعسكر الحرس في موضع تستره الأشجار أسفل التل،
وتقدّم بفرسه يتهادي يتبعه نديمه.. سار في طريقه إليها..

لم يكن أحدهما في حاجة أن يعرف صاحبه، فقد ناداه قلبه إلى موضع
قدميها، وكأنّ القدر كان على موعد ينذر بلقاء يجمع بينهما.. وحين تبدّى له
القمر في أبهى حُلّله على البعد فوق التل، أشار إلى (شابور) أن تأخّر!

نزل من فوق صهوة جواده، وانتظر.. وجّه حواسه إليها، وظلّ يراقبها
مستتراً بين غصون شجرة وارفة الأوراق.. لم يعد في حاجة إلى مَنْ يعرفه
بها.. إنها بحقّ أجمل من رأت عيناه.. لم يكن (شابور) محقّقاً في وصفها!
بدا كصياد يتحفّز لاقتناص صيد، لم يكن يعلم أنّه ربما كان هو الصيد
وهي الصياد الذي يتربّص به!

كان أشبه بكوكب يتلعه مدارٌ نجم هائل يجذبه في داراته.. يدور ويدور
حوله في سرعة.. يصيبه الدوار.. لا يستطيع رغم سرعته فكاًكاً من قبضة
جاذبيته.. يشدّد قبضته عليه.. يجذبه بعنف حتى يتلعه في نهم، فتنتقل حياته
إليه، ويتوحّد معه ليصبح ومضةً صغيرة تبرق للحظة، ثم تختفي في إيقاع
ضوءه الساطع المنتظم، وتغيب فيه.

(١) شبدبز: فرسٌ لكسرى كان أسودّ، وكان من عجائب زمانه.

اقترب كسرى أكثر وأكثر حتى أحاطته ببصرها.. بدا لها في إشراقه،
وبهائه، وحسن طلعه فارسها الذي كانت تنتظره..

التقى الوجهان فتعارفا، ودار بينهما حوار دون أن يتكلما!!
لم يعد لكسرى وصفاً يتفرد به دونها، فهو وإن كان ملكاً فهي ملكة، وإن
كان سلطانهُ ينفذ عبر ممالك ممتدة في خلق كثير، فسلطانها ينفذ على قلبه!
وهكذا غلب سلطانها على سلطانه!

لم تتكلم (شيرين)، فقد تحدّث عنها جماها الأَخاذ، فأذعن كسرى له ونسي
ما أتى به إليها من غضب.. خلع مُلكه وسلطانه على أعتاب بسمه رقيقة من
نغرها أسكرته فطفق يهذي باسمها، وهامت روحه في مسارب جماها.. وبرقة
النسيم أحاطت رقبته بشالها الوردى، وبخفة الفراشة اعتلت ظهر (شبديز)!
أفاق كسرى من سكرته على أريج شالها الذي غمر أنفاسه، وضحكته
الساحرة تُجَلجل في الفضاء وهي تبعد بفرسه..

أشار كسرى إلى نديمه، وحرسه أن يكفوا أيديهم عنها، واكتفى أن
واعدها في غده.. وظلَّ يتبعها ببصره حتى غابت عن عينيه..

مضى يوم وكسرى يقف في موضع لقائهما بالأمس مُعلنًا عن نفسه
يتحدّى شموخ الجبال، وارتفاع السماء.. مرَّ عليه الوقت ثقیلاً ثقیلاً وهو
ينتظرها حتى هذه طول الانتظار وأذله، وهزم نفسه اليأس وحطمها.

مالت الشمس إلى الغروب تؤذن بانصرام النهار لينقضي في نفسه الأمل
في اللقاء..

وفجأة أقبلت على فرسه تزهو وكأنها تسخر من آماله، وكما ولّت عنه
أمس فجأة جاءته اليوم فجأة!
وجد نفسه في لحظة خاشعاً في محراب جماها، ماثلاً في حضرة سلطان
فتنتها.

نزلت عن فرسه، وأسلمته زمامه..
كان شالها الوردي لا يزال يحتضن كتفيه المفتولين..
امتدّت أناملها الجريئة إليه تنزعه، فتشبّث به.. أخيراً دانت له الفرصة
التي انتظرها ولن يضيّعها.
تمنّى لو توقّفت الشمس عن المغيب ليطول حديثُهما..
حيّاً جماها، وأنشدها أرق كلمات الغزل..
ابتسمت في تعال..
عرّفها بنفسه.

لم تهتم.
واعدها بالنعيم، والقصور، والحرير..
تمنّعت.. ما يكون لمثلها وقد ملك قلبه أن تكون له كغيرها محظية!
واعدها بالمال، والجواهر..
أجابته بجنان ثابت، وبكلماتٍ شعرية منمقة:
والذي وهب الأجساد زادها

وبالمعبود الذي يرفع الأرواح..
لن تحقّق رغبتك مني - رغم كونك ملكاً- بغير زواج..
فكم من المساكين قُتلوا على بابي!
أذهب كي لا أسفك دمك!
ففي رقبتي كثيرٌ من دماء أمثالك..
فأنت صخريُّ الفؤاد
وأنا فولاذيةُ الروح
ولا يصلحُ لذلك القلب إلا تلك الروح!
تراخت يدها عن الشال، وانصرفت مع شمس الغيب، وتركت الملك
يحيطه الظلام، وتلعب برأسه الأفكار..
تُرى ما سيكون موقف الأسرة الحاكمة، وكبار الدولة منه إن تزوجها؟!
سيحدثون إرادته، ويعلنون رفضهم فهي ليست فارسية النسب، ولا عريقة
الجدور، ولا تدين بالعبادة للنار المقدسة.
لكنني أحبها، بل أعشقها.
ثم عاد ليترد تلك الهواجس عن رأسه..
فمن تكون حتى تسيطر عليه؟!
إنها امرأة، والنساء كثيرات من حولي.. لم تتمنّع عليّ امرأة قبلها!.. لم تُخلَق
المرأة التي ترفض منادمتي!

تنبّه من دوامة أفكاره، وعواصف حيرته على صوتٍ يناديه من بعيد،
ومشاعل كثيرة أحالت ظلمة الليل من حوله نهراً:

مولاي كسرى.. خشيتُ عليك بعد أن غبتَ عنّا، وفقدنا أثرَكَ.

تنبّه كسرى من غفلته، فصاح غاضباً:

أنا كسرى.. مَنْ يملك الدنيا، أَوْ لا أقدرُ على امرأة؟!

أجابه (شابور) في عزم:

مولاي لو شئتُ لأتينا بها في الأغلال راکعةً تحت قدميك!

تمادى كسرى في غضبه قائلاً:

نعم.. سأتي بها صاغرةً.

قال (شابور) في جدية:

مُرّ الجند!.. ينطلقون في أثرها.. يُنقبون عنها في كل مكان.. يأتونكَ بها
حيّة، أو ميتة..

لكن ما لبث أن هدأ كسرى حين رضخ لسلطان قلبه، ليخاطب (شابور)

في حق:

يا أحمق.. أتأنتي بها بعد كل هذا جثماناً لا روح فيه؟!.. إنّي أريدها في بهاء
حسنها ودلالها راضية، فأجني ثمرة السعادة معها أياماً هنيئة.. كيف أهنأ بها
وهي مُرعمةٌ مُعصبةٌ؟!

قال (شابور) في خبث:

مولاي.. إنها تحمل بين جسدها الرقيق روحًا ماردة، وطموحًا مدمرًا!

قال كسرى:

صدقت.. فطموحها أبعد بكثير مما تخيلت!

برقت عينا (شابور) خبثًا، وتفجّر المكر من بين عينيه، وهو يسرّ بكلماته

الممطوطة إلى كسرى كثعلبٍ عجوز:

مولاي.. فلتزوّجها إذن!

صاح كسرى فيه:

أجنت أيتها المخبول؟! أم تريد أن أطيح برأسك؟! .. أأتزوجها وأنا كسرى

العظيم، وهي واحدة من رعاياي؟!!

قال (شابور):

عذرًا يا مولاي.. ما قصدتُ ذلك، ولكن استمع لعبدك المطيع!

سأخبرها على لسانكم أنك ترغب فيها زوجةً حتى نأتي بها إلى القصر،

وحينئذٍ ستصبح بين حريمك، وفي قبضة يدك!

عُدْ أنت يا مولاي، واسترخِ!.. فقد أجهدتك الرحلة.. وسأتولّى أنا

الأمر!

فقط دُعُ لي فرسك، وبعض حرسك، ولسوف آتيك بها.. وعندئذٍ سيكون
لك ما تشاء..

استحسن كسرى كلام نديمه..

تردّدت ضحكات كسرى تملأ ساحات الفضاء.. ثم قفل عائداً..



الفصل الثامن

انطلق كسرى قافلاً إلى قصره ينتظر.. افترسه القلق، واستبدت به
الأشواق، لكنّه كبرياء الملك الذي لا يسجد لامرأةٍ مهما بلغت من الحسن
والجمال، وإن كان قد خضع لها صاحبُه!

رأى أن ينتظر ويتصَبَّر، وما يضره أن يصبر بعض الوقت حتى يحقّق
هدفه، فالصبر من أعظم مكائد الصيد، ولا بد للصيد إن كان حقّاً صياداً
أن يتحلّى به حتى تسنح الفرصة فينقض، وكان كسرى بحقّ صياداً بارعاً.

لكن (شيرين) لم تكن أبداً بالصيد السهل، بل لم تكن على الإطلاق صياداً،
إنما هي الصياد!.. صار هدفها وشيكاً، فقد نضجت الثمرة، وأوشكت على
السقوط في قبضة يدها.. سيأتيها المحبُّ راغباً في مسح مَنْ أذلّهم الحب،
وقهرهم سلطانه..

لم يكن يعوز أجمل نساء الدنيا، وأكثرهن على الأرض فتنة، الذكاء والحيلة
في سبيل تحقيق بغيتها.. لم تكن بالغرّة الغافلة، ولن تنخدع بالوعود الكذابة،
ومعسول الكلام.. كانت تعلم أنها معركتها التي ستقاتل فيها للنهائية حتى
يُسَلِّم كسرى لها، وترتفع رأيُّها على رأيته.

استقبلت (شيرين) عرض (شابور) بالتصديق، وأظهرت بين يديه
القبول والتسليم.. خدعته بمظاهر مصطنعة من الفرحه، حين هلّلت قائلة:

أخيراً وافق كسرى.. سأكون له بالزواج، وبالزواج فقط.. سأكون له الزوجة التي تضع بهذه الكلمة السحرية بين يديه مفتاح قلبها ليملك جوارحها، وجميع أركانها!

اطمأن (شابور) أنها ابتلعت الطعام، وانظلت عليها الحيلة، أما هي فقد اطمأنت إلى ما تتركن إليه من أسلحة جماها الفتاة، وسعة حيلتها، وذكائها.. وأسرت إلى نفسها ساخرة:

ستثبت الأيام من منّا سيضحك في النهاية أنا أم أنت، ومن يقف وراءك؟! وانطلق الموكب يستحث خطاه، وعندما أصبح على مسافة مرحلة من القصر سبقها (شابور) إلى الملك بالبشرى ليعد العدة لاستقبال العروس الحسنة، وأبقى معها قليلاً من الحرس.

سار موكبها إلى القصر حتى إذا صار منه قاب قوسين، أخبرت حرسها برغبتها في الاغتسال والتطيب بعد أن بعّدت عليها الشقة، وطال بها السفر، فكسرى لن يغفر لهم إن جاءته على صورة لم يرضها لها، ولن يرحمهم إن شكت إليه سوء المعاملة.. وبغنج، ودلال مالت على أحد الرجال الذي انفرد بحراستها حين وردت النهر، فأغرته بأسلحة فتنتها، واحتالت عليه حتى أخذت سلاحه، وملابسه، وانطلقت بـ(شبديز) حتى غابت عن أعينهم، وعجزت حيلتهم أمام حيلتها! اختبأت عن أعينهم حتى تسنح لها الفرصة فتأتيه وحدها بكامل إرادتها..

لا بد أن تحافظ على صورتها أمامه، وأن تسعى إليه باختيارها.. فهو وإن كان قد أعلن لها عن رغبته فيها، فلا بد أن يتعلّم كيف يحترم إرادتها!

انطلق الجند مذعورين إلى قصر الملك بعد أن عجزوا عن إدراكها، فأخبروا رئيس الحرس الذي امتقع وجهه، وحمل إلى كسرى الخبر المشؤم.. دخل رئيس الحرس مجلس كسرى مرتبكًا بعد أن أخذ الإذن، وكان (شابور) بمجلسه، فأسرّ إليه بالأمر، فما استطاع هو الآخر أن يتمالك نفسه، وأسقطا في يدي كسرى..

استشاط كسرى غضبًا، وأبرق وأرعد، وصاح في الرجل صيحة خلعت قلبه، قال:

اختر لنفسك أحد أمرين: إما أن تأتيني بها، أو أرسل من يأتيني برأسك.. سأمهلك حتى مغيب شمس الغد.. هيا! انصرف من أمامي! أطلّ كسرى على (شابور) بوجه عابس يشتعل غضبًا، وألقى اللوم عليه بعد أن خدعتهم المرأة، ولعبت بهما!

امتصّ (شابور) غضب كسرى بكلماته المملوطة كتلك التي تستخدمها الساحرات، وبدأ يتحدث إليه بصورة بدت منطقية، فهدأ كسرى، وبدأ ينصت إليه وهو يقول:

مولاي.. سبق لي وأن أخبرت جلالكم.. هذه المرأة ليست كسائر النساء إنها تحمل بين جنبيها نفسًا موارّة تتوقّد طموحًا ورغبة.. إنها تبغي الملك، ولا تبغي سواه!

قاطعه كسرى وقد عاد إلى سابق تجهّمه الذي لم ينفك بعد عن سحتته..
أجنت؟! كيف تظنني أنّها الوغد؟!.. أتلعب بي امرأة أيّا كانت؟!
بادر (شابور) إلى الاعتذار مُتدلاً:

عفوًا يا مولاي.. أنتَ ملك الأرض، وإله البشر العظيم.. كان بمقدورك
أن تأتي بها صاغرة من أول يوم.. لقد غرّها حلمك!!
ضرب كسرى بيده على مقبض كرسي العرش المذهّب، وقال في غضب:
سأتي بها إلى هنا تحت قدمي ذليلة.. ستُقبّل قدمي حتى أرحمها!
ثم صرف (شابور)، وباقي حراسه..

اطمأنت (شيرين) أنها ابتعدت بالقدر الكافي عن الحرس الذي كان
يصاحبها، وكانت تعلم أن كسرى لا بد وأن يكون قد وصله خبر هروبها،
وعليها أن تأتيه قبل أن يأتي بها.

انتظرت (شيرين) حتى انطلق الجند يبحثون عنها، ودخلت حديقة
القصر في زيّ الفرسان، وقد غطّت وجهها فظهرت في صورة فارس من
فرسان القصر.. وإذ بكسرى قد تأرقّ ليله، وضجر بمضجعه، فجلس في
الحديقة وحيداً استبدّت به همومه.. تارة يستكين في دعة إلى تباريح الهوى،
وتارة يدفعه الحنق فيصبّ جام غضبه ووعيده على من لعبت به، وهزأت
بمشاعره!

أناه صوتها عذباً رثاناً، ليسكر كسرى بغير مُدام كما أسكرته من قبل
ذكرها فبدا شاردًا عما يدور من حوله.. تنبّه كسرى أنه يقظ لا يحلم، فالتفت
إليها وقد أزاحت عن وجهها اللثام، فأنارت الليل كالبدر ليلة التمام..

رقص قلبه طربًا، لكنه تمالك مشاعره سريعًا فأسكتها بقدر ما استطاع،
وأظهر التماسك والقوة، وليكن معها مرة قويًا حازمًا! لن يسمح لحبّه أن
يخونه من جديد، وقد أصبحت في قبضته، ولن يدعها تفلت من يده!

تحدّث إليها بلسان سلطان، وقال متعجبًا:

عجبتُ لأمرِك! تفرين مني؟! ثم تأتيني بإرادتك؟!.. حقيقةً أنا لا
أفهمك!!

خاطبته بدلالٍ أنثوي، تذوب لرقته صمّ الجبال:

لأنك بعد لم تفهم النساء يا مولاي.. لقد جمعت في قصرِك نساء الأرض
آلافًا.. أصنافًا.. صورًا، وأشكالًا.. لكنك لم تقابل من هي مثلي.. ولن
تقابلها.. إنني روح فولاذية.. لن تملكني، ولكنني ملكتك.. لا تنكر أنني
ملكيت قلبك، وروحك.. ولن تملكني إلا كزوجة وإن قتلتني..

وهكذا لم تدع لكسرى أمام سلطان حبّها اختيارًا، ولا أمام حيلته حيلة..
فأذعن بالقبول والتسليم!

طار الخبر إلى القصر، تناقلته الجوارى ليصل إلى الزوجة الأولى أم ولي عهده (ماريا).. طرح عليها ذلك النبأ المشؤم أسدالاً من الأحزان، قد زادت طينتها بلّة.. وتقاذفتها أمواج من المواجه، والهموم لتطرحها على ساحل بحر هائج من الأفكار...

ألا يكفيني وضعي في نظر الأسرة المالكة.. وقد غدوا يضمرون لي العداوة حيناً، ويدونها حيناً!.. تلك العداوة الأبدية بين الفرس والروم التي دامت قروناً، لم تُزَلْها تحالفات، أو معاهدات.. وقد تجسّدت اليوم في شخصي، ولولا ابني منه لأنّهم وجودي هاهنا وألحقوني بأهلي.. ألا يكفيني ما ألاقه من الزوج الذي جار على كرامتي، وأهدر أنوثتي، وسلبني حقّي عليه، فلم يتعدّ قدري عنده قدر محطّية، أو جارية، وقد انشغل بامرأة ملكت عليه قلبه، وعقله، ولم يعد يرى سواها!

بعد أن كنت ملكة على قومي أصبحت اليوم جارية لكسرى!.. لقد ظلمني والدي حين زجّ بي في هذه الصفقة الخاسرة، لأصبح تفصيلاً صغيرة في خطة متفق عليها بين ملكين، صرت لأحدهما بلا قيمة، خارج حساباته بعد أن حقّق هدفه منذ سنوات واستعاد عرشه، وصرت للآخر دمية ليس لها قيمة، وجزءاً من لعبته الخرقاء التي جعلته في نظر قومه ملكاً نزيهاً طائشاً سلّم لعدوّه طوق النجاة، فأصبح لا يأمن اليوم على سلطانه!

وقد تأكّدت لـ (ماريا) تلك الحقيقة منذ استقر بها المقام في القصر، لذا سعت بكل ما أُوتيت من حيلة لتُحكّم سيطرتها عليه، وتُمكن لوجودها فيه

وذلك بتقديم الأموال، والهبات، والعطايا لرجال القصر وجواريه، فقيم لها خاصةً تحميها، وتحمل إليها أخبار القصر.. ومن ثمَّ جاءتْها الأخبار إلى موضعها، وكم جاءتْها من أخبارٍ حول علاقات كسرى النسائية التي لا تنتهي!.. فقد كان كسرى بحقٍّ زيرٍ نساء.. لذا اعتادت على نزواته وحماقاته، لكن هذه المرة استشعرت الخطر على مكانتها إلى جواره.. لقد رضيتُ أن تكون له في كل ليلة مع عشرات الجواري والمحظيات قصصًا تتسامع بها جدران القصر، لكن أن تكون له زوجة تشاركها طموح وريثها على العرش فذلك مؤثر خطر!

كانت (ماريا) تتابع عن طريق عيونها المُنَدَّسة قصة تلك المرأة التي تلاعبت بكسرى منذ بدايتها.. وكانت تستشرف الخطرَ كلما أصرَّ كسرى على متابعتها والتمسُّك بها، وكلما زادت في التمتع والصد عنه.. حقيقة أنها مسيحية مثلها، ولا تجري في عروقها دماء فارسية ملكية لا من قريب ولا من بعيد هي الأخرى، لكن التنافس على الملك بينهما لا يمكن أن يوحد هدفهما.. ستكون حربًا وعداوة بينهما حتى تفوز إحداهما بالمعركة وتضحك في النهاية.. وقرَّرت أن تأخذ المبادرة، وتشعلها حربًا، ولتكن الجولة الأولى لها.

كان كسرى يعلم علم اليقين أنه بقرار زواجه ستُفتح عليه من المعارضة أبواب جهنم لا تحمد نيرانها.. سيتحدّى بقراره هذا أسرته الملكية، ورجال الدولة، والوزراء، والوجهاء..

لكنه في النهاية رضخ لإرادتها، ووجد فيها صنفاً جديداً من النساء لم يعهد مثله من قبل، فأقسم أن يرفع رأسها بالزواج، وأن يتحدّى العالم كله في سبيل إسعادها، ورضاها عنه..

وأعلنت ليلة الزفاف رغم استياء الجميع، وحنق زوجاته.. كان كسرى جباراً مرهوب الجانب، فلم يستطع أحد مناقشته، واكتفى الجميع بإضمار الكيد لها إلى أن تنكسر شهوته ويزهد فيها، فيعلنوها حرباً عليها حتى تضجّ بعداوتهم، فتخرج من القصر بغير رجعة.

أما (شيرين) فكان إعلان الزواج بالنسبة لها تحدياً جديداً في معركتها لإثبات وجودها.. لا بد أن يزداد تعلق كسرى بها، ولا تنطفئ يوماً في قلبه جذوة الشوق إليها.. ستكون له كماء البحر يشرب الظمآن منه ويشرب، ولا يزيده ذلك إلا عطشاً! لن يرتوي قلبه من حبّها، ولن ينطفئ شوقه إليها مدى الأيام!.. وما أبرع (شيرين)! فقلّ ما يجود الزمان بامرأة تجمع بين الجمال النادر، والذكاء المتوقّد! والأهم من ذلك قدرتها المذهلة على توظيف تلك القدرات، والإمكانات لتحقيق مآربها.. امرأة لا يصمد أمام جمالها جبابرة الملوك، فما بالك بكسرى الذي يجري وراء شهوته المحمومة؟!.. لكن يحسب لها أنها حرّرت قلبه من سلطان الشهوة، وأغلقت على قلبه جميع منافذه، فأصبح لها وحدها، رهن قبضتها، ولا يرى سواها!

استقبل المخدع الملكي العروس الحسنة، وأقبل عليها كسرى ينهل من زهرة أنسها، ويرتوي من أشواقه التي لا تشبع، لتجتمع عنده في شخصها محاسن النساء، ويقنع بها فيستغني بها عن جميع بنات حواء..

وتمضي بموكب سعادتهما الأيام والأسابيع كالدقائق والثواني، وحبُّها يشتعل في قلبه أكثر وأكثر.. فقد علمته كيف يكون الحب.

ولأن الحب كالبلور شفاف فإن كل ما يكدر صفوه يظهر فيه واضحا، والمحبون يبدون في حالة من الصفاء كالمرآة تنعكس على صفحتها المصقولة اللامعة أقل شائبة.. لذا كانت (شيرين) تعلم أنها مُقدِّمة بزواجها منه على حرب شعواء داخل أروقة القصر، وما أبشع كيد النساء وأعظمه!.. لكنها تمتلك الفرس الرابع في الرهان!.. تمتلك قلب كسرى الذي ستفرض سلطانها على الجميع من خلاله، وسيذعن الجميع لأوامرها على لسانه!

فكّرت (شيرين) كيف تستأثر بكسرى؟! وكيف تقييده أكثر وأكثر بقيود عشقها؟! وكيف تقابل مكر نساء القصر وحيلهن بحيلها؟!

لم يكن سهلاً عليها أن تعادي جميع نساؤه وجواريه جملة واحدة، فهي امرأة واحدة وهن كثيرات وإن كان قلبه معها!.. لا بد أن يأتي اليوم الذي تكون فيه سيدة هذا القصر الذي يعجُّ بزوجاته، ومن غير المعقول أن تطرد جميع نساؤه، لذا كانت خطتها أن يتخذ لها كسرى قصرًا جديدًا يجمعها به، ليكون مركزًا للحكم فتنفرد وحدها إلى جواره بالعرش، وتصبح بقيّة نساؤه في القصر القديم كمًّا مهملاً! وكانت ضرائرها وجميع من حسدنها تحملن لها

مثل رغبته، بل على نحو أقوى وأشدّ، فأوعزن إلى كسرى بنقلها إلى موضع بعيد، فأضمر بذلك قراراً أحسّ فيه من (شيرين) بالموافقة، لكنه أثر إرجاء حسمه حتى تعادل موازين الأمور، لأنه لا يصبر على فراق الحبيبة، ولا يستطيع أن يدع مجلس الحكم.. كما أنه لن يستطيع أن يجمع بين (شيرين) والخلوة بها، وبين وجوده بجانب زوجته أم وريث مُلكه.. لا يستطيع أن يفارق إحداهما، فانتظر حتى يتدبّر الأمر، وأرجأه حتى حين!

وكم جمعت بين العاشقين أمسيات جميلة يتطارحان فيها الغرام، ويتقاسمان ليل السهر!.. وكم شهد مخدعهما بعيداً عن أعين حسّادهما وليس بعيداً عن أحقاد قلوبهم

- ليال على أضواء الشموع، وعبق الزهور، وأريج أنفاس الحب الذي وُحِدَ بين قلوبهما!.. ويكتمل الأنس فيها بالطرب.. فهذا (البلهذ) مغني كسرى الأثير، وعازفه اللودعي^١، قيثاره زمانه، وأعجوبة عصره وأوانه، وأحد عجائب كسرى التي لا تنقضي.. يتغنّى بصوته الساحر، وعزفه البديع، فيُشَنِّفُ الآذان، وتتراقص على ألحانه العيدان والأركان!

علمت (شيرين) قدر (البلهذ) عند كسرى ومدى تأثيره عليه، فقد كان يمتلك مفتاحاً سحرياً لقلبه، وكان كسرى لا يردُّ له طلباً.. رأته بصوته العذب، وألحانه الشجيّة وسيلة ناجحة في الوصول إلى كسرى، وسُلماً يصل بأمنيات الكثيرين إليه.. قرّرت أن تضمّه إلى معسكرها، فقرّبت منه، وأغدقت عليه العطايا، وحبّبت كسرى إليه، وحبّبت به إلى كسرى.

(١) اللودعي: الخفيف الذكي الظريف.

عرفت ذلك يوماً، حين أبدع ألحاناً نظم فيها أجمل كلمات، وترنم بها بصوت ملائكيّ، يدعو كسرى إلى زيارة جنته التي أمر بغرس أشجارها وشق أنهارها، وجلب صنوف من الطير والوحوش لتكون أعجوبةً جديدة تُضاف إلى جملة عجائبه^١، فليبي طلبه رغم ما كان يعتريه من مشاغل، ثم نما إلى علمها أن أصحاب هذا العمل هم الذين أوعزوا إلى (البلهذ) ليخبر كسرى باكتمال عملهم في انتظار أجرهم.. ولما طرب كسرى من ألحان (البلهذ) وغنائه الساحر أمر لهم بالعطايا..

ودعاها كسرى إلى افتتاح جنته التي سمّاها بستان الصيد (باغ نخجيران)^٢، وكانت بحق جنة شهدت بينهما أجمل لحظات الحب.. تطارحا الأشواق والهيام حتى أصبحا في أثواب العشق عصفورين مغردين يتقافزان بين الغصون.. تخلّى عن ملكه فراح يلهو كطفل صغير يستقبل الدنيا بفرحة العيد.. يجري نحوها وقد فتحت له ذراعيها وقلبها.. جلسا بعد أن أنهكهما اللهو ينظر إلیها، وتنظر إليه.. يبحر في بحر عينيها..

(١) عد المؤرخون اثنتي عشرة من عجائب كسرى: القصر الأبيض بالمداين - قصر شیرین بقرمسين - العرش - التاج - الإيوان - الراية (دارفش كايان) - بساط القفط - حصانه شبديز - فيله الأبيض - شیرین زوجته - بلهذ عازفه - بستان الصيد بقرمسين (باغ نخجيران).

(٢) أمر كسرى ببناء باغ (غابة) بقرمسين، كانت فرسخين في فرسخين، جمع فيها الطير، والوحش، وكل صيد من كل مكان حتى تتناسل، ووكّل بذلك ألف رجل، وأجرى على كلّ منهم في كل يوم خمسة أرغفة من خبز، ورطلين لحماً، ودورق خمر، فأقاموا على جمع الحيوانات، وإكثارها سبع سنين حتى انتهوا، وسألوا (البلهذ) المغني أن يخبر كسرى بانتهاء عملهم فتغنّى بكلمات طرب لها، وأمر لهم بالعطايا.

قاسمها الشراب، سكر من كأس الخمر تارةً، ومن خمر عينيها تارةً أخرى..
سألها أن تتمنى عليه.. كانت فرصتها لتصنع لنفسها عرشاً تكون عليه ملكةً،
مثلاً صارت ملكة على عرش قلبه المتيّم بها.. وجدتْها فرصة لتحقيق بغيتها
بالانفصال به عمّن حولها فتمحو من قلبه أيّ أثر لضرائرها.. طلبت أن يقيم
لها قصرًا، وليكن في تلك الجنة التي شهدت أجمل أوقات حبّها.

سكر كسرى من حديثها حتى الثمالة.. تمنّى عليها أن تتمنى أكثر وأكثر..
لم يكتفِ في الأمنيات بعالم المعقول فإنه ملك الأرض، وهي ملكة النساء..
كيف يضيق حُبّه لها بأمنياتٍ؟! ومهما كانت تلك الأمنيات؟! فحُبّه لها أكبر،
وأعظم!

أطلعها على حديث نفسه، قال:

كم أسكرتني بحبّك! أسكرتني أكثر من سكري بالخمّر! وسأسقيكي!
ليس كأسًا، وإنما نهرًا! كنهر الخمر من عينيك التي غلبتني على الكأس الذي
بين راحتيّ.. سأشقُّ لك من الخمر نهرًا! لا، بل نهرين، كعينيك!.. لنشرب
ونشرب حتى نثمل، ونغيب عن الدنيا، ونحلّق بأجنحة السعادة في سماء
الأحلام!

ثم غلبه السكرُ فنام.. أشارت إلى الجوّاري والغلمان فحملوه إلى مخدعه،
وقد غطّ في نوم عميق وغاص في أحلامه.. خَشِيتُ أن تبتلع أحلامه وعوده
لها.. ولما أصبح تأكدت مخاوفها، فقد نسي ما وعد.. انتظرت أن يكلمها فيه،
فلم يتكلّم بشيء.. وصدق عندها قول القائل: "كلام الليل يمحوه النهار!"..

مرّت أيام ولا زالت تطمح في ذلك الوعد الذي نسيه، ولم يعد يذكره..
و ذات صباح استيقظت مبكراً، وقد هجرها النوم أغلب ساعات الليل،
بينما كسرى غارقاً فيه حتى أذنيه.. تجولت بين المخدع والرواق تارةً، وبين
المخدع والشرفة تارةً أخرى.. لم تشعر بالراحة وقد اصطدمت بنظرات
حاسدة تضر لها الشرّ في كل موضع بالقصر.. لا بد أن تفوز بوعده!.. لكن
كيف؟!.. قفز إلى ذهنها الحل.. فلاّمت نفسها...

كيف نسيته؟! كيف غاب عن بالي؟!.. إنه هو! أجل.. من يفتح أمام
طرب ألحانه قلب كسرى وعقله..

وعلى الفور أرسلت إلى (البلهبد)، فأقبل عليها.. واعدته بضیعة كانت لها
بد(أصفهان) إن هو ذكر كسرى بوعده..

لم يمضِ يومان حتى شتّف أذنيه بغناؤه الشجي يذكره بالقصر، ونهري
الخمّر!

أمر كسرى ببناء قصر منيف لم يعرف له الدهر مثيلاً، حيث الأبنية
الشاهقة، والحجرات الكثيرة، والإيوانات العظيمة، والخزائن، والعقود،
والأعمدة، والأروقة، والشرفات.. وزيّنه من داخله بالبدايع، ونفائس
التحف..

ووقف (البلهبد) في حديقة ذلك القصر وقد اكتمل بناؤه يتغنى بصوته
الملائكي بأجمل الألحان، و(شيرين) سعيدة النفس، منسرحة الصدر، وقد
تعطّرت أرجاء القصر بعبير أنفاسها.. جلست إلى مليكها.. تقاسما نظرات
الحب.. وقد طاب لهما أنس السمر بعذب الكلام، وسحر الألحان:

يا طالبي غُرَرِ الأَماكِنِ حَيُّوا الدِّيارَ بـ(برزماهن)^(١)
 وَسَلُّوا السَّحابَ بِجودِها لَتَسِحَّ في تلكَ الأَماكِنِ
 تسقي رَباعَ الكسرويِّ سَـةَ بالجبالِ وبالمَدائنِ
 دان يَسُفُّ رِبابُه^(٢) وتَنالُه أَيدي الحِواصِنِ

ويبحر كسرى مع كلماته الرائعة في نهر حسنهما فيتشي.. يهيم مع مفاتنها، ويتراقص لها قلبه طرباً أكثر وأكثر..

واهاً لـ(شيرين) التي قَرَعَتْ فؤادَكَ بالمَحاسِنِ
 تمضي على غُلُوائِها^(٣) لا تَسْكِينُ ولا تُدَاهِنُ
 واهاً لمعصمِها المَليح وللسوالف^(٤) والمغابِنِ^(٥)
 في كَفِّها الورقُ المُمسَّـ كُ والمُطَيَّبُ والمُدَاهِنُ
 وزجاجةٌ تدعُ الحَكيَمَ إذا انتشى في زِيٍّ ما جِنِ
 وشُغِفَتْ حينَ رَأيتُها واهتاجَ مِنِّي كُلِّ ساكِـ
 حتى انتهى، فأمر له كسرى بأموال وعطايا، وأنجزت له (شيرين) وعدّها بالضيعة..

(١) مكان قريب من موضع القصر يشتهر بجباله.

(٢) سَفٌّ، وأَسَفٌّ السحاب أي: دنا من الأرض، والرباب هو السحاب الأبيض.

(٣) الغُلُوءُ: الإسراع في السير، مع حسن في الخطا وخفة.

(٤) السالفة: جانب العنق.

(٥) المِغْبِنُ: الإبط أو باطن الفخذ.

وتحققت لها أمنيته، وأقامت بالقصر الذي سمّاه كسرى باسمها وصار له مقرّاً صيفيّاً، لتتقد نار الغيرة والحسد في قلب ضرّتها أم ولي عهده التي نازعتها أحقادها، وفكّرت كيف تكيد لها وتغلبها..

كان كسرى يمضي أغلب وقته بقصر (شيرين)، لكن من وقتٍ لآخر كان يتردّد على مقر حكمه، وديوان وزرائه، ويتصل برجال دولته وقادة جنده، ويطلّ على زوجته (ماريا) الملكة أم ولده، ويلتقي بأفراد العائلة المالكيّة.. وكل ذلك يحتاج منه لكثير من الوقت والجهد، فكان يوازن بين حبّه لـ(شيرين)، وبين متطلبات الحكم وما تقتضيه واجباته تجاه الجميع، فيمضي بعض وقته هنا وبعضه هناك.

كانت (شيرين) في قصرها ملكة متوّجة.. أحيطت بالجواري، والغلمان، والحاشية، والعبيد، والحراس، والجنود.. تأمر، وتنهي.. تشير بإصبعها فيصير المستحيل أمام رغباتها ممكناً، وبعيد المنال متاحاً.. لدرجة أنها اشتتت يوماً الحليب طازجاً، وكان المرعى بعيداً عن القصر فإذا جيء به زالت سخونته، فاشتكت إلى كسرى الذي ما كان منه إلا أن عقد ديوانه، وجمع وزراءه، ومرازبته، ومستشاري دولته يبحثون تلك المشكلة العويصة التي أرقت الزوجة الحبيبة!

وانتهت بهم المشاورات إلى الإسراع بشق نهر بين المرعى والقصر يجري باللبن طازجاً إليها في القصر!.. ولم يكن الأمر بالعسير على مُلك كسرى الذي لم يعجزه مال، ولا كثرة رجال!

وأجمع الجميع على رجل من علماء المملكة العباقرية في علم الهندسة والبناء، إنه (فرهاد).. كان مهندساً بارعاً، ومفكراً أليماً لا تستعصي على عقله المتوقد مشكلة حتى عُرف بالحكيم.. وبالفعل كان الحكيم (فرهاد) عند الظن به، فقد تغلب على المشكلة بأن حفر جدولاً بين المرعى والقصر مسافة فرسخين، وأحاطه من جوانبه بصفائح ملساء من الصخر ليصب في حوض كبير في حديقة القصر كالكوثر من الجنة..

وقف (فرهاد) في حديقة القصر بعد انصراف عماله ليتابع حصاد عمل يوم انقضى، وقد مرَّ نصف النهار وهبَّت نسائم العصر اللينة فجلس على صخرة يستر وحها، ويتابع بذهنه خطة عمل يوم آتٍ، فبدأ مشغولاً عما يدور حوله.

أقبلت (شيرين) عليه في غير حرس، ولا جوار فحسبها جاريةً بالقصر.. سحره جمالها النادر، ودلالها الأخاذ، فاختطفته فؤاده، وهام بحبها.. كانت كالشمس تدور الكواكب حولها تحت تأثير جاذبيتها فلا هي تصل إليها، ولا هي تفلت من قبضتها.. ولم تكن آيات الحب وعلاماته لتغيب عن تقديرها، فكم مرَّ عليها من عشاق متيمين! وما كان منها إلا أن تمادت في استدرارها لحبه، وصدقت على ظنه أنها من جملة الجواري.. ورضيت من عشقه ما تطفئ به شهوة غرورها.. وطال بهما اللقاء، وتكرَّر مرة بعد مرة في غيبة كسرى، حتى سقته الحليب بيدها!

لم تكن تعلم أن بالقصر عيوناً تعدُّ عليها أنفاسها، وتحصي عليها حركاتها وسكناتها، وقد وجدن الفرصة التي لن تتكرَّر للوشاية بها.. طارت الوشايةُ إلى ضراتها.. لاكتها الألسن، وتلقَّفتها الآذان، حتى علم كسرى، فغضب غضباً شديداً وتوعدهما بالعقاب، لكنَّه سرعان ما تراجع أمام تأثيرها عليه، واكتفى بتدبير عقاب لـ(فرهاد).. سيقتله بلا شك، لكنه لم يشأ ليدبر مقتلَه جهراً فتفتَّصَح الزوجةُ أمام أسرته فيلقون باللوم عليه، ويكون مضطراً لطردها، وربَّما لإزهاق روحها حفظاً لماء وجهه، فأرسل به إلى جبال (بهستون) للإشراف على قَطْع الحجارة به، وهناك قتله أعوانه بأمرٍ منه، ومات وهو يرُدُّ اسمها بعد أن عرف أنها (شيرين) زوجة كسرى.

وفشلت (مارية) في تعكير صفو ما بين كسرى وزوجته الأثيرة على قلبه، بل عاد إلى حبِّها أكثر شغفاً بعد فترةٍ من الخصام لم تتعدَّ أياماً انتهت بإذعانه إلى سلطان قلبه، والقضاء على بريءٍ أحبَّها حبًّا طاهراً بعد أن تلاعبت بمشاعره، ولا يهم أن تخسر المملكةُ عبقريةً مثل عبقريته!

وخسرت (ماريا) مع (شيرين) أول جولة، لتستعد (شيرين) للرد في جولة أشد وأعنف بعد أن استعرت نار الحرب بين الضرتين..





الفصل التاسع

مرت على (جومان) أشهر وهي تقيم في حريم كسرى.. لم تكن (جومان) تتخيل أن يأتي عليها اليوم الذي تُنتزع فيه حريتها وهي الحرة سليلة الأحرار! لينتهي بها المطاف إلى مكانٍ تكون فيه بين آلاف الجواري اللائي يخضعن للملك يمين كسرى أعظم ملوك الأرض، وأن تطأ بقدميها القصر الأبيض بالمدائن أحد عجائب الزمان!!

لم تكن تبهرها مظاهر الترف والزينة التي يفصح عنها كل موضع شبرٍ من القصر، فقد كانت في شغلٍ عنها، فما أشبهها بعصفورٍ حبيسٍ في قفصٍ من ذهب.. قد أُتي بها ظلمًا، وبيعتَ جارية، بيعَ مَنْ لا يملك لمن لا يستحق! لم تكن لتفسر سعادة بعض مَنْ حولها بمكانهن من حريم كسرى، حتى ولو كان ذلك هو السبيل إلى مشاركته عرشه، فقلبها هو عرشها، وحبيبها مستويًا عليه متربعا، فهو مليكها وحده وليس كسرى، وحسبها وقومها ما لاقوا من ظلمه!

وبعد أن عاشرت (جومان) واقعها الذي لم تجد منه مفرًا، حاولت أن تروّض نفسها نوعًا على إلفه والاعتياد عليه إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، مستعينةً على الحياة بقليلٍ من كثيرٍ ممن تشاركنها حالها وتهوّن عليها

مصائبها، طالما أن كسرى قد شغل عنهن بالمرأة التي رجحت في ميزان قلبه بآلاف النساء، فعزف عنها وعن غيرها، ولم يشعر حتى بوجودهن، فشكرت الله تعالى رحمته بها.

كانت النساء حولها كثيراتٍ أتى بهن من أقصى البقاع، وأدناها.. أعراق، وأجناس.. أشكال، وألوان.. ألسن شتى.. تنوع على صورةٍ قلما تتكرر في زمانٍ ومكانٍ! واختلاف البشر يوجب تباين الأخلاق والطباع، وهذه سُنَّة الحياة.. فكانت بنات الخدور أمامها فرقا وأحزابا.. ظهرت بينهن الصداقة، والتعاون، والإخاء، كما ظهرت بينهن الغيرة، والعداوة، والخلاف.. وما جرى عليهن جرى عليها، فتحقق لها الإلف، والصداقة من بعضهن، كما تحقق لها من بعضهن النفور، والوحشة.

كانت حياة (جومان) بين الحريم حياةً جديدة لم تعهد مثلها، تعلمت فيها الكثير، فقد وُكِّل بها وبرفيقاتها المعلمون، والمؤدبون، وأصحاب الحرف والفنون.. وقد فرض عليهن سياجٌ محكم، ورقابة صارمة، وحراسة مستمرة ليل نهار.

مر الوقت عليها ثقيلاً، ما كان ليهوّن عليها وعلى مَنْ جمعها بهن القدر في الأسى وسوء المصير عزلتهن التي فُرضت عليهن إلا التسلي بما يدور داخل أروقة القصر في مسلسل صراع الزوجتين.. معركة دائرة بلا هوادة بين معسكرين.. ملكتان تتنافسان على الزوج الملك، ومن ورائهما طموحهما في انتزاع العرش لوريثٍ منه.. (ماريا) الملكة الرومية أم الولد ولي عهده،

وعروسه الجميلة الحبيبة الملكة (شيرين) التي ملكت مجامع قلبه، وأقامها مؤخرًا بقصر آية في الجمال والإبداع! كان لا يزال لها هي الأخرى نفوذها في القصر، وكانت عيونها به منتشرة..

كانت (جومان) تضع نفسها في موقف المحايد من هذا الصراع. تصغى إلى جارية تناصر إحداهما، وتصغى إلى غيرها تناصر الأخرى.. ثم تنأى عن هذا الصراع حين تُذكر نفسها، فتقول:

مالنا وإياهما! هما ملكتان ونحن جوارى!

وكانت أحيانًا تضع نفسها مكان إحداهما فتتذكر حبيبها وقد شاركتها فيه أخرى، فتلتمس لها العذر في آية حماقة ترتكبها مع منافستها.. لم تكن (جومان) تعلم مَنْ منهما الظالمة وَمَنْ المظلومة؟ كلتاها في عرفها تحارب عن حقّها، وفي قانون الحرب كل الوسائل مشروعة، وهذه حقيقة كانت تعرفها ففضّلت أن تنأى بنفسها عن هذا الصراع وتترفع حتى عن أقوال لا تملك الجوّاري غير ترديدها، بالتندر والتفكه بها..

قطعت عليها تفكيرها ضحكات رنّت في المكان.. تمايلت بعض الجوّاري على بعضهن يتضحكن، ويرمين بكلماتٍ ساخرة صوب جماعة منهن بدت عليهن أمارت الغضب:

مهما فعلت سيدتكم، فسيدتنا جميلة الجميلات وحدها تملك قلب سيدنا وسيدكم.. مولانا كسرى العظيم.. لقد ولّت أيام (ماريا)، سيكون الغد للمكتنا الجميلة (شيرين).. كيف تظن ملكتكم أنها ستخلص من ملكتنا بهذه الحيلة الساذجة؟!

قالت واحدة منهم:

وما ذنب (فرهاد)؟! لقد ضاع شبابه في وشاية حقيرة!
وأسفاه عليك يا (فرهاد)! ما رأيتُ أحدًا في مثل وسامته، وعقله!
قاطعتها إحداهما:

صَه!.. لو طارت كلماتك تلك إلى مولانا الملك لأمر على الفور بقطع
رأسك!

تداركت الجارية الأمر فقالت على الفور:
أنا أتكلّم عن مكانة الرجل وأهميته.. خسارة!!
قالت إحدى الجوارى في غيظ:

المرّة القادمة سيقضي مولانا الملك عليها، فرلاّتها كثيرة، ولها يوم!
ضحكت إحداهن من قولها، وقالت ساخرة:

مساكين.. إنكن لا تتصوّرن حب كسرى لها!.. لو علمتن كيف كان
يلاحقها وهي تتمنّع عليه حتى تزوّجها وأذعن لرغبتها!.. لو رأيتن القصر
الذي بناه لها! ونهرى الخمر اللذين شقّها لها! ونهر اللبن!.. لو رأيتن ذلك
لعرفتن قيمتها عنده!
وقالت أخرى:

لن تكون هناك مرّة قادمة، وسترون غضب ملكتنا العظيمة (شيرين)
وردّها الحاسم!

واستمر الجدل بين الطرفين حتى علت الأصوات، فدخلت قهرمانةُ
القصر عليهن مسرعةً لتسكتهن بإشارةٍ واحدة، فلاذ الجميع بالصمت بعد
أن تردّدت في الصدور ضحكاتهن المكتومة..

وقفت الملكة (شيرين) في شرفة القصر وحيدة بعد أن ودّعها كسرى
منصرفاً إلى ديوانه بمقر حكمه ليدير شئون دولته.. أخذت تنقلُ بصرها في
حديقة القصر.. تذكّرت الشاب الحكيم (فرهاد).. كيف أحبّها؟.. وكيف
أطاح الملكُ برأسه في وشايةٍ قذرة.. ثم تحيّلَ مصيرها لو كان كسرى أطاع
فيها تلك الوشاية لكانت مقتولة، أو سجينّة، أو مطرودة!

ضربت بيدها حافة الشرفة في غيظ وهي تضغط بأسنانها حروف اسم
ضرتها مبتورة.. أحسّت بألم في كفّها المخملي البض فزادها حقناً عليها..
وما إن التقطت أذناً وصيفتها حروف اسم (ماريا) مصحوبةً بلعناتها حتى
اقتربت منها في تصنّع ورياء، وقالت:

مولاتي ملكتنا العظيمة.. لقد جاءتنا الفرصة لنتقم ونثأر منها، ونردّها

الصاع صاعين!

قالت الملكة وهي تستخرج الكلمات من أعماقها:

تبّاً لها من امرأةٍ تحركها نوازعُ الشر والحقْد!.. لقد كدّت أهلك جراء
مكيدتها.. تكلمي بسرعة!.. هاتِ ما عندكِ!

قالت الوصيفة:

تعلمين يا مولاتي أنني خادمتكِ المخلصة، أنا وجميع من في القصر رهن
إشارتك.. مُسَخَّرين لخدمتك.. لقد وصلني من عيوني في القصر خبراً لو
صحَّ ظني سيكون ذريعتنا في القضاء على (ماريا) وبمثل ما دبَّرت لك..
وهكذا هي الحياة كما تدينُ تُدان.. لقد نما إلى علمي أنها التقتُ في موضع
مستتر بحديقة القصر برسولٍ سلَّمها رسالةً سرِّيَّة، ثم تردَّد عليها مرة
بعد مرة.. لا بد أنه مبعوث شخص إليها.. وهذه فرصتنا لفضح أمرها،
والتخلص منها، ليخلو لك وجهُ الملك!
قالت (شيرين) متشفِّيةً:

تتهمني في (فرهاد) وتلتقي في القصر بمن تشاء من الرجال؟!..
سأخبر كسرى بذلك ليقتلها وأستريح منها.. لكن أريدها أن تكون الضربة
القاضية.. ولكي يتم لي ذلك أريد دليلاً واضحاً.. هل تستطيعين أن تجلبي لي
إحدى تلك الرسائل ليعلم كسرى مَنْ تقابل في غيابه، فيدركهما في الموعد،
ويسبقهما إليه بسيفه؟!

قالت الوصيفة:

معكِ حقُّ يا مولاتي.. سأتي لك به من مخدعها، فعيوننا لديها كثيرة..

باتت (جومان) تتفكر في مصيرها البائس في خوف.. تقفز إلى ذهنها صورة (نرسي) وهو يتوعدّها فيتملكها رعب وفزع، وتذكر مكانها المنيع في حريم كسرى فتستكين مخاوفها نوعاً، ثم تقفز صورة الحبيب (ماهان) في ذهنها كالملاك فتطرد ذلك الشيطان فتهدأ وتطمئن.

لابد أنه الآن يبحث عني وسيجدني حتماً.. سينتشلني من هذا الكابوس، ويسترد لي عرش أحلامنا الوردية!

تذكرت حين حدّثها عن قصر كسرى، وكيف برع في صنعه حتى وصل إليه.. سرت في أوصالها نشوة وهي تتخيّل نساءً شهيراً اكتسب عند كسرى الخطوة والمكانة، وربما صار في بلاطه وزيراً، يرضى عنه فيحقق حلمها فيزوّجها ويهبّ لهما قصرًا جميلًا يعيشون فيه.. ولم لا؟!

تذكرت عهدًا كان بينهما، كان ينقش حرفي اسميهما على بطائن قطع النسيج والبسط التي يصنعها بيده.. دخلت مخدع الملكة ترتبه وتنظفه كدأبها.. تتبعت الفرش، والمنسوجات الثمينة حتى عثرت على بغيتها في مفرش صغير مطرّز آية في الجمال.. تعرّفت على روحه العاشقة مع كل خيط نسجته يده.. فرحت أيّما فرح.. شعرت بالأمل في اللقاء يدنو، والفرج يقترب.. ضمّته إلى صدرها.. تشمّمته، احتضنت أنفاسه فيه، وقبلته.. ثم دسّته في ثيابها، وأخفته.

انطلقت (جومان) إلى إحدى صديقاتها لتقاسمها فرحتها، وربما وجدت عندها المشورة.. أقبلت عليها في لهفة، وانفردت بها في ركن بعيداً عن

الحريم.. وفي نشوة فرحتها لم تلحظ هي ورفيقتها الأذن المرفهة التي كانت تسترق السمع إلى حديثهما، والعينين المتلصصتين اللتين كانتا تتابعانها.. كان كل شيء في الحريم مُراقبًا، وقد لفتا الأنظار إليهما بانفرادهما سويًا لسرّ بينهما! انقضّت عليهما صاحبة الحواس المترصدة انقضاض العقاب على فريسته.. كان مجرد النطق باسم رجل في حريم كسرى جريمة تستوجب القتل، ناهيك عن جريمة أخرى أركانها ثابتة عليها، فقد كان المفروش الثمين في حوزتها! اقتادت الجارية (جومان) عبر دهاليز القصر إلى حجرة نائية لتنفرد بها، بعد أن صرفت صديقتها وأمرتها بالصمت، وإلا أشركتها معها في العقاب. أحسّت (جومان) من صرامة التحقيق، وما ثبت عليها من الإدانة، أنها النهاية! لم تكن المحقّقة سوى عين (شيرين) التي دسّتها وصيفتها بالقصر وقد أمسكت بصيد ثمين.. وتحت التهديد بالعقاب أمرتها الجارية أن تفتش في المخدع الملكي عن خطاب منّ تقابله الملكة سرًا، فلم يكن أمامها مهرب، أو مفر..

عاشت (جومان) أيامًا في صراع نفسيّ، وقد ازدادت عليها الضغوط، والتهديدات في كل وقت، وأينما ذهبّت.. لكنها قاومت، ورفضت، فقرّرت الجارية أن تتخلّص منها بعد أن عرفت مخططاتها، وأصبحت تمثّل خطرًا عليها..

وذات مساء دخلت عليها هي وقهرمانة القصر فاستخرجا من متاعها مفروش الملكة، واقتاداهما إلى الحبس في حجرة منفردة وتركوها تنتظر العقاب!

أسرعت صديقة (جومان) إلى الملكة فالتقت بها بعد جهدها، فأخبرتها بأمر (جومان) والجارية، وعلى الفور أرسلت الملكة إلى (جومان) فمُثلت بين يديها، وأخبرتها بالمؤامرة التي تُدبر لها، وأنها رفضت سرقة الرسالة من مخدعها رغم ضغوط الجارية عليها.. واعتذرت عما بدر منها من خطأ، وبررت السبب، وحكت لها حكايتها.. قبلت الملكة عذرهما، وشكرت لها صنيعةها، ووعدتها أن تساعدتها في الخلاص من مصيرها، فهي لم ترضَ يوماً عن بقاء هؤلاء الجوارى في حريم كسرى بمثل هذا العدد، ناهيك عمّن انترعت حريتها وسيقت إلى مصيرها بغير إرادتها..

أمرتها (ماريا) بتكثّم الأمر حتى يُفتضح من وراء الجارية الخائنة، وبقيّة الجواسيس في القصر، فتعجّبت (جومان)، وتعجّبت أكثر حين سلّمتها الملكة الرسالة، وأمرتها أن تعطيها الجارية تمامًا مثلما طلبت لتكسب ثقتها، وتطمئن إليها!



أسرعت الجارية بالبشرى إلى وصيفة (شيرين)، وانطلقا بالرسالة إليها، وكانت فرحة (شيرين) بها لا تُوصف، فلقد واتها الفرصة أخيراً لتتخلص من غريماتها ليخلو لها وجه كسرى.. ستتقمّ من دبّرت لقتلها وكانت سبباً في قتل رجلٍ أحبّها!

أجزلت (شيرين) لهما العطاء وصرفتها..

تعرفت في تلك الرسالة موعد لقاء الملكة مع شخص مجهول في موضع
قرب القصر.. انتظرت قدوم كسرى بصبرٍ نافذ.. كانت تمنّي نفسها بلحظاتٍ
تتشقّى فيها من ضررتها..

وأخيراً ظهر كسرى أمام عينيها.. لم تمهله حتى فضحتها، ووضعت دليل
خيانتها نصب عينيه.

علم كسرى أن الأمر ليس كيد امرأة، أو رد كيد.. إنه للدليل لا يقبل
الشك!.. وكان ردُّ فعل كسرى عنيفاً.. ثارت ثائرتة.. هاج، وماج.. تفجّرت
على لسانه أفظع كلمات التهديد والوعيد..

هدأت من ثورته.. أوصته أن ينتظر حتى يقع الصيد في الشراك.. وإن غداً
لناظره لقريب!

باتت (جومان) تترقّب في حالة من القلق ذلك الهدوء الذي يسبق
العاصفة.. لم تدرك ماذا ستُسفر عنه الأحداث في الغد بين ملكتين في صراع
العمالقة؟!.. لا بد أن يكون لـ(ماريا) تدبيرٌ محكم، وكيدٌ يغلب على كيد
ضررتها، وإلا كيف باتت ترصد الغد بعيني المترقب المتشوق لا الخائف
المكروب، ثم نامت ليلتها قريرة العين.. عادت (جومان) لتلتفت عن الأمر
فما هي إلا جارية لا تملك شيئاً من أمرها، وليس لها في الأمر تدبير أو حيلة..
وليس لها ذنب جنته حتى يُزج بها في أمر كهذا.. ودارت التساؤلات برأسها
فأعجزتها عن التفكير، فأسلمت أمرها لخالفها..

انطلقت (ماريا) وحدها وقد أسدلت خماراً تخفي به وجهها كي لا يتعرّف عليها أحدٌ حتى وصلت إلى مكانٍ ناءٍ قرب حديقة القصر.. كانت تعرف أن هناك مَنْ يترصّدها، وربما كان كسرى نفسه، وصدق حدسها فكان كسرى وراءها بنفسه، وقد أصرّت (شيرين) على الخروج معه لتسفي غليلها من ضررتها.

وإن هي إلا لحظات حتى أقبل عليها شابٌ يتلّفت، فأقبلت عليه في لهفة، وتعانقا عناق الاشتياق!!

لم يستطع كسرى أن يضبط انفعاله فخرج عليهما من مكمنه فجأةً يسبق حرصه، واستلّ سيفه وهَمَّ بهما، لكنها استوقفته بكلماتٍ فثاب إلى رشده بعد أن ألجمته المفاجأة!

عرّف الشاب نفسه، وعرفته (ماريا) إلى كسرى.. كان أخاها الأمير ووليَّ عهد أبيها ملك الروم فرّ محتمياً بكسرى بعد أن انقلبوا على أبيه!

انقلبت سحنة (شيرين) وارتسمت على وجهها أمارات الإحباط واليأس، وألجمتها الدهشة كما ألجمت الجميع..

قطعت توسلات (ماريا) الصمت المخيم على الجميع.. تستعطف كسرى وتذكره بجميل أبيهما عليه حين كان في نفس حال أخيها منذ بضع عشرة سنة..

لم يُعقّب كسرى على قولها، ودعا الجميع إلى قاعة الاجتماعات بالقصر لمناقشة الأمر..

استأذنت (شيرين) في الانصراف إلى قصرها بعد أن اطمأنت إلى عيونها بالقصر.. سيأتونها بعد قليل بالخبر اليقين..

أما (شيرين) فكانت على نارها يقتلها الفضول، تتشوّق لتعرف ماذا جرى في القصر؟! كانت حانقةً على تلك المرأة التي ينقلب الأمر في النهاية لصالحها دائماً!!

كيف تكون دائماً هي المنتصرة؟! فأئي خبثٍ تنطوي عليه هذه المرأة، وأيُّ حظٍّ هذا؟!.. لقد انقلب كل شيء فجأة.. وسيقوى نفوذها لديه، وتضعف مكانتي عنده.. لكنه يحبُّني ويعلم أنني ما أفعل ذلك إلا بدافع حبِّي له!

ماذا لو سارت الأمور كما رسمتُ؟! لكنك الآن استرحتُ منها، وخلا لي كسرى وحدي!!

هكذا دار حديث نفسها المضطربة..

التقطت من أحداث يومها خيطاً وصلته بخيوط نسجتها ذاكرتها لما جرى لكسرى منذ بضع عشرة سنة فتشابكت تلك الخيوط وتعقّدت، ولم تخرج منها بشيء، بل زادت حيرتها!!

جاءتها جاريتها بما اجتهدت في جمعه من أخبار، فأمرتها بتغليق الأبواب خلفها لتنفرد بها وتفرغ ما بجعبتها، وبدأت في نظم كلماتها بعد أن زال اللهاث عن أنفاسها شيئاً فشيئاً:

مولاتي الملكة.. مولاتي الملكة.. أبشري يا مولاتي!.. قامت ثورة في بلاد الروم فخلعوا ملكهم والد غريمك (ماريا) ذلك الذي كانت تتقوى به

وتتعالى عليكِ وعلينا وقتلوه، وجاءوا بآخر مكانه، وأباد الملك الجديد جميعَ ذريته عدا هذا الشاب الذي هرب محتمياً بكسرى..^١

برقت عينا (شيرين) ببريق التشفي، وصاحت في نشوة النصر:

أخيراً يا (ماريا) تمرَّغْ أنفك في التراب، وانتهى عصركِ بغير رجعة.. لقد أفلتني من جريمة لتقعي في مصيبة!!.. لقد مللنا وملَّ كسرى من كثرة تباهيها علينا، لا بد أن كسرى سينتصر لكرامته منها ومن أخيها.. سيذله ويضعه في السجن، أو يقتله لينتهي أمرها وأمره للأبد!

قالت الجارية:

مولاتي.. لكن...

قاطعتها (شيرين) في غضب:

لكن ماذا؟! أكملِي! ماذا فعل كسرى حياله؟! تكلمِي!.. ألم يأمر بقتله؟!!

أم اكتفى بسجنه؟!!

قالت الجارية:

لا يا مولاتي.. لا هو أمر بقتله، ولا حتى بسجنه.. لقد أكرمه، وأنزله بإحدى أجنحة القصر، بل قال أنه سيساعده على استعادة عرشه!

(١) في العام الرابع عشر من ملك كسرى (أبرويز) قام الروم على ملكهم (موريقوس) فخلعوه، ونصبوا مكانه بطريقاً اسمه (فوقاس)، فأباد ذرية (موريقوس) كلها عدا ابناً له هرب إلى كسرى، فأمدّه بجيش، وغزا أرضه.

صرخت (شيرين):

تبّاً لتلك المرأة!.. كيف لي أن أتخلص منها؟! وعلا صوتها بكلمات تفيض
حنقاً وغيظاً:

لكن يا (ماريا) الجولاتُ قادمة، وسأقضي عليكِ حتماً!

قالت الجارية:

حقاً يا مولاتي.. لقد أصبح حسابها ثقيلاً معنا.. وسينتهي أمرها حتماً..
سينتهي أمرها..

استأذنت الجارية في الانصراف، فغادرت مخدع الملكة وهي تخاطب نفسها
وقد تضخّمت مخاوفها...

ماذا لو أخبرت (جومان) ملكتها (ماريا) بما أمرتها به؟! ماذا لو علمت
(ماريا) بخيانتها لها، واندسّاسي عليها؟! ستقطع رقبتني حتماً.. ماذا سأفعل
لأنجو من هذه الورطة؟!

لا بد أن أقضي على (جومان) تلك الجارية التي صارت هي الشاهد الوحيد
على تدويري.. بل لا بد أن أقضي على (ماريا) نفسها لتصبح (شيرين) هي
الملكة الحاكمة بأمرها، وربما جعلتني وصيفتها.. فكم خدمتها، وأخلصت
لها!

سأضرب عصفورين بحجر واحد.. سأتخلص من الجارية وملكتها بضربة واحدة، لكن هذه المرة ليس بيدي!.. يجب أن تقوم الملكة (شيرين) بذلك! لا بد أن يكون لها تدبير.. ألا تريد أن تكون هي الملكة وحدها؟!.. لا بد أن ترد على (ماريا) بقوة وحسم.. ليس المهم أن يكون ذلك بيديها، ولكن تكفي مباركتها وموافقتها!

سأعود إليها فأثير مخاوفها من افتضاح أمرها.. سأمضي في خطتي للخلاص من الجارية وملكتها بعد أن تعطيني الأذن ولو تلميحا.. وهذا هو الذكاء.. سأكون الأداة التي تنفذ أفكارها دون أن تأمرني بلسانها! وترددت مع أنفاسها ضحكة شيطانية..

انطلقت الجارية لتنفيذ خطتها عادت إلى (شيرين) فحرّكت نوازح الحقد الدفين في نفسها ورغبتها في الانتقام..

أمرتها (شيرين) دون أن تُفصح بلسانها... أمرها الحقد، والغُل، والرغبة في الانتقام.. تلك النزعات التي صارت تشتعل في صدرها اشتعالاً!.. اكتفت الجارية أن تكون أداة لتحقيق رغبتها.. كم هو شرير ذلك الإنسان! إذا تجسدت كل أحقاده وكراهيته لصارت أداة للقتل! لذا لا يحاسب الله الإنسان إلا على ما كسبت يده.. والشرير من يطيع شيطانه، ويتمادى بلا حدود في شره، والخير يجد من ضميره وازعاً للكف عن الأذى..

انطلقت الجارية كالحية المندسة وسط القصر .. اعترضت طريق (جومان) كالشيطانة .. قدّمت لها السمّ، وأمرتها أن تدسّه للملكة في الشراب!

صمتت (جومان) من هول المفاجأة ..

وصمتت الجارية تنتظر ردّها ..

تُقلّب أفكارها:

لا بد أنها ستوافق .. سينتهي أمر الملكة التي باتت تهدّد سيديّ، وستورّط (جومان) أكثر وأكثر إلى أن تؤخّذ بجريرتها!

فاجأتها (جومان) بالرفض .. كانت (جومان) على استعداد أن تُقتل ولا تفعل ما تأمرها به تلك الملعونة .. توعّدت الجارية بالعقاب .. ثم تركتها وانصرفت.

أسرعت الجارية إلى تنفيذ مخططها بيديها للخلاص من الملكة .. فإن خلصت منها توخّدت الزعامة لملكها (شيرين) فتُنسى المؤامرة وضحاياها، وتُقابل بجزيل العطاء من سيدتها التي ضحّت بنفسها في سبيل نصرتها .. قدّمت الجارية للملكة السمّ في الشراب، وتدخّلت (جومان) في الوقت المناسب وأنقذت الملكة، وافتضح أمر الجارية ..

هُرِعت الجارية إلى (شيرين) لتُنقذها من مصيرها.

تفاجأت (شيرين) بالأمر، فتنبّصت من فعلتها، وأغلظت لها القول على حماقتها وسوء تدبيرها، بل وسلّمها إلى القصر، فأخذت بصنيعها ولقت جزاء الخائن الأثيم.

أسرعت (جومان) تلبي دعوة الملكة (ماريا).. انطلقت في إثر وصيفة الملكة التي شرحت للملكة دورها في كشف المؤامرة اجتازت البهو الطويل الذي يقطع حجرات الحريم إلى الجناح الملكي.
استقبلتها الملكة خير استقبال.. تذكّرتها، والتقطت ذاكرتها خيط قصتها.. أشارت على الفور إلى إحدى الوصيفات، فأسرعت إليها، ثم التفت إلى (جومان) قائلة:

أخبرتني من قبل عن اسم صاحبكِ النَّسَّاج.. اسمه...
بادرت (جومان):

(ماهان).. (ماهان) يا جلالة الملكة.

التفتت الملكة إلى وصيفتها قائلة:

هل سمعت عن نسَّاج بهذا الاسم.. كان من جملة الصَّنَّاع بالقصر..
أجابتها الوصيفة:

لا أذكر يا جلالة الملكة، لكن يمكننا أن نستعلم عنه عند صاحب ديوان القصر الملكي، أو لدى الكاتب الذي يدوّن أسماء العمال وعطاياهم!..
ويمكننا أن نسأل شيخ النَّسَّاجين عنه.. امنحيني ساعة وأنا آتي لك بخبره!
بسّطت الملكة (ماريا) بساط الأنس لجارتها (جومان) فاستمعت إليها..
حدّثتها عن حبيبها.. نشأتها معاً.. حبّها.. خطبتها.. استعدادها للزواج..
الحياة الهائلة التي جمعت بينهما حتى تعقّدت الأمور وظهر (نرسي) القائد الغشوم فأفسد حياتها، واختطفها لتباع جارية وهي الحرة الكريمة!!

لم تكن الملكة تعرف لا هذا ولا ذاك، لكنها أَمَّتْها على نفسها، ووعدتها أن تساعد.. ستطلب من كسرى أن يهبها بعض الجواري من حريمه، سواءً بسواءٍ كزوجته الجديدة (شيرين) التي لم تتوقف يوماً عن استقدام الجواري إلى قصرها.. حينئذٍ ستخرج من جملة حريم كسرى فتعتقها، وتركها تنزوّج بمنّ تشاء.

قطعت دقائق مهذبةً بباب المخدع الملكي ذلك الحوار، لتدخل الوصيفة التي أرسلتها الملكة لتستطلع أمر (ماهان).. أقبلت (جومان) عليها بجميع حواسها، وهي تقول:

مولاتي.. هذا الشاب (ماهان) كان من بين الذين اختارهم شيخ النسّاجين لصنع البُسْط، والطنافس، والفُرْش المطرّزة المفروشة بالقصر، وقد انتهى عملهم في القصر منذ شهورٍ.

واصلت الوصيفة كلامها:

وعندما ذهبْتُ إلى شيخ النسّاجين سألتُه عنه فأخبرني أنه اختاره من جديد في جملة النسّاجين المهرة لإنجاز مهام صنّعه في قصر (شيرين) الجديد فيما بعد.. وعندما سألتُه عن عنوانه لم يجبني بشيءٍ، فقد كان الشاب غريباً، وليس له مقرٌّ دائمٌ يسكنه.

قالت (جومان):

مولاتي الملكة.. لا أجد من الكلمات ما أستطيع به أن أعبر عن امتناني لك، لكن أسمحين لي بطلبٍ أخير؟!

اطلبي ما شئت يا (جومان)!

قالت (جومان) بأدب:

قُلْتُ يا مولاتي أن (شيرين) تطلب عددًا من الجواري.. أسمحين لي
أن أنتقل إلى قصرها في جملة من تطلب من الجواري، فربما ألتقي بـ(ماهان)
هناك؟!

قالت الملكة:

لكُنِّي أخشى عليك أن يصيبك شرها، فربما كانت تعلم أنك من أفسد
مؤامرتها للتخلص مني؟!

أجابت (جومان) بحيائها المحمّل بجبالٍ من الهموم:

لا يهم أيُّ شيءٍ يا مولاتي، فأنا على استعداد أن أضحي بحياتي لألتقي
به، أطمئنُه عليَّ وأطمئنُ عليه.. فلم يعد له بعدي أحد، ولم يعد لي بعده أحد.
أشارت (ماريا) إلى وصيفتها لتنفذ لـ(جومان) رغبتها..
ودَّعتها (جومان) ممتنة، واستأذنت في الانصراف لتتطلق في طريقها الذي
رسمه الله لها..





الفصل العاشر

عقد كسرى مجلس الحرب كما عقد من قبل ديوانه، وفي كليهما كانت مشاركة رجاله شكليّة، والحاضرون بين مؤيدٍ مُصَفِّقٍ، أو مُعَارِضٍ صامت، فالأمر أمر كسرى العظيم والمشورة مشورته!.. وحين يغيب صاحب الرأي الأمين تقودك خطواتك ولا بد إلى حتفك.. وباليته يلقي حتفه وحده، إذن لتخلص الناس من شرّه، ولكنهم الرعية الذين يتعلّقون برقبتة!

لم يعرف كثيرٌ من الحاضرين على سبيل اليقين سبب استدعائهم وإن لم يكن قد خفي عليهم حال الروم، وفرار ابن الإمبراطور الذي تربطه بملكهم صلة المصاهرة.. تراحمتم في عقول الحاضرين الأسئلة...

هل سيدفع كسرى بجيشه لينتصر للفارّ إليه المستغيث به؟! وهل مثل كسرى ينجز وعداً؟! وهل يعرف مثل كسرى ردّ الجميل؟!.. سيدفع بجنوده كما دفع بهم من قبل في آتون حربٍ مُستعرةٍ ببلادٍ بعيدة ليحقق نصراً على أشلائهم!.. وأيّ نصرٍ يُرتجى في أن يستعيد لعدوّه عرشه كما فعل ملك الروم من قبل فلم يجن غير حسرة وندامة؟!.. ربما ظنّ كسرى أنه سيسطر فصلاً من النصر في صراعه الطويل مع الروم؟!.. وربما ظنّ بغروره أنه سيطوي بلادهم في طيّات جيّبه؟!

لم يستطع أحدٌ منهما ادّعى من فِراسةٍ أن يتنبأَ بها سيفعل كسرى، ربما لأن كسرى نفسه لم يستقر على رأيٍ بعد، حتى وإن اتخذ قرارًا فلابد أن يكون باعته إليه ولا شك مصلحته الشخصية ومجده، فهو لا يأبه لجندٍ يهلك، ولا لشعبٍ يفقد موارده!

وأخيرًا وصل كسرى إلى مجلس حربه في أبهة مجده، وسلطانه، وعظمته.. وتنفجر موجةٌ عارمةٌ من التصفيق، والهتاف.. عباراتٌ حماسيةٌ تتصاعد نبرتها فتشتعل لها جنبات الديوان الملكي..
نفديك بالأرواح، والدماء، والأبناء!
قدنا بحكمتك الإلهية من نصرٍ إلى نصر!

ثم انفرط عقد الاجتماع بعد موجةٍ جديدةٍ من التهليل والإطراء أعقبت قرار كسرى بإعلان الحرب على الروم، دون الخوض في أية تفاصيل مع واحدٍ من رجال مجلسه..

رجع كسرى إلى قصر (شيرين) يغلبه الشوق إليها، فقد أمضى أيامًا وليالٍ مشغولاً بضيفه وبما سيقرّره بشأن الحرب الوشيكة التي سيخوضها عن قريب.

استقبلته (شيرين) استقبالًا يليق بحبيهما.. عازمت أن تستخدم جميع أسلحة مفاتنها معه لعلها تشفي شبق تساؤلاتها، وتطفئ لهيب حيرتها.. وتسَلَّت إلى قلبه بحديثها الناعم المعسول:

مولاي وحبيبي .. لا تتركني ثانيةً!.. لقد أحرقتني الشوق إليك.. أنا لا
أتصور حياتي بعيداً عنك.. أنت ملكي، وزوجي، وأملي في الحياة..
ارتسمت ابتسامة رضاً بعرض وجهه وهو يسمع منها ما تطيب له نفسه..
لم يجد كسرى من الكلام ما يحيبها به فاكتفى بنظرة حانية، ثم ضمّها بعمقٍ
إلى صدره..

انترعت (شيرين) نفسها من حضنه بحركةٍ تمثيلية، وقالت في غضبٍ
مصطنع:

مولاي.. لن أتركك تحارب في بلادٍ بعيدةٍ من أجل هذه المرأة وأخيها..
إنّي أخاف عليك.. أسمعَت؟! أخاف عليك.. لن أتركك تذهب!
وارتمت في حضنه من جديد، وقد تشبّثت به أكثر، بينما علا صوتها
بالنشيح..

رقَّ قلبه إليها فطفق يمسح الدموع من عينيها، وأحاط خديها بكفيه،
وتحدّث إليها بكلماتٍ رقيقةٍ وهو يسرح في جمال عينيها:

لا تخافي عليّ يا حبيبي.. لن أتركك!.. ولن أسمح لغيرك أن تأخذني
منك.. فأنتِ روحي ونبض قلبي.. أنتِ وطني.. أنتِ حلمي، ومستقبلي..
لا تخافي!

بدأت (شيرين) بعد هذه المقدمة العاطفية، والاستهلال المؤثّر تنفذ
بمهارةٍ إلى ما ترمي إليه:

مولائي.. مالنا والروم، وابن ملك الروم؟!.. ألا يكفيننا ما فعله بنا ملك الروم وابنته؟!.. لقد ظنَّ أنه حكم بلادنا يوم أعانك على عدوك الخائن فتناول علينا هو وابنته، ثم يسعى إليك لتسترد له عرشه!.. لو كنت مكانك لقتلت ابنه، وتخلّصت من تلك العلاقة التي ما جرّت علينا إلا البلاء! أطلق كسرى ضحكةً مجلجلةً، وقال:

لا تخافي عليّ يا حبيتي!.. فكل شيء خاضع لحكمي، ورهن إرادتي.. أتقارنين هذا الشاب الأرعن وأباه الواهن الضعيف بأعظم ملوك ساسان، بل ملك الأرض كلّها؟!.. لن أسمح له أن يستعملني لغرضه، بل أنا الذي سوف أستعمله فيما أخطّط له منذ توليت العرش!.. سأغزو بلاده متحجّجاً باستعادة العرش له ورد الجميل، ثم أقضي عليه لأكون ملكاً على مشارق الأرض ومغاربها، وسيلغ ملكي الآفاق!

تمتتم (شيرين) في نفسها:

كم أتمنّى أن يأتي ذلك اليوم الذي نرتاح فيه من (ماريا) وقومها، وتذهب بغير رجعة..

وتعالت الفرحة في نبرات صوتها، وهي تصيح بفرحة طفل:

أنت أعظم ملوك فارس.. ستملك الدنيا كلّها.. وسيأتي هذا اليوم عن قريب.. عن قريب يا مولاي.. لكن يا مليكي لا تتركني بعد اليوم! واصلت (شيرين) حديثها، وقد ازدادت نبراتها نعمةً ورقّةً:

لكن يا مليكي لي عندك عتاب.. فقد أنسيته.. أنسيته البشري السارة التي يتشوّق إليها كل أب، وتتمنّوها كل أم!

تحرَّكتْ قسَمات وجهه بالتهليل والفرحة، وهي تشير إلى بطنها بأول مولودٍ له منها..

لم يتمالك كسرى نفسه من الفرح:

حقًّا.. حقًّا!

واندفع إليها ليحتضنها فرحًا، ثم تذكَّرَ حَمَلَهَا فأحاطها بذراعيه في رَقَّةٍ، وكأنَّها صُنِعَتْ من زجاجٍ هَشٍّ، وقال منتشيًّا من فرط سعادته:

لا.. لن أترككِ بعد اليوم.. لن أغادر القصر ولو لحربٍ.. سأرسل قوادي مع هذا المذعور الجبان، فأعيده إليهم حتى إذا دخل القصر ينادي المنادي بالملكِ لي.. أنا.. ملك الأرض (كسرى الثاني)!

لكن اسمحي لي للمرة الأخيرة أن أترككِ!.. سأجتمع في صباح الغد بمجلس الحرب لأختار مَنْ أثق فيهم من قوادي لينفذوا أوامري.

ابتسمتُ (شيرين) ابتسامة السعادة والرضا، وقد سوَّى لها كسرى فراشها بيده، ثم أضجعها برفق بالغ، ودَثَرها بغطائها المخملي اللَّين في عذوبةٍ، ليطبع على جبينها قُبْلَةً أودعها جميع معاني الرَقَّة والحنان.

جلس (فرخان) قائد جيوش المملكة في صدر المجلس، وقد اجتمع له قادة الجند، وبعض الوزراء، بينما ظلَّ كرسيُّ كسرى شاغراً في انتظار قدومه إيداناً بانعقاد مجلس الحرب.

صاح الحاجب بالباب بصوته الجمهوري الأَجَش ۞ وقد اشتدَّ جسده، وأدَّى التحية العسكرية بحماسٍ معلناً عن قدوم كسرى:
مولانا كسرى المعظم!

هَبَّ الجميع قياماً، واندفع كسرى داخلاً في جمع من حاشيته يتقدَّمهم على عَجَلٍ، وما إن وطأت قدماه القاعة الملكية حتى انحنى له جميع الموجودين.
تقدَّم (فرخان) على هيئة المنحني يدعو كسرى إلى كرسيِّه في صدر المجلس..

لم يُعِرْ كسرى الرجلَ ولا بطانته أدنى اهتمام حتى جلس، وما إن استوى على كرسيِّه حتى أشار إليهم باستعلاء، فجلسوا جميعاً.
أغرق الجميع في صمتٍ مُطَبِّقٍ حتى تكلم كسرى مباشرةً، وبغير مقدماتٍ قال:

لقد قرَّرنا، وعزمنا على غزو بلاد الروم.. فقد رأينا هوان حالهم، واختلافهم على ملوكهم لضعف شأنهم، فلا يحقُّ أن يكون على البسيطة ملكٌ غيري!.. أنا كسرى العظيم!.. أعظم ملوك الفرس، بل أعظم ملوك الدنيا!

انفجر المكان بموجة عارمة من التصفيق، والهتاف:

يحيا مولانا كسرى العظيم!

المجد لكسرى!

مولانا كسرى ملك الملوك!

أشار كسرى بيده فانقطع الهتاف، وحلَّ الصمت من جديد بالمكان..
تقدَّم (فرخان) من الملك بخطواتٍ محسوبةٍ فمثل بين يديه، وتكلَّم بثقةٍ
فقال:

مولاي.. مُرني بأمرِك!

قال كسرى:

اجلس أنت! سأستعين هذه المرة بأخيك.. سأرسله على رأس الجيش،
أما أنت فابقْ معي فربما أحتاج إليك؟!.. ونادى في الحاضرين:
(شهربراز)!.. أين (شهربراز)؟!

انتفض (شهربراز) واقفاً ليؤدي التحية العسكرية في صرامة المحاربين
الأشداء، وتقدَّم إليه، وانحنى بين يديه.

تحدَّث كسرى إليه، وقد كست وجهه ملامحٌ أكثرُ صرامةً:
لقد أمرناك على الجيش الرئيس المتجه إلى (القسطنطينية) عاصمة الروم،
ووضعنا تحت إمرتك قيادة جيشين آخرين..

ثم نادى من جديد:

أين (شاهين)؟! .. أين (بوران)؟!

هُرِعَ القائدان إليه، فأعلنا عن وجودهما في حضرته، وأدّيا التحية للملك باحترام.

قال كسرى:

أيُّها القائدان قد وضعناكما على رأس جيشين، أحدهما يتجه إلى مصر، والآخر يتجه إلى الشام.

وواصل كسرى حديثه إلى ثلاثتهم:

ستصحبون ابنَ الملك المهزوم.. أنزلوه بينكم مكانته! حتى إذا بلغتم أعتاب قصره، واطمأن فيه على نفسه، تكونون قد تواعدتم، فتجمعون الجيوش!.. وتنقضُّون عليه فتقتلونه، وتقتلون مَنْ معه!.. ثم تنادون بملكي حتى أسير إليكم، وأنتزع العرش منهم، وأبسط سلطاني على المشرق والمغرب.. سيروا بأمرنا، وبركتنا، وفضلنا!

صاح القائد الكبير، وردّد القادة وراءه:

المجدُ لكسرى العظيم..

المجدُ لكسرى العظيم..

المجدُ لكسرى العظيم..

وانصرف الرجال بعد أن تأهبوا للمسير من غدهم.. وانفضَّ الجمع.

جلست (ماريا) في قصرها كاسفة البال مهمومة لا تزال تداعب خيلتها صورة أخيها الذي ودَّعها منذ ساعات.. تردَّدت في ذهنها ذكرى حوارهما الذي غلَّفته ببثِّ الطمأنينة في نفسه، بعد أن سَيرَ كسرى معه الجيوش لاستعادة عرشه.. لم يساور (ماريا) ثمةُ شكٍّ في صدق وعود كسرى، فلم يزل أبوها حليفه حتى لقي حتفه وحلَّ أخوها مكانه، لكنها لم تستطع أن تخفي مخاوفها فبدت متوتِّرةً قلقاً!

لم تستطع وصيفاتها ولا جوارياها أن يخلعن عنها أثواب همومها، رغم أن الأمور بدت واضحةً تسيرُ في صالحها.

استأذنت (جومان) على الملكة بعد أن ألحَّت مرارًا على وصيفتها الأولى، وأثقلت بطلبها عليها.. كانت الملكة مشغولةً كما يرى الجميع، لكن أمام إصرارها المستعطف أبلغت رغبته للملكة.

استقبلت الملكة الأمر بترحاب لم تتوقعه وصيفتها!.. ربما التمسَّت الملكة في رحمتهما هذه المسكينة رحمةً ربِّها ونصرته؟!.. وعلى الفور أمرت بها فأدخلت عليها، فهشَّت لها، وأحسنَّت استقبالها.

ذكرتها (جومان) بوعداها في دخول قصر (شيرين) في جملة الجواري اللاتي تطلبتهن..

أعربت الملكة عن عدم ممانعتها في ذلك، لكن الوصيصة أخبرتها أن الملك مشغولٌ بأمر الحرب، ولن يجلب صُنَاعًا إلى قصر زوجته (شيرين) حتى ينجلي الأمر ويستقر، حتى أن (شيرين) نفسها لم تُعدَّ طلبها للجواري بعد.

أوصتها الملكة بالصبر ولتنتظر حتى تنكشف المحنة، ويستقر الأمر!..
أحسَّت الملكة بانكسار خاطر (جومان) وهي تودَّعها منصرفة من حيث
أتت إلى حريم كسرى، فواستها قائلة:

(جومان)! اصبري بعض الشيء! أنا أعرف أن مكانك ليس في الحريم
من القصر، لكن عليك بالانتظار قليلاً حتى يأتي كسرى، وسأكلّمه في أن
يهبك لي من بين حريمه لتكوني من جملة وصيفاتي.. ولسوف أحرّرك من
الرق، وأزوِّجك مَنْ تحبين!

لكن عليك الآن أن تتذرّعي بالصبر!.. ولا تُسرّي إلى أحد بذلك!.. فلو
بلغ كسرى أمراً كهذا لما أعتقك من حريمه أبداً، ولقتلك لا محالة!

انطلق جيش كسرى تحت قيادة (شهربراز) حتى وطئ الشام، والتقى
بجيش الروم بـ(أذرعات) فهزمهم هزيمةً منكراً.. ونزل (بوران) بيت
المقدس فاستباحه واستولى على صليب الصلبوت^١ وأرسله إلى كسرى،
ونزل (شاهين) مصر فتوغّل بها حتى دخل عاصمتها (الإسكندرية) وأرسل
بمفتاحها إليه.. وتحرك الجيش المظفر إلى (القسطنطينية) عاصمة إمبراطورية
الروم فحاصرها، وطالب قائد الجيش الغازي لابن (موريقيوس) بعرض
أبيه، فأبى الروم، ولم يرضوا به، فأمر بضرب الحصار حولها.

(١) الخشبة التي يزعم النصارى أن المسيح عيسى عليه السلام صُلبَ عليها.

حملت الرياح الطيبة بشرى النصر إلى بلاد الفرس فانتشى كسرى فرحاً، وانتفخ كبراً وبطراً.. لقد أصبح على بعد خطوات قليلة من تحقيق حلمه بحكم المشرق والمغرب.. ونادى المنادي بالانتصارات المبهرة في سائر أرجاء المملكة.. في (قرمسين)، وفي (طيسفون)¹..

الفرحة في الموضوعين تشوبها المخاوف والقلق..

(شيرين) تستبشر بنقض ذلك التحالف، حيث ذهب إمبراطور الروم بغير رجعة، ورفض الروم مبايعة ابنه، واستحضر القتل في صفوف الروم، ورفرت رايات النصر عاليًا فوق راياتهم، وكُتبتْ ضرثها وأُخزيت..

أمّا (ماريا) فكانت مجبرة على إظهار الفرح بنصر الزوج، في حين كان نياط قلبها يتمزق حزناً على الأب وذهاب ملكه، وقلقاً على الأخ المُشرد..

كانت (ماريا) تخشى غدره كسرى، وفجّرت.. وبالفعل لم يطل بها المقام حتى صدق فيه ظنّها، وقد انتهت مهمتها لديه، وأصبحت بالنسبة له بلا قيمة، فأنزلها كسرى في قصر مُنْعَزِلٍ، وأحلّ مكانها بعاصمته ومقر حكمه زوجته الحبيبة الأثيرة (شيرين) التي تسيدت قصره كما تسيدت قلبه، وامتلكت فؤاده.. وأصبحت الجواري والحريم في قصرها، وتحت تصرفها.

خرجت (ماريا) في نفر قليل من جواريها وحرسها في ظلمة الليل إلى قصر ناءٍ، وفُرِضَتْ عليها العزلة ما بقي من حياتها.

(١) طيسفون: الاسم الفارسي لعاصمة الفرس التي عرفها العرب بـ(المدائن).

وأبى الوفاء على (جومان) أن تدعها، وقد أحسنت إليها، ووجدت في رحابها الرحمة والعطف، لكن هذا لم يعد حقاً لكليهما، فالملكة المغضوب عليها أُبقيَ معها على قليل من الوصيفات، و(جومان) لم تزل واحدةً من الحريم، مكانها القصر، وأمرها ليس بيدها!

ووضعت الزينات في القصر تستقبل الملكة (شيرين) سيدة المملكة الأولى لتحقق انتصارها الحاسم في صراع الضرتين الذي اشتعل سنواتٍ، واستعدت (جومان) حياةً جديدةً لا تدري ما سينالها فيها؟!



الفصل الحادي عشر

لم يكن (نرسي) يستهين بعمله اليوم في الحرس الخاص بكسرى مع ما يلقاه من تعليمات وأوامر، فقد كان يعيش أهميته بالمنصب الذي يشغله وليس بحجم دوره في هذا العمل، فهو وإن كان واحداً من كثير مثله، إلا أنه من حرس كسرى الذي يتميز في العدد والعتاد عن جيش المملكة بأكمله.. وما يضيره أن يكون مرؤوساً اليوم، وقد ظلّ طويلاً في خدمة (جaban) ذلك الدهقان المتعطر!

رفّت على شفّتي (نرسي) بسمّةٍ ساخرة وهو يتذكّر أستاذه القديم الدهقان، وقال في نفسه:

دهقان!!.. وما قيمة الدهقان إلى ما صرت أنا إليه؟!

كان (نرسي) يعلم هدفه جيداً، ويخطّط له.. لا يأبه إلى تنازل ينال من كرامته، ولا يقيم وزناً لمبادئ يدوسها بقدميه في سبيل تحقيق بغيته.. لا بد وأن يصل سريعاً إلى المكانة التي يطمح إليها ليقتنص في الوقت المناسب صيده بعد أن أودعه القفص، وليصنّف حساباتٍ قديمة مع الدهقان وغيره، وليحقق أهدافاً في جني السلطة والمال كم حلم بها وعجز عن تحقيقها بالصورة التي رسمها في خياله في ظلّ دهقانٍ حقير، أو مرزبانٍ تافه!!.. فما قيمتهما في مُلك كسرى العظيم؟!

كان بخبرته في الحياة يجيد التسلُّق لتحقيق أهدافه! ويعلم من أين تُؤكل الكتف!.. تطلَّع بطموحه إلى أعلى فاصطدم بسماء كسرى فسقط على جذر رقبته.. أدرك أن الوصول إليه أبعد بكثير من طموحاته، وطموحات آبائه وأجداده.. انتقل بطموحه إلى سماء أخفض بكثير، إنه قائد الجيش (فرخان) الذي يستطيع عن طريق استرضائه والانصياع له أن يصل إلى مكانة تليق بطموحه.

كان إسناد قيادة الجيوش إلى (شهرباز) قد زرع في نفس أخيه حيرة!.. فلم يكن يستطيع أقدر الناس على الفراسة أن يقرأ ما يدور برأس كسرى، فتدبيره لا يُغلب، وحيله لا تنقطع!.. ربما استصغر شأنه فأرسل أخاه على رأس الجيش مكانه ليحظى بالانتصارات، والرفعة دونه؟! وربما استعظم شأنه فأبقاه إلى جواره وضمَّ به على معركةٍ قد لا تكون محسوبة النتائج؟!.. لم يستطع (فرخان) أن ينسب بنت شفةٍ في مجلس كسرى.. تذكر ذلك وهو جالس في قصره فاستولت عليه همومه.. لام نفسه.. لم لم يُبدِ اعتراضاً على قراره؟! ثم هَوَّن على نفسه، فلم يكن في مقدوره أن يعارضه، فمن ذا الذي يجرؤ على ذلك؟!

لم تُفلح محاولات الزوجة الجديدة الصَّبيَّة في التسرية عنه فتركها، ونام عنها مشغولاً بما جدَّ عليه من أمر أخيه الذي سحب البساط من تحت قدميه.. استيقظ (فرخان) فجأةً من نومه ذاهلاً، فتلقَّته زوجته بتساؤلها النِّهَمَة: خيراً!.. لا بد أنه كان حلمًا مزعجاً!

قطع لهاته المتسارع بصرخةٍ ملتاعة نادى بها الجواري ليسعفنه بكأسٍ من الماء..

أقبلت إحدى جواري القصر تصحبها لعنات الزوجة جراء تأخرها في الاستجابة للنداء.. انتشلت الزوجة من يدها الكأس، وصرفتها في غلظة.. ناولته الكأس، فالتقطه بيدين مرتعشتين، وارتشفه بعصبيه..

انتبه حرس القصر لصراخ قائد الجيش، وظنُّوا أنَّ مكروهاً أصابه، لكن كبيرهم طمأنهم إلى أمن المكان.. أنه كان مجرد حلم!!

كرَّرت الزوجة بفضولها الأنثوي السؤال، لم تكن هي وحدها التي تريد أن تعرف، فقد كانت هناك آذانٌ تسترق السمع!.. غاص (فرخان) في جُبِّ ذاكرته يستجمع ما رآه في نومه منذ لحظات، وقال:

رؤيا عجيبة!.. رأيتُ.. رأيتُ أني جالسٌ على عرش كسرى!!

قالت الزوجة مُهللة:

لعلك تنزع الملك منه!!

قاطعها الرجل في عجلة:

ماذا دهاك؟!.. أجننتِ يا امرأة؟! اخفضي صوتك! ألا تعلمين أن الجدران لها آذانٌ؟!!

عقبت الزوجة بما اعتادت عليه من جدل:

إننا في مخدعنا!!.. وجميع من بالقصر ما بين حرسٍ لنا، وبين جوارٍ نملكهن!

قال (فرخان) بصوتٍ مرتجفٍ، يتوارى خوفاً:
ولو!.. إنَّكَ لا تعرفينَ مَكْرَه!.. ربما كانت له عيونٌ مندسَّة بالقصر تحبره
بما يعدونه علينا من أنفاس؟!!

ولم يَجِبْ حدسه، فكم من عينٍ لكسرى ولغيره مدسوسةً عليه!
وما كان هذا المشهد ليغيب عن (نرسي) الذي لم يكن ببعيد عن قصر قائد
الجيش بحكم عمله في الحرس الخاص للملِك، ولم يكن من الصعب عليه
أن يستفسر عن الأمر من الجوّاري والعبيد بعد أن سمع بعض تفاصيل ذلك
الحلم!

والحلم لا يعدو في البداية والنهاية عن كونه حلماً لكن ما تخفيه النفس
البشريَّة هو الذي تنطق به الأحلام!.. علم أن الرجل مثله طامعٌ طامح، مع
التفاوت بينهما في مستوى الحلم، والطموح!

وجدها فرصته ليلعب على الحبلين.. فما من بهلوان أبرع منه!!
ستكون لديه مهمةٌ عند (فرخان)، ومهمةٌ أخرى عند (كسرى).. سييذل
قُصَّارى جهده ليحقِّق أكبر استفادةٍ منهما.

لم يَعَجَل (نرسي) بالأمر إلى (كسرى).. فكيف سيصل إليه؟! وماذا
سيقدم بين يديه؟! وماذا لو سبقه بالخبر إليه عينٌ له هناك؟! وعيونُ كسرى
في كل مكان كثيرة.. ثم ما معنى أن ينقل إليه مجرد حلم؟!.. لا بد أن يتعدَّى
الأمر عالم الأحلام! وعندئذٍ ستحرِّكه بواعث إخلاصه لكسرى فيكشف
الطامع الخائن، وينال لدى كسرى الخطوة!!

لذا كانت وجهته الأولى إلى (فرخان) ..

لم يكن مثل (نرسي) وقد مرت عليه سنوات في الحرس الملكي، وهو صاحب الطموح والحيل ليظلّ حبيس منصبه طويلاً، فقد أخذ يترقّى حتى صار قريباً من هدفه!

انتهاز فرصة وجود قائد الجيش في فسطاطه ساهراً، فاتصل بكبير حرسه، ورجاه أن يحظى بشرف الخدمة والحراسة، وأغراه ببريق الذهب.. وما يضير قائد الحرس؟! فهذا الجندي ليس غريباً عليه! كان من جملة الحرس الملكي منذ سنوات، وانتمأؤه، ووفاءؤه ليسا محل ريبة!

وقف (نرسي) بباب قائد الجيش كالصياد يتربص بأدنى فرصة كي يقتنصها.. مرت ساعات وهو على حاله تلك، حتى نادى قائد الجيش:

يا حرس!

تقدّم (نرسي) على الفور من القائد الكبير في مشيته العسكرية المنضبطة حتى مثُل بين يديه فحيّاه بصرامة، وانتظر أوامره.. سأله القائد عن أمرٍ بسيطٍ، فأجابه (نرسي) بعد أن أغدق عليه المديح والإطراء.. لفت انتباهه إليه بذكائه ونفاذه إلى خبايا أفكاره.. غازله أكثر بكلمات المديح:

إنّه لشرفٌ لي أن أكون في خدمة السيد العظيم قائد جيوش الإمبراطورية الفارسية المنتصرة..

عرّف نفسه بمكانته في الحرس الملكي لكسرى، وانساق أكثر وأكثر في المديح:

إِنَّكَ يا مولاي تستحق أكثر من منصب قائد جيش.. لابد أن مولانا كسرى أرسل بأخيكم (شهربراز) لأنه يرى أن وجودكم في المملكة أهم وأنفع.

أعجبته كلماته، فقال:

أنت ترى من موقعك في الحرس الملكي أن بقائي هنا أعظم نفعاً للمملكة من خروجي للقتال؟!

قال (نرسي):

ألم أقل لك يا سيدي أنك تستحق أكثر من قائد للجيش؟!.. إِنَّكَ أجدر وأحق بتدبير شؤون المملكة.. إِنَّكَ تستحق أن تكون ملكاً!!

أحسَّ (فرخان) أَنَّ الرجل يتسلل إلى نفسه ليقراً أفكاره، وقد غازل أمنيّاته، ولمح بذكاءٍ إلى ما رأى من حلم!

انتفتحت أوداج (فرخان) كبراً وهو يستمع إليه، لكنّه أسكت الكلمات على شفّيته بإشارةٍ فصل، وقد تذكّر كسرى فجأة.. تذكّر أن الرجل من حرسه الملكي.. لكنه شعر بالاطمئنان إليه بما أشبعه من مديح، وبما أبدى من الإخلاص له!

توسّل إليه (نرسي) أن يجعله رجله، وخادمه!

أسرّ إليه (فرخان) بمهمةٍ يختبره بها.. ستكون مهمته في القصر..

أوكل إليه مهمة استطلاع نيّة كسرى تجاهه.. ماذا يعدُّ له؟!

هل يدبّر له أمراً فيه خير له، أم فيه شر؟!

عاد (نرسي) إلى قصر كسرى في إحدى نوبات حراسته.. أطرق صامتاً وقد أطلق بصره إلى جناح الحريم في أعلى القصر.. كان يعلم أن (جومان) سجيناً لديه، لكنه كسرى.. والتعليمات مشددة هناك بمنع الاقتراب.. وكسرى لا يتهاون في شأن الحريم.. الجزاء الأكيد هو الإطاحة برأس من تسول له نفسه الاقتراب!

ربما لو تعرّضت لها هناك لاتهمني بمغازلتها، فأقتل بغير محاكمة، ولو كنت وزيره أو أخلص خاصته؟!.. هذا أمرٌ يحتاج إلى تدبير حتى تأتيني رغبة طائفة، أو صاغرة مقهورة... هكذا تداعت الأفكار في رأسه..

كان يعرف هدفه ويسعى للتمكين لنفسه في القصر وتثبيت قدميه.. كان كسرى هو وجهته، لكنه أمرٌ جدٌ عسير، والطريق إليه مغلق بعشراتٍ بل بمئاتٍ لهم نفس طموحه!.. كان يعلم ما في التقرب من الملك من خطرٍ حيث المكائد، والدسائس، والغيرة، والصعود على أكتاف الغير، مع عدم أمن فجرات كسرى وغدراته؛ فالدماء عنده رخيصة، والأرواح لديه بلا ثمن.. لذا كانت مهمته في الوصول إليه هي المستحيل بعينه!

كان (فرخان) ينتظر الأخبار بشغف.. فكّر (نرسي) أن يراود القائد الكبير عن أمنيات نفسه، وليطمئنه من جانب كسرى، فالأمور ما دامت تسير كالمعتاد فلا ضير أن ينقل إليه استحسان كسرى ورضاه حتى يثبت العكس.. أما الوصول إلى كسرى بالوشاية فلا مجال له الآن طالما تسير الأمور في صالح قائد الجيوش!.. اكتفى به لتحقيق هدفه، فأوهمه بأهميته لدى كسرى ومن معه..

تردّد (نرسي) على قائد الجيوش مرارًا بالبشرى، وزرع في صدره الطمأنينة على مكانته لدى كسرى، الذي ما أبقاه إلى جواره إلا خير كبير سيناله على يديه..

لم يدّر في خلد (نرسي) أن هناك عيونًا أخرى تنقل إلى كسرى كل شيء عن قائد جيوشه حتى الرؤيا التي رآها.. وسارت الأمور وفق تدبير (نرسي) على الأقل حتى يرى كسرى في قائد جيوشه تدبيرًا!

وارتقى (نرسي) حتى صار واحدًا من كبار رجالات القصر، والحرس الملكي، فتطلّع إلى هدفه في حريم كسرى وقد صار قريبًا!

لم يزل (ماهان) يبحث في كل مدينة، فقصور كسرى كثيرة، والسبيل إلى دخولها غير مُتاح، وما هو إلا واحد من الشعب ولا يحقُّ لمثله حتى أن يختلس نظرةً عبر أسوارها العالية، أو أن يستروح عبير زهرة بجنتها الزاهرة.. وما أتيح له أن يتعرّف على تلك الحياة إلا لبلوغ صيته في الصنعة، فتعرّف عليها أجيرًا بها، ولم يعايشها!

راوده الأمل من جديد حين وصلتته دعوة شيخه ومعلمه لمواصلة العمل في القصر، لكن قدوم البلاد على حرب قلب الموازين، فاكتفى بالتنقيب عن أخبارها بين العاملين بالقصر من العبيد والجواري في أحاديثهم اليومية في الأسواق، لكنه لم يصل من ذلك إلى شيء سوى علمه بأن كسرى يمتلك آلاف الحريم بالقصر الأبيض، ولا بد أنها بينهم!

وكم كانت فرحته حين بلغه من شيخ النساجين أن وصيفة الملكة (ماريا) تسأل عنه!

أما (جومان) فكانت في وحشتها تتحرَّق شوقاً إلى رؤيته، تمنَّى أن تصل إليه، أو أن يصل إليها فتطمئنّه وتنزع من قلبه مخاوفه عليها.. اطمأن (ماهان) بعض الشيء، لكن الشوق في قلبه اشتعل أكثر!

انتظر من الشيخ أخباراً جديدةً.. كانت المفاجأة غير سارة، فقد أُقصيت الملكة العطوف، وانتقلت الملكة الجديدة إلى القصر مستوفِ الزينة، فلا مبرر إذن لاستدعائه للعمل به!

وكان وضع (جومان) أشقَّ وأصعب، فقد انتقلت إلى جوار الملكة الجديدة التي كم ناصبت ملكتها (ماريا) العدا!

ربما جاءت لتصفِّي حسابات عداوتها مع تابعات الملكة القديمة؟!.. لقد كنتُ حجرَ عثرةٍ في طريق تحقيق نصرها على غريماتها.. ربما ينتظرنني على يديها مصيرٌ كمصير جاريته التي دبَّرت لقتل الملكة القديمة فأخذت بجريرتها؟!!

هكذا لعبت برأس (جومان) المخاوف.

لم تدّر أن الملكة لا تنظر إلى مثلها، فهي لا تشكّل في ميزانها قيمة، إنها هي جارية والجواري بين يديها كثيرات!

ولم يدّر (ماهان) أن الأمور ستعتدل دفتّها من جديد لصالحه، فقد كان القصر على ما فيه من زينةٍ لا يروق للملكة الجديدة التي تسعى لمحو آية

ذكرى للملكة القديمة بالقصر.. فالمكان يفتقر ولا بد لبصمتها ، وللمسة
يدها! ستغيّر كل ما في القصر بما يروق لها، ويتماشى مع ذوقها، حتى وإن
كانت البلاد في حالة حرب!!

وبينما (ماهان) يهيم على وجهه في المدينة لا يملك سوى الانتظار، جاءه
رسولٌ من شيخ النساجين يدعوه إلى العمل في القصر بناءً على أوامر الملكة
الجديدة.. تريد تحفاً منسوجةً ومطرزةً، ووضعت ميزانيةً مفتوحةً لذلك..
كانت سعادة (جومان) لا تُوصف وهي تراود قدرها الضنين بفرصةٍ في
لقاء!

وهكذا تقاسم القلبان النابضان بالحب الأمل في لقاء قريب يجمع بينهما..
وتواصل القلبان على البعد.. سيقرب بينهما القدر بعد طول فراق!



الفصل الثاني عشر

وتمضي الأحداث.. حربُ بن ملكتين تشتعل جولة هذه وجولة لتلك إلى أن انتصرت إحداهما في النهاية.. صراعٌ على الملك بين ملك جبار وبين قائد طموح تستعزُّ.. ومعاركٌ بين مملكتين تدور.. نصرٌ يجنيه ملك طامحٌ على حساب شعبٍ يخسر أبناءه وموارده.. المنتصرُ، أو المنهزمُ فردٌ وفي الحاليتين الخاسرون ألوف!

دنيا يتنافسها الجميع.. يتصارعون عليها فتصرعهم!.. يتعاركون فيها فتعركهم!.. الجميع يسعى في الحياة تائهاً.. يسرون بلا هدفٍ.. أطماع، وطموحات.. رغبات، وصراعات.. ظلم متفشٍ، وعدل مهدر!
وفي النهاية كل شيء يسير وفق حكمة الله، وتقديره.. فللكون إلهٌ يدبره.
كانت الدنيا على موعدٍ مع حدثٍ عظيمٍ سيغيّر مسارها في سنواتٍ قليلة لتشرق شمسُ الحق، وينجلي الظلام..

وقف قائد الحرس وسط جنده يهدّد ويتوعّد.. ضجّ المكان بصوته الجمهوري الأَجَش، يندّر بالويل والهلاك لمن تسوّل له نفسه بالتقاعس والتكاسل، فانفجر المكان بالحركة والنشاط، وانبرى كل عامل تحت سياط جند الملك الكثيف يعمل بكل ما أُوتِيَ من قوة في سبيل إنجاز البناء.. كان بحقّ بناءً لم يُر مثله، حرص أمهر البنّائين والصنّاع أن يتجاوزوا به كمال بناء الآباء والأجداد..

فقد صنّع لكسرى مجلسٌ يعلوه طاقٌ ضخّم يفوق إيوان جده (أنو شروان) فخامةً وجمالاً، وشقّوا لنهر دجلة العظيم فرعاً ينتهي عند موضع قدميه إذا اعتلى كرسي العرش.. ليجلس على عرشه عاليًا وتتفجّر الأنهار من تحته!

لقد جاهد شيخ البنّائين المشرف على العمل، ورجاله، ومَن كان بالموقع من جندٍ في إخفاء أمرٍ وقع منذ أيام عن كسرى مخافة بطشه، فقد داهمهم ما هاهم وهم على بعد أيام من افتتاح البناء!.. فقد أصبحوا وقد انشقّ طاق ملكه، وفاض دجلة حتى أتى على الجرف الذي يقع عليه عرشه فانهار به!.. وصدرت الأوامر بسرعةٍ لإصلاح ما فسد قبل أن يطير الخبر إلى كسرى، لكن ما لبث الأمر أن تسرّب وبلغ كسرى الخبر فتشاءم وثار ثورته، وقال غاضبًا:

انقصم طاق ملكي^١ من وسطها من غير ثقل، وانخرقت عليّ دجلةُ العوراء!.. انكسر ملكي (شاة بشكست)!

وأمر فاستدعى كهنته، وعرافيه، ومنجميه، وسألهم عن أحذقهم فدلّوه على كاهن باليمن يُدعى (السائب) كان يجيد عيافة^٢ العرب وقلماً يخطئ، فأرسل كسرى من فوره إلى عامله على اليمن (باذان) ليأتيه بالرجل على هيئته التي هو عليها من غير إبطاء، وليتناوب على أجاويد الخيل حتى يصل إليه في أسرع وقت!

وبعد أيام وصل (السائب) مجلس كسرى يشتدُّ مسرعاً، فحيّا الملك ومثّل بين يديه يتقدّم الكهنة، والسحرة، والمنجمين، فخاطبهم كسرى في ثورته: انقصم طاق ملكي^٣ وانخرقت دجلةُ العوراء!.. انظروا في هذا الأمر ماهو؟!

خرج (السائب) من حضرة كسرى مهموماً، يتبعه كبار منجمي الملك وكهنته، يستفتونه في الأمر وهو أعلمهم، فتواعدوا في الغد بعد أن يستنفد كلُّ منهم أفانين كهنته، وسحره..

(١) الطاقُ: ما جُعل كالقوس من الأبنية، وطاقُ الملك أي القوس الذي يعلو الإيوان، ذلك البناء الضخم بالمحراب الذي يقع تحته عرشه.

(٢) العيافة: هي ضرب من التنجيم، ومنه زجر الطير فإن طارت جهة اليمين تيامن (تفعل)، وإن طارت جهة اليسار تشاءم.

انفرد (السائب) ليلته تلك بنفسه بربرة بعيدة في جوف الصحراء يتطلع وحده إلى النجوم.. استحضر كل ما تعلّمه من السحر والكهانة، حاول مرة بعد مرة فلم ينفعه ما تعلّمه!.. أظلمت السماء، وغارت النجوم، ولم يحضره ما كان يحضره من الجن!.. أحسّ بعجزه.. لا بد أن شيئاً ما قد وقع!!.. لم يعد يمضي سحره، ولم يستقم له علمه الذي اشتهر به في جزيرة العرب!.. بات ليلته بين مُصدّقٍ، ومُكذّبٍ.. وبينما هو بين نائم، ومستيقظٍ رأى برقاً خرج من قبل الحجاز، ثم استطار حتى بلغ المشرق، فنظر تحت قدميه فإذا روضة خضراء!!

استفاق على ذلك الأمر لا يعلم أهى رؤيا أم حقيقة.. وقال في نفسه:
لئن صدق ما أرى ليخرجن من الحجاز سلطانٌ يبلغ المشرق تخصب عنه
الأرض كأخصب من مُلكٍ مَنْ كان قبله!!

انطلق إلى الكهنة والمنجمين يخبرهم، فوجدهم على حيرتهم قد أصابهم
مثل ما أصابه، وعجزوا من ليلتهم فلم يَمْضِ لساحرٍ منهم سحره، ولا
لكاهنٍ منهم كهنته، ولم يستقم لمنجمٍ منهم مع نجوم السماء علم، فقد انتزع
من الجميع علمهم!

قال بعضهم لبعض:

تعلمون والله ما حيل بينكم وبين علمكم إلا لأمرٍ جاء من السماء، وإنّه
لنبيّ قد بُعث، يسلب هذا الملك ويكسره!!

قال (السائب):

والله لئن أخبرتم كسرى بالأمر تكونون نعيم له ملكه ليقتلنكم جميعاً، فأقيموا بينكم أمراً تخبرونه به فتؤخرونه عنكم حتى حين! ولا تخبروه بالأمر على حقيقته فيبطش بكم!.. وإني سأنظر في شأني أمراً أعرف به حقيقة ذلك، ثم أوافيكم به في موعد الملك.

أسرع الكهنة، والمنجمون إلى كسرى فوقفوا بين يديه، وقالوا:

إنّا قد نظرنا في هذا الأمر فوجدنا طالعك الذي حسبنا عليه طاق ملكك وأغلقتنا عليه دجلة العوراء قد وضعناه على النحوس، فلما اختلف عليهما الليل والنهار وقعت النحوس على مواقعها، فزال كل ما وُضع عليهما.. وإنّا سنحسب لك حساب طالعك من جديد لتضع بنيانك فلا يزول!

فأمرهم أن يحسبوا طالعهم، فحسبوه وعينوا موضعاً جديداً للبناء، وأمر جنده أن يباشروا عماله، وفتح خزائنه للبناء ليتّم أكمل مما كان..

سار (السائب) إلى ما مضى عليه، وقد تذكر من هذا الأمر أقوالاً سمعها في آخر مُلك (أنو شروان) من موبذانه.. فانطلق إليه فإذا به شيخٌ طاعنٌ في السنّ، فاستأذن ودخل عليه فحيّاه وسلّم عليه، فعرفه ورحب به.. لقد كان الموبذان الأعظم في حكم (أنو شروان)، وكان (السائب) يومئذٍ في جُملة عماله ومساعديه.

فأخبره (السائب) بالأمر لعله يجد عنده المشورة أو يستقي من أحداث الماضي جواباً شافياً يستقيم به مقامه عند الملك.

تحدّث الموبدان بلسانٍ ملثّ، وذاكرةٍ متآكلة، وقد رجّع نحو ربع قرنٍ من الزمان، وبالتحديد قبل موت (أنو شروان) بشماني سنوات، فقال:

أذكرُ يا بُنيّ تلك الرؤيا العجيبة التي لن أنساها أبداً ما حييت... رأيت إبلًا صعبًا تقود خيلاً عرباً قطع دجلة وانتشرت في بلاد فارس!.. فلما صحت كتمتها، لكن حدث أمرٌ عجيب، فقد استدعاني كسرى وجمع وزراءه ومرازبته، وكان قد لبس تاجه وجلس على سرير ملكه، فقصص علينا رؤيا تماماً كالتي رأيتُ، وبينما نحن كذلك إذ أقبل عليه كتابٌ يخبره أنّ النار المقدسة التي أوقدت منذ ألف عام ولم تنطفئ يوماً قد خمدت، وأنّ بحيرة (ساوة)^١ قد غاض^٢ ماؤها، وعاین كسرى بنفسه ارتجاس^٣ إيوانه، وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفات قصره، فازداد غمًا إلى غمّه!

فتسجعتُ حين أخذ برأيي، وقلت:

وأنا أصلح الله الملك! قد رأيتُ في هذه الليلة مثل ما قصصتم علينا!

فقال كسرى متعجبًا:

أي شيء يكون هذا يا موبدان؟!

(١) ساوة: مدينة بين الري وهمدان.

(٢) غاضت البحيرة: نقص ماؤها، وانخفض منسوبه.

(٣) الارتجاس: هو التحرك باهتزاز يُسمَع له صوتًا.

فقلت:

مولاي الملك.. إِنَّهُ حَدَثٌ عِنْدَ الْعَرَبِ!

فأمر كسرى وزيره أن يكتب إلى عامله على العرب:

من كسرى ملك الملوك إلى (النعمان بن المنذر)، أما بعد، فوجه إلينا رجلاً
عالمًا بما أريد أن أسأله عنه!

فأرسل إليه (النعمان) أعلم الناس، وأحسنهم كلامًا.. (عبد المسيح بن
عمرو الغساني)، فلما قدم على كسرى، قال له كسرى:
أعندك علمٌ بما أريد أن أسألك عنه؟

قال (عبد المسيح) متعجبًا:

ليخبرني الملك، فإن كان عندي منه علمٌ، وإلا أخبرته بمن يُعلمه بما رأى،
فَعَلِمُ ذَلِكَ عِنْدَ خَالٍ لِي يَسْكُنُ مَشَارِفَ الشَّامِ يُقَالُ لَهُ (سطيح)..
قال كسرى:

فَأْتِهِ فَاسْأَلْهُ عَمَّا سَأَلْتُكَ!.. وَاتَّعْنِي بِجَوَابِهِ!

ركب (عبد المسيح) راحلته حتى قدم على (سطيح)، وكان (سطيح) قد
أشرف على الموت، فسَلَّمَ عليه وحيَّاه، فلم يجز (سطيح) جوابًا، فلما أنشده
(عبد المسيح) في ذلك شعرًا، رفع (سطيح) رأسه، وقال:

عَبْدُ الْمَسِيحِ، عَلَى جَهْلِ يَسِيحِ، إِلَى سَطِيحِ، وَقَدْ أَوْفَى عَلَى الضَّرِيحِ. بَعَثَكَ
مَلِكُ سَاسَانَ، لَارْتَجَاسِ الْإِيوَانِ، وَخُمُودِ النِّيرَانِ، وَرُؤْيَا الْمَوْبَذَانِ. رَأَى إِبْلًا

صعباً، تقوّد خيلاً عرباً، قد قطعّت دجلة، وانتشرت في بلاده.. يا عبد المسيح!.. إذا كثرت التلاوة، وبُعِثَ صاحبُ الهراوة، وفاضَ وادي السماوة، وغاضت بحيرةُ ساوة وخذت نأراً فارس، فليست الشامُ لسطيح شاماً.. يملكُ منهم ملوكٌ وملكات، على قدر عدد الشرفات، وكل ما هو آتٍ آت.. ثم قضى (سطيح) مكانه ومات.

وقدم (عبد المسيح) على كسرى فأخبره بقول (سطيح)، فقال كسرى: إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكاً ستكون هناك أمورٌ!! واستأذن (السائب) من الموبدان الهرم عائداً من حيث أتى، وقد ثبت له من الأمر ما ثبت.

وفي موضع العمل استمر البناء والتشييد ثمانية أشهر على قدم وساق.. أنفق فيها كسرى من الأموال ما لا يُعرف كمّه، والشعب المطحون في أحوج ما يكون إلى المال بعد زمنٍ مجحفٍ من الحروب، ونهب الخيرات!.. ولما فرغوا من البناء انطلق قائد الجند إلى كسرى فأخبره.

وجاء كسرى في أمهته، وكبريائه، ومظاهر عظمته، وكانت قد بسطت له الفرش بالورود والرياحين حتى استقرَّ على كرسيه، وقد نصب في مواجهة نهر دجلة، واجتمع له وزراءه ومرابطته، وجمع بين يديه الندماء، والمهرجون، وأصحاب الألعاب والحيل.. وبينما هو كذلك إذ احتاج دجلة بالفيضان، فانتسف البنيان من تحته، وانهار عرشه وكرسيه، وسقط في الهدم وكاد

يموت!.. فلما أخرجوه أمر جنده فقتلوا من كهنته ومنجميه قرب المائة، وقال
ساخطاً على من بقي منهم:

سَمَّيْتُكُمْ، وأدَيْتُكُمْ دون الناس، وأَجَرْتُ عَلَيْكُمْ أرزاقِي، ثم تلعبون
بي؟!

فقالوا:

يا أيها الملك.. أخطأنا كما أخطأ من كان قبلنا.. فدعنا نحسبُ لك من
جديد طالعك!

فثار عليهم كسرى، وأمر بإهلاكهم إن لم يخبروه بالأمر على حقيقته..
فأخبروه أَنَّهُ مبعث نبيٍّ، واعتذروا إليه فقالوا:

خشينا إن نعينا لك ملكك أن تقتلنا!

فأغلظَ لهم، وأرغى وأزبد، وكذَّب وأنكر، وطردهم أذلاء خزايا
مكسورين.

وكان (السائب) قد أبطأ على كسرى فبعث يستدعيه.. فعاد (السائب) إلى
الموبدان الكهل يستشيريه بعد أن بلغه ما حدث للكهنة، والسحرة على يدي
كسرى، فقال الموبدان:

لستَ في حاجةٍ إلى تذكير كسرى بالأمر الذي رآه بنفسه، وعايينه، واستمع
إليه، فقد كان يومئذٍ أميراً في ملك جده!!



الفصل الثالث عشر

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يتردد فيها (ماهان) على القصر الأبيض، فكم كدّ وتعب ليثبت مكانته بين صنّاع القصر المعدودين!

كان يومئذٍ حافزه الشهرة والمال، والغاية المنشودة هي الحبيبة التي كان يحارب الزمن ليعجّل بزواجه منها.. واليوم هي حافزه، وغايته التي يسعى إلى مجرد لقاءٍ يجمعهما.. ولقاؤهما صعب.. جد صعب.. فكيف به أن يهتدي إليها من بين آلاف الجواري في ذلك الحريم المُصان؟! وأيُّ حريم؟! إنه حريم كسرى الذي لا يرحم أحداً اجترأ على حماه.. ولو قُدِّر له أن يراها.. فماذا بعد؟.. أسئلة كثيرة ضاق بها صدره، وزاحمها اليأس فيه فاستلَّ صبره وما تبقى له في حياته من أمل.

حاول أن يختلس نظرةً إلى موضع الحريم ربما طالعه وجهها من نافذةٍ أو بابٍ، فلم يفلح!

جاهد كي يحافظ على سكينته وهدوئه في وجود شيخ النسّاجين وزملائه، فالحرس مدججٌ بالسلاح في كل مكانٍ خلفه ومن بين يديه يحصي عليه حركاته وسكناته..

تكرّرت زيارته للقصر بدعوى العمل، لكن بلا جدوى، وتبدّد الأمل في نفسه..

وفي الوقت الذي كانت فيه الظروف تتمنّع عليه بلقاءٍ يجمعه بها أو حتى تسمح له أن يحظى بنظرةٍ منها، كان هناك صيادٌ يراقبها بصبر.. إنه (نرسي) الذي انتظر طويلاً.. لم يكشف لها عن وجوده بعد حتى تحين الفرصة!

لم تكن (جومان) تعلم إلى أيّ منها يسوقها حظُّها؟!

وانتشرت الأخبارُ في القصر بما يُعدُّ فيه من عملٍ على يدي (ماهان) وشيخه، وزملاء صنّعه، وعلمت (جومان) بوجوده.

كان (ماهان) يفتش الأرض في جمع قليل من النّسّاجين في قاعةٍ صغيرة بواجهة القصر الخلفيّة.. وضع جميع طاقته في يديه.. كل خيطٍ ينسجه يودعه أحزانه، وهمومه، وأمله الضائع..

وفجأة!!.. طالعت عيناها.. رأهما من وراء خمارها تزهرا..! عرفها.. أومض لبريقهما في قلبه برقٌ خاطف.. كشفت عن وجهها للحظة.. لكن سرعان ما ولّت عنه خوفاً عليه وعليها!

تمسّك بالفرصة النادرة كما تمسّكت هي بها.. فليتنفّلت من مكانه للحظة، فربما كانت تنتظره بالخارج؟!.. هكذا قرأ أفكارها.. ولقد صدق قلبه، فكانت على موعدٍ معه في موضعٍ قريب وحدها تنتظره.

كانت فرصة (نرسي) التي انتظرها.. كان يراقبها بأنّةٍ وصبرٍ..

انتظرت (جومان) يفتسها القلق في عصبيةٍ، حتى اقتحم صوت قرع أقدام آتيةٍ صمت خلوتها، فخفق قلبها.. قطعت البهو إليه في خطواتٍ سريعة متلاحقة، لتجده أمامها..

كانت صدمة هائلة تلقتها بذهول.. إنه الشيطان تجسّد في شخصه من جديد، وأين الشيطان من شرّه!.. (نرسي) من جديد! إنها الفرصة التي واثته.. وقد سقط الصيد في قبضته أخيراً!

وبتبجحه المعتاد سألها وهو ينتزع يدها في غلظة:

إلى أين؟!.. أتظنين أنك أفلتتي من قبضتي؟!

خالّصت (جومان) معصمها من بين يديه بصعوبة، وقالت في غضب:

أنت مرة أخرى؟!.. ماذا تريد مني؟!

هدّته:

إذا لم تباعد عن طريقي سأصرخ وأجمع عليك الحرس!

دوّت في المكان ضحكته الفجّة، ثم قال:

ألا تعرفين أن خروجك من الحريم بغير إذن جريمة؟!.. تكلمي!.. من الذي كان يواعدك هنا؟!.. قلتُ تكلمي!

أجابته في غضب:

من أنت حتى تسألني؟!

ابتسم ابتسامته الصفراء، وقال مستهزئاً:

ألا تعلمين من أكون.. إنني أحد رجال الحرس الملكي.. مسكينة!.. لقد أصبحت في قبضتي يا (جومان)!.. وسأجد طريقي لأستخلصك لنفسك! سأطلب ذلك من كسرى نفسه.. لسوف أكون رجله، ولن يبخل عليّ بشيء أطلبه!

أطلقت (جومان) ساقبها للريح تعدو.. صعدت درجات السلم في طريقها إلى الحريم، وقد أظلمت الدنيا في عينيها.

خطا (ماهان) خارج قاعته خطوات وجلة، وألقى نظرةً إلى البهو الخارجي.. اندفع نحو الخيال الذي تراءى له من بعيد خطوات أخرى لكنّها متعجلة.. فجأة بدا له الشيطانُ بسحته القبيحة، وقد رُسمت على شفّتيه إبتسامةٌ شامتة انخلع لها قلبه.. لخصّت تلك البسمة الشيطانية والنظرة الحاقدة ما ينتظر المسكين على يديه.. أشار (نرسي) إلى الحرس فأطبقوا عليه، ثم أمرهم في صرامة:

خذوه إلى سجن القصر حتى نرى فيه رأيًا!

نظر إليه بازدراء، وخاطبه معنّفًا:

سوف تنال عقابًا رادعًا على فعلتك!.. وستلقى جزاء خيانتك، فالتعدي على حريم مولانا كسرى المعظم جريمة تستوجب القتل!

انتاب زملاءه القلق فقد تأخّر كثيرًا، فخرجوا من القاعة يتبعهم شيخهم على أثر الضوضاء المنبعثة في الخارج والتي استشعروا فيها الخوف عليه، ووجدوه بين أيدي الحرس يجرونه!.. حاولوا إثناء القائد عن موقفه، لكنه لم يستجب، وما زاده إلا إصرارًا!

حدّر شيخه من غضب مولاتهم الملكة إن لم يكتمل العمل الذي كلفتهم بإنجازه!

كان العمل قد أوشك على الانتهاء، ولا داعي لعددٍ كهذا من العمال.. هذا ما أقرّه الخادم المشرف على العمل من قبل الملكة.

قَدِمَتِ المفروشات والبُسُط هديةً للملكة، ففرحت بها وأجزلت لخدامها
العتاء على أن يسترضي النساكين الذين انصرفوا وقد فقدوا واحداً منهم..
وسيق (ماهان) إلى السجن.. لم تُقَمِ الملكة له أو لغيره وزناً طالما انتهت
حاجتها إليه.. وأصبح (ماهان) في قبضة الشيطان يساوم به حبيبته التي لم
تعد تجد لها في عالمها بصيصاً من النور.

باتت (جومان) مهمومة وقد عاينت بنفسها ما أصاب حبيبها، وقتلها
الخوف عليه..

وبدأ (نرسي) يهدد (جومان) بجرأةٍ وتبجح.. سترضح له هذه المرة، بعد
أن صار حبيبها في قبضته!



لم يكن (ماهان) يتوقع حين يصبح على بعد خطوةٍ واحدةٍ من الجنة أن
تنزلق قدمه فجأةً ليسقط في الجحيم!.. لم يكن يظن أن المسافة بين السعادة
والشقاء قريبة إلى هذه الدرجة!

وبعد رحلة ليست بالطويلة كلها إلى هبوط، ذهبوا به إلى مكانه الذي حطَّ
به وحطَّت معه آماله.. قيو بارد مظلم.. هبط دركات كثيرة حتى وصل إليه..
تركا الحارسان وانصرفا.. لم يحياها بكلمة، إنما بغلظتهما، ودفع أيديهما..
استجمع قوته لينهض من سقطته.. حاول أن يتعرّف على موضعه..
استرشد ببصيص من الضوء ينبعث عبر النافذة الضيقة العالية حديدية
القضبان، فتبيّن جداراً استند إليه ليتطلّع إلى النافذة في يأس..

انقضى يوم لم يتبين فيه ليلاً من نهار، لتفتح زنارته فجأة، ويندفع إليه حرس القصر الأشداء.. اقتادوه بعنف عبر دهاليز القصر السفليّة، وممراتٍ تحت الأرض.. لم يتبين في رحلته هذه للسماء وجهًا.. انتهى به المسير إلى مكانٍ موحش مظلم كالقلعة كثيف الحرس انغrust في جدرانها على مساحاتٍ متباعدة المشاعل فزادته رهبة.. تعرّف على أيدي مرتعشة تتشبث في يأس بقضبان الزنازين الحديدية، وصرخات بائسة تتردّد بين جنبات جدرانها المقرورة الصخرية الجامدة..

مرت عليه أيام وأسابيع تلمّس خلالها حقائق لم يكن ليستوعبها لولا أنه عايش أحداثها بنفسه من قبل خارج هذه الجدران، وداخلها.. تداخلت في أذنيه أحاديث المساجين.. آلاف طرّحوا خلف قضبانه منذ زمن.. أمضوا سنين بلا عددٍ في غياهب السجون بغير تهمة، أو ذنب.. أقاموا بها حتى بدوا وكأنهم جزء منها، وكأنهم سقطوا من ذاكرة الزمن!.. وجوه شاحبة!.. عقول نُزعت عنها ذاكرة ماضيها، وآمال مستقبلها!.. أحاديث تدور في فراغ من اليأس، وانعدام الأمل.. ونفوس ترى في الموت راحةً وخلاصًا، ولا تجد إليه سبيلاً!

في غرفة الملكة (شيرين) تألّقت أضواء مئات الشموع تنعكس ببريق الذهب، والفضة، والماس، وأصناف الجواهر على كل لونٍ وشكلٍ التي تشكّل صنعة أغلب ما تحتويه من متاع.. بدا على الوصيغة الأولى للملكة

بعض الارتباك، وهمت أن تفتح الملكة في أمر، ثم تراجع وتوقفت
الكلمات على شفيتها، وقد أجمتها الرهبة.. وسرعان ما انشغلت بتعديل
ثياب الملكة فوق جسدها المتناسق.. وأغرقتها بعبارات المديح والإعجاب،
وأخذت تدعو لها ببقاء الملك، ودوام العز والسلطان..

ابتسمت الملكة فأشع وجهها بنور يحاكي وجه البدر المنير، وقالت في
عذوبة، ودلال:

كفاكي يا (عنبر)!.. كفاكي ثرثرة!.. لقد أتعبتي رأسي بكثرة كلامك!
إنني أعرفك تمام المعرفة، لا تملأين رأسي بكلامك هذا إلا إذا كان لديك
طلب..

ها...!.. هاتي ما عندك!.. فأنا اليوم مشغولة..

قالت الوصيصة في تذلل:

فداؤك نفسي يا مولاتي!.. ما عشت لحظة أنعم برغبة تحققها لي مولاتي،
وهناك ما يشغل بالك، ويكدّر صفوك.. اسمحي لجارتك المخلصة أن
تخفف عنك، وتشاركك همومك!

سرحت (شيرين) بخيالها، وانشقت عن صدرها تنهيدة طويلة لم تستطع
أن تسيطر عليها، فشجعت الوصيصة كي تعيد سؤالها..

أجابتها (شيرين) تحت ضغط إلحاحها:

لا شيء يشغلني أكثر من أولادي.. لن يستريح بالي أبداً وابن (ماريا)
ولياً للعهد.. لا أعرف ماذا سيحدث لي ولهم إن حدث لكسرى مكروه؟!

قالت الوصيصة في أدب جم:

لا قَدَّرَ اللهُ يا مولاتي! حفظته الآله لنا وللمملكة كلها!

ضغطت (شيرين) الكلمات بين أسنانها في غيظ:

ولكن (شيويه) ابن (ماريا) لم يزل وليًّا للعهد!.. كنتُ أظنُّ أنَّي تَخَلَّصْتُ
من أمه الملكة بإقصائها، لكنه ظهر لينغص عليَّ حياتي.. وكلِّما وقع عليه
بصري والتقت عيني بعينه أشعرُ بالخوف من المستقبل..

قالت الوصيصة:

هوَّني عليك يا مليكتي!.. فمولانا كسرى العظيم يُحِبُّكِ ولا يرى غيركِ
من بين النساء، ولن يسمح لأحدٍ أن يعكر صفوكِ.

لكنه ابنه الأكبر!!

ولو يا مولاتي!.. إنَّه يُحِبُّكِ، ويؤثركِ على جميع نسائه، ولن ينصر أحدًا
عليكِ ولو كان ابنه.. ثم إنَّ أبناءك منه كثير.. حفظهم الإله ذكورًا، وإناثًا!

واصلت الملكة كلامها دون أن تلتفت إلى كلام وصيفتها:

لقد آن الأوان ليختفي هذا الصبي عن المشهد كما اختفت من قبل أمه..
لا بد أن تكون ولاية العهد لابني.. ابني أنا.. (شهريار).. أكبر أولادي، ثم
لبقيَّة أولادي من بعده.

لا يهم إن كان الفارق بضع سنوات بينهما.. فإنه ابن الملكة سيدة القصر..
أنا.. سيدة الإمبراطورية الأولى!

قالت الوصيصة:

معك حق يا مولاتي.. بالتأكد مولانا كسرى يعدُّ لذلك، فلا يعقل أن
يجلس على عرش المملكة بعد عمرٍ طويلٍ حفيد إمبراطور الروم عدونا
اللدود!

لا يمكن!

قالت (شيرين):

يمكنك أن تنصرف في فقد أعبتني بشر ترك!.. لكنك قلت أن لك طلباً.. ما
هو تكلمي بسرعة، وباختصار؟!
أعلنت جاريةً بالباب عن قدوم (شهريار)..
دخل (شهريار) متعجلاً فحياً أمه وقبّل يديها وجبينها، وملأت (شيرين)
عينها منه في فرحة..
نظر (شهريار) إلى وصيفة أمه نظرة تهديد، فتجمّدت الكلمات على
شفتيها.

كرّرت الملكة (شيرين) سؤالها، فأجابتها الوصيصة في أدب:

دام عزك يا مولاتي.. لا شيء.. لا شيء..

وانصرفت الوصيصة وقد انطفأت داخلها الرغبة في الحديث إلى الملكة..
كانت تحمل إلى الملكة شكوى من ولدها المدلل (شهريار) الذي لم يدع من
نساء القصر والحريم واحدة إلا وتعرّض لها، حتى هي وهي أكبرهن سناً
ومقاماً لدى الملكة لم تسلم من مغالته!

خرج (شهریار) من مخدع الملكة بعد أن ودَّعها، وودَّعته منشرحة، وقد سُرَّت بشبابه، وجماله، وفُتوتَه.. انصرف عنها، وبقيت آملها فيه مقيمة في عقلها، وقلبها..

عزمت أن تكلم الملك وتخوِّفه من ابن (ماريا) عليها، وعلى القصر.. تذكَّرت جانباً من كلام وصيفتها فاستحسنته.. تمسَّكت من كلامها ما يخصُّ كونه حفيد إمبراطور الروم، وقالت في نفسها:

أحسنَتِ يا (عبر)!!.. نعم ستكون تلك حُجَّتِي عليه.. لكن عليَّ أن أختار الوقت المناسب!

امتدَّت يدها لتمسك بمرآة وُضعت إلى جانبها، وأمعنت النظر إلى صورتها المنعكسة على صفحتها الفضيَّة المصقولة بإعجاب، وهي تُسرُّ إلى نفسها حديث قلبها:

سأحمل إليه رجائي عبر أسلحة جمالي، وفتنتي، ودلالي التي لا يصمد أمامها.. إنه يحبُّني، ولا يحتمل لحظة أسي تطل من عيني..

ازدرد (نرسي) لعبابه في نهم وهو يتربَّص بعيني ذئب بموضع الحريم من القصر.. لقد سنحت الظروف، واستدارت الدنيا لتعطيه وجهها، بعد أن أعطته ظهرها طويلاً..

تذكَّر حاله في ظلِّ الدهقان، وقارن بينه وبين ما وصل إليه في ظلِّ كسرى، فكست وجهه ابتسامةً مغرور شامت.. تمنَّى أن يلقي اليوم (جaban) ذلك الدهقان المُخَرَّف الذي كم أخضعه! سيسحقه كحشرة تحت قدمه..

برقت عيناه ببريق الطمع وهو يمني نفسه أكثر وأكثر بالجاه، والسلطان..
استنهض عزيمة، وقال بحماس:

لا بد أن أجد طريقي إلى كسرى.. إنني أستحق أن أكون في ملكه وزيراً، أو
رئيساً لحرسه، أو قائداً لجيوشه، لا مجرد قائدٍ على عددٍ من الجنود في حرسه!
تذكر (جومان) التي كم تحدّته حتى لقيها، وستُذعن حتماً لإرادته.. أقسم
أنه سيخضعها، وستكون له خادمة!

سأصبر عليها حتى أجد إليها سبيلاً، وحينئذٍ سأستخرجها من حريم
كسرى لتكون لي وحدي!

لا أستطيع أن أنتزعها اليوم من حريمه إلا بموافقته ورضاه!
وضع رغبته فيها، وتطلعاته داخل القصر في مقارنةٍ، فلم يستطع أن
يرجّح (جومان).. لو اختطفها وفرّ بها سيكون قد ضيّع على نفسه فرصةً
كبيرة.. أطفأ وهج هذه الفكرة في رأسه سريعاً، فلا بد أن يفوز بكل شيء ولا
يخسر شيئاً أبداً! لن يتنازل عن تحقيق جميع أهدافه!

وإلى أن يحقق المكانة المرجوة عند كسرى لن يدعها تهنأ!.. سيفرض عليها
نفسه في كل مكان فرضاً حتى لو كانت في عرين الأسد!

أرسل إليها إحدى الجوارى بعد أن أغدق عليها المال.. أبلغتها برغبته في
مقابلة، ونقلت إليها تهديده..

اصطدمت بعنادها.. هددتها، وحملتها بتهديدٍ شديدٍ اللهجة إليه.. ستبلغ
الملكة بما دأب على التعرُّض لها ولحریم القصر، وستخبر الملكة كسرى..
وكسرى لا ولن يتهاون في شأن حريمه!

صرف (نرسي) الجارية مزجراً.. فكَّر أن يذهب إلى (جومان) بنفسه، لكنه
تذكَّر مشروعات مستقبله في القصر فخشي على مكانته التي يخطُّ لها، فأمهّل
نفسه حتى تحين الفرصة.. وستأتي الفرصة.. ستأتي حتماً!



الفصل الرابع عشر

لم يَدِرْ (نرسي) أن كسرى منذ أن بلغه أمر رؤيا (فرخان) وهو يُبَيِّت النية ويُضْمِرُ له الشر، وقد وضعه هدفاً لعيونه تترصّده ليل نهار، وتترصّد جميع رجاله وجميع مَنْ تجمعه بهم مُداوِمة الاتصال!

وهكذا كان (نرسي) مَرصُودًا مُتَابَعًا من قِبَل القصر.. وهكذا أنت إذا دخلت غابة الوحوش تلتمس الصيد، فاحذر! فلا بد أن تترصّدك عيونٌ، فما أنت إلا هدفٌ وصيدٌ!!

وبمثل ما سعى (نرسي) إلى لقاء كسرى سعى كسرى إلى لقائه.. لكن مَنْ (نرسي) هذا حتى يجمعه بكسرى حديث؟! إنه أَقْلُ شَأْنًا عنده من أن يهدر معه وقته الثمين.. أحال كسرى الأمر برؤيته إلى أحد رجاله، الذي ما كان منه إلا أن استدعى (نرسي) إليه سرًّا، وأمره أن يكون عينًا له على (فرخان). لم يتردّد (نرسي) في القبول فقد كان يسعى إلى ذلك منذ زمنٍ، ولتكن خطوةً له على الطريق إلى كسرى!

أسرف (نرسي) في وصف طموح (فرخان)، وطمعه في العرش، وأمعن في التملُّق إلى مولاه كسرى، وأبدى استعدادَه للتضحية في سبيله بحياته.. ربما كان ظنُّه أن كسرى قد يحلُّه مكان الرجل، ويستبدله به!

لم يستوعب الحقيقة.. أنه كان في البداية وفي النهاية أداة.. مجرد أداة!
أصدر كسرى أمره لقائد الجيوش (فرخان) أن يلحق بأخيه في ساحة القتال بدعوى أنه سيوطد لحكم كسرى ببلاد الروم بعد أن أصبح العرش هناك شاغراً، بمقتل إمبراطور الروم (فوقاس) لفساده ولما نزل به من هزائم.. وكان هذا الأمر يحوي ما يحويه من تدبير كسرى لقائد الجيوش ما ستكشف عنه الأحداث فيما بعد..

وقد وجدها (فرخان) فرصةً ليحقق حلمه ويتزع الحكم من كسرى، وليبدأ من الخارج ثم يدخل بجيشه فينازع كسرى على عرشه.. هكذا زين الرجل لنفسه الأمر!

توجّه (فرخان) يصحب خادمه المخلص إلى حيث أمر كسرى، وكان (نرسي) موفداً من قبل كسرى إلى (شهرباز) سرّاً برسالة!

وبغير أن نجهد عقولنا في استنتاج.. كان الأمر واضحاً، وأساليب كسرى في الغدر معروفة!.. كانت الرسالة أمراً صريحاً من كسرى إلى قائده (شهرباز) بقتل أخيه (فرخان) فور وصوله إليه!!

وكان (شهرباز) رجلاً عاقلاً يعلم ما سيؤول إليه أمر جيشه إذا قُتل قائده، وما سينتهي إليه أمره هو إن قتل أخاه أو أعان عليه.. لا بد أن مصيره سيكون مثله!

كتم (شهرباز) الأمر عن أخيه، وأرسل إلى كسرى برسالةٍ يشيد فيها بأخيه، وبطولته، ونكايته في العدو..

اعتبر كسرى رفض تنفيذ أوامره عصيانياً، وزاد تصميمه فأرسل إليه ثانيةً عن طريق (نرسي) رسالةً يأمره من جديد بقتله.. كانت الأمور أمام كسرى واضحة.. فليذهب الجيش إلى الجحيم، المهم أن يبقى كسرى ولا ينازعه في الحكم أحد.. ولو في مجرد حلم!

وأمام رفض (شهربراز) تنفيذ الأمر، أصدر كسرى أمراً فاصلاً.. أرسل كتاباً بعزله، وتولية أخيه (فرخان) مكانه..

أسرع (نرسي) إلى (فرخان) يحمل إليه البشري.. يهنئه باستعادة منصبه قائداً لجيوش المملكة بعد عزل أخيه الذي قفز على الفرصة وانتزعها غدرًا.. سعى بالوقية، وأوغر صدره عليه.. قلب الأمور.. استغل أن (شهربراز) تكتم أمر الرسائل التي كان يبثها كسرى إليه بقتله.

وجاء (نرسي) إلى القائد (فرخان) برسالة كسرى يأمره بقتل أخيه!

وعلى الجانب الآخر كان الروم قد استشعروا الخطر، فأجمعوا أمرهم من جديد بعد أن أطاحوا بحاكمهم الضعيف، ثم قتلوا الإمبراطور المفسد، ونصبوا (هرقل) لهم قيصرًا.

كان (هرقل) حاكمًا قويًا، واسع الحيلة، ذا تدبير في الملك، فقد أعاد تنظيم جيوشه، وقاده بنفسه، فاشتبك مع الجيش الفارسي وهزمه في آسيا الصغرى، ثم استعاد منهم الشام، ومصر، ثم قام بهجوم مضاد حيث اتجه بجيشه إلى عاصمة الفرس ليغزوها مستغلاً استهانة كسرى به، واشتعال الصراع داخل جيش الفرس على الزعامة.

تمسك (فرخان) بالفرصة، وتشبث بالمنصب الذي استردّه بعد أن نُزع منه على يدي أخيه أقرب الناس إليه.. وكان الثمنُ معروفاً.. كانت عودته إلى القيادة مرهونةً بقتل أخيه.. فعزم على الأمر، ومضى في تنفيذه!

توجّه (فرخان) في جمع من رجاله إلى خيمة أخيه فحاصرها، وعزلها عن معسكره، ودلف في عددٍ منهم إلى خيمته وقد أفرد وحده، وهمّ بقتله، لكن (شهربراز) أخرج له مكاتبات كسرى التي يأمر فيها بقتله.. تلك المكاتبات التي أرسلها كسرى مع (نرسي)، ذلك الغادر الذي يقرّبه، ويصطفيه! خاطب (شهربراز) أخاه (فرخان) مكاشفاً، وقد عرّى له حقيقة الأحداث:

كان يأتييني بأمر قتلِكَ من قبل كسرى مرةً بعد مرةً.. ثلاث مراتٍ.. وأنا أبعثُ إلى كسرى أثنيه عن قتلِكَ.. يأتييني يحرضني على قتلِكَ لأنفرد بالقيادة دونك، ثم تأتيني لتقتلني؟!

والآن ماذا أنتَ فاعل وقد انكشف أمامك غدر كسرى، وافتضح عينه عليك، وعلمتَ بخيانتَه؟!

ولسوف أثبتُ لك بالبرهان الساطع صدق كلامي.. سأستدعي (نرسي) إلى خيمتي، وانتظر أنتَ خلف الستار، واستمع!

وما هي إلا لحظات حتى وقف الحارس على باب خيمة (شهربراز) يطلب لـ (نرسي) الأذن بالدخول، أشار (شهربراز) لأخيه أن يختبئ بسرعة، فاختبأ واختبأ رجاله.

دخل (نرسي) على القائد (شهربراز) فحيّاه، وبالع في الثناء عليه، وكرّر عليه أمر كسرى بقتل أخيه، وحذّره مغبة عصيان أمره، وأبلغه أن (فرخان) يجهّز لقتله..

فلتقتله أنت قبل أن يجهز عليك!

قالها (نرسي) بملء فيه واضحة..

ظهر (فرخان) فجأة ليجد (نرسي) نفسه بين الأخوين، وقد كشف ستره وفضحاً خيانتة، فأجهزاً عليه وقتلاه.. قُتل الخائن الرخيص، الذي أهدر دمه، ولا كرامة له..

وتصالح الأخوان وتوعّدا على كسرى الذي غدر بهما، فخلعا نفسيهما من حكمه، وقرّرا الانضمام بمنعهما إلى (هرقل) في حربه على كسرى.

راسلا (هرقل).. أخبراه بقرارهما.. كان (هرقل) يعلم من عيونه المندسّة أن أمراً ما يُدبّر لكسرى داخل جيشه بين قائديه، فلما وصلت الرسالة من قبليهما تأكّد، لكنه كان حريصاً كلّ الحرص.. كان يخشى أن تكون مكيّدة، فأرسل إليهما أن يجتمعا عنده في جيشهما فينضمّا إليه ويصبحا جيشاً واحداً تحت قيادته، وتصرّفه.

لبّى القائدان الدعوة على الفور، فتحالفا مع (هرقل) على قتال كسرى، واجتمع لإمبراطور الروم من الفرس وحدهم خمسون ألفاً، فأصبح يقود جيشاً كبير العدد اتجه به في صحبة القائدين إلى (نصيبين) بالعراق.

طارت الأخبار إلى كسرى فأرسل إليهما جيشاً أمّر عليه قائده (راهزار)، وأمره أن يعسكر بـ(نينوى) من أرض الموصل على نهر دجلة، وجعل هدفه منع (هرقل) من عبور النهر بأيّة طريقة.. وعندما عاين (راهزار) جيحافل (هرقل) وحلفه أسرع ليراسل كسرى يطلب منه المدد، فجيشه مقارنةً بجيوش أعدائه قليل العدد والعتاد!

مزّق كسرى الرسالة، وصرخ في رسوله إليه غاضباً:

انطلق إلى هذا الرعديد ومُره بأمرى!.. فليصمد وليستحضر روحي الوثابة المنتصرة!.. ليثبت وإلا قطعت رأسه!.. اذهب إليه!.. هيّا! واشتبك القائد الضعيف مع جيش (هرقل) على غير استعدادٍ أو حميّة، فانهزم جيش الفرس هزيمةً ساحقةً، وقُتل (راهزار) وخسر كسرى نصف جيشه.

نزلت أنباء الهزيمة على رأس كسرى كالصاعقة المدمّرة.. كاد يبطش بالرسول الذي جاءه بالخبر، وجلس بقصره الأبيض لا يقرُّ له قرار.. كان الوضع خطيراً، فقد أصبح (هرقل) على مقربةٍ من عاصمة الفرس، وقد قويت شوكته بعد أن نكبه في جيشه، وانضمَّ إليه قائد الفرس العتيديان (فرخان) و(شهربراز) اللذان باتت نوازع الشر تحركهما للثأر من ملكهما الذي غدر بهما فانقلبا عليه.. لم يكن أمام كسرى إلا أن يتحصّن بعاصمته، ويكثّف حولها الحرس، ففعل وحشد حرسه الملكي لحماية قصره، وممتلكاته، وباقي قصوره، بعد أن سحب الجيش من الثغور والجبهات..

وعلى الرغم ضعف موقف كسرى، إلا أن جعبته لا تخلو أبداً من الحيل!!
كتب كسرى كتاباً يوجّه فيه الشكر لقائده (شهربراز) على انضمامه
لـ(هرقل)، ويُرجع ذلك إلى حيلة مُتَّفَق عليها بينهما أن إذا تقدّم (هرقل)
ينقلب عليه (شهربراز) فيهاجمه من الخلف بعد أن يهاجمه كسرى من الأمام،
فينحصر بين الجيشين فيهلك.. هكذا هدّته حيلته!!

فكّر كسرى في الوسيلة التي تصلُّ بها تلك الرسالة إلى (هرقل).. أمر
فأحضر بين يديه راهبٌ كان يتعبّد بدير قرب (طيسفون)، واستودعه الرسالة
ليسلّمها إلى قائده إذا ما مرّ به جيش الروم، ثم صرفه.
فَضَّ الراهبُ الرسالةَ ولما قرأ ما فيها قرّر أن ينتصر لدينه، وسلّم الرسالة
إلى (هرقل) الذي علم أن (شهربراز) يخدعه، ويحتال عليه.

وزوّر كسرى رسالةً أخرى من (شهربراز) إلى كسرى، كتب فيها:
”إنني ما زلتُ أخادعُ ملكَ الروم حتى اطمأنَّ إليّ، وجازَ إلى البلاد كما
أمرتني، فليعرّفني كسرى في أيّ يوم يكون لقاءؤه، فأهجم أنا عليه من ورائه
وكسرى من بين يديه فلا يسلم هو ولا أصحابه..“
ثم أمهرها بتوقيع (شهربراز) الذي زَيّفه، وسرّبها إلى ملك الروم
كسابقته..

تأكّدت لدى (هرقل) مخاوفه، وأيقن بالخطر الذي صار محدّقاً به، فأصدر
أوامره إلى جيشه بالانسحاب، ورجع إمبراطور الروم إلى بلاده، وانتهت
الحرب التي دارت طوال تسع سنواتٍ كاملة.. بدأت بانتصار الفرس في
(أذرعات) بالشام، وانتهت بانتصار الروم في (نينوى) بالعراق.

مرحلة طويلة من الحروب دمّرت موارد البلاد، وأفقدتها خيرة شبابها..
خسائر ليست لها نهاية ولا مبرّر! خسائر فادحة حلّت بالجميع لا شيء إلا
لشهوة ملك، أو طمع، أو انتقام!!

طارت الأخبار إلى مدينة النبي ﷺ والمسلمون متوجهون لفتح (خير)،
وبينما جمع من أصحاب النبي ﷺ يتصدّروهم (سلمان الفارسي) وإذ يهودي
يمرّ عليهم وكم دأب اليهود على استفزاز المسلمين، واستثارة مشاعرهم -
وقد عرفه ذلك الخبيث، فقد كان في قومه بني قريظة يوماً أجيراً حتى فدى
نفسه من الرق، ونال حرّيته.

قال اليهودي لـ (سلمان) متهمّاً:

أرأيت يا صاحب (محمد) كيف هزم الروم قومك الفرس؟! .. إنهم أهل
كتاب مثلنا، ولسوف يُظهرنا الله عليكم مثلما أظهر الروم على قومك!
أجابه أحد المسلمين:

كذبت يا عدوّ الله، إنّما (سلمان) منّا.. لقد ساوى الإسلام بيننا جميعاً،
وحطّ عنا الفخر بالأنساب وعدّها من دعوى الجاهليّة الأولى.. أما سمعت
قول رسول الله ﷺ فيه: "سلمان منّا آل البيت" .. ولسوف يُخزيك الله يا عدوّ
الله، وسيلقى قومك مثل ما لقي يهود المدينة من سوء الجزاء.. فوالى اليهودي
الأدبار مخذولاً..

قال آخر:

لازلتُ أذكرُ ذلكَ الموقفَ الذي قالَ فيه رسولُ الله ﷺ قوله هذا،
والتفتَ إلى (سلمان) موجّهاً حديثه إليه:

أتذكرُ يومَ أشرتَ على رسولِ الله ﷺ بالخذق، فأمرنا رسولُ الله ﷺ بحفره،
وحين شمرتَ عن ساعدك، وأخذتَ معولكَ لتحفرَ معنا، اختلفَ
المهاجرونَ والأنصارَ فيك، قالَ المهاجرونَ : (سلمان) منّا، وقالَ الأنصارُ:
(سلمان) منّا، فلمّا سمعهم رسولُ الله ﷺ قالَ مقولته تلكَ..
فابتسم (سلمان) مصدّقاً..

وقال غيره:

صدق رسولُ الله ﷺ حين قالَ فيك: "لو كانَ الإيمانُ عندَ الثُّريا لنالَهُ
رجلٌ من هؤلاء" .. وهو يضعُ يده الشريفة عليك..
ملاً الجميعَ أعينهم من (سلمان) إكباراً وإجلالاً، ثم آمنوا على كلام
الرجل قائلين:

صلى الله عليه وسلم..

قال رجلٌ منهم وهو ينقلُ نظره بين (سلمان) وبين المسلمين من حوله:
لقد ذكرني حديثٌ هذا اليهودي بما جرى لنا في مكة حين انتصر الفرس
على الروم، فشقَّ ذلكَ علينا وكرهنا أن يظهرَ المشركون من المجوس على أهل
الكتاب من الروم، وفرح كفارُ مكة وشمثوا، وقالوا لنا ولرسولِ الله ﷺ:

إنكم أهل كتاب والنصارى مثلكم، وقد ظهر إخواننا من أهل الفرس على إخوانكم، وإنكم إذا قاتلتمونا لنظهرن عليكم، فأنزل الله تعالى في ذلك قرآنًا، وتلا قوله تعالى:

﴿الْم ١ غُلِبَتِ الرُّومُ ٢﴾ فِي أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ٣ فِي بَضْعِ سِنِينَ ٤ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٥ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٦

عَقَّبَ أَحَدَ الْمُسْلِمِينَ قَائِلًا:

صدق الله العظيم.. سبحان الله!.. فقد أنزلت هذه الآيات على رسول الله ﷺ عقب انتصار الفرس، لتتحقق بانتصار الروم بعد تسع سنوات كاملة من نزول الآيات.. سبحان الله!.. إنه إعجاز القرآن الكريم.. المعجزة الباقية إلى يوم القيامة، والدليل الساطع على صدق نبوة رسول الله ﷺ.. ولسوف يُظهر الله دينه على فارس، والروم، واليهود وجميع قوى الضلالة.. ما زلت أذكرُ يوم الخندق، والمشركون مطبقون علينا، وقد خان يهودُ قريظة ونقضوا العهد.. يومئذٍ لم يكن أحدنا يأمنُ على نفسه دخول الخلاء، بينما رسول الله ﷺ يبشِّرنا بفتح فارس، والروم، واليمن.. والله ما خالطنا الشك طرفة عينٍ في قوله ﷺ، وسينجز الله تعالى وعده لا محالة!

التفت أحد المسلمين إلى (سلمان) يخاطبه:

(١) سورة الروم: (١-٥).

يا (سلمان)!.. نعلمُ أنَّكَ كنتَ عظيماً في قومك فكيف تراك في يومٍ وأنتَ
تُحاربُ قومك؟!

أجابه (سلمان) بلسان المؤمن الواثق بموعود ربِّه:

يا أخي.. لقد كنَّا جميعاً في أقوامنا في كفر وضلالٍ حتَّى هدانا اللهُ تعالى
للإسلام وجاءنا رسولٌ من عنده بدين الحقِّ.. أرسله اللهُ إلى الناس كافةً
أبيضهم وأسودهم.. فساوى بدعوته بين الناس جميعاً، وأقام العدل، ووضع
عنا آصار الجاهلية، وحطَّ عنا التفاخر بالأنساب والأقوام.. فكلُّنا إخوةٌ،
والمرءُ بفعله، وما قدَّم لدينه، وليس بأصله أو حسبه.. ومن ابتغى العزَّة في
غير دين الله ذلٌّ.. وقال في فخر:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيسٍ أو تميم

قال أحدهم:

لكن كيف وصل بك المقام إلى هنا لتلقى بعد العزِّ والغنى في بلاد آبائك،
الرقَّ والفقر على يدي اليهود إلى أن خلَّصنا اللهُ من مجاورتهم بمدينة رسول
الله ﷺ وأكرمك بالعتق..

تحدَّث (سلمان) وقد كسى وجهه الإشراق، بعد أن حمد الله تعالى على
نعمة الإسلام:

بعد أن تركتُ قومي أبحثُ عن الدين الحق، وطلبتُ النصرانية فنزلتُ
بأرض الشام، و(الموصل)، و(عمورية).. وأنا أتابع الرهبان في عبادتهم حتى

أخبرني أحدهم بنبيّ أظننا عهدده، مُهاجره إلى أرض ذات نخل، ودلّني على علاماتٍ فيه: خاتم النبوة بين منكبَيْه، وأنّه يقبل الهدية، ولا يأكل الصدقة..
واصل (سلمان) كلامه قائلاً:

ومرّ بي ركبٌ من العرب، فقلت لهم:

أعطيكُم بقراتي وغنمي وتحملوني إلى بلادكم؟!!

فحملوني إلى وادي القرى، ثم غدروا بي فباعوني إلى رجل من اليهود، فلما رأيتُ النخلَ علمتُ أنّه البلدُ الذي وُصف لي.. أقمتُ عند الذي اشتراني، ثم قدّم عليّ رجلٌ من قريظة فاشتراني منه، وقدّم بي إلى المدينة فعرفتها بصفتها، وأقمتُ معه أعملُ في نخلة، وبعث الله النبيّ ﷺ حتى قدّم المدينة فنزل في بني عمرو بن عوف، وبينما أنا في رأس نخلة إذ أقبل ابنُ عمِّ لصاحبي فعلمتُ منه اجتماع القوم على رجل من مكة يدّعي أنّه نبيّ، فأخذتني قشعريرةٌ ورجفت بي النخلة حتى كدتُ أسقطُ، فنزلتُ سريعاً.

وقلت:

ما هذا الخبر؟!!

فلكمني صاحبي لكمةً، وقال:

وما أنت وذاك؟!.. أقبل على شأنك!

فأقبلتُ على عملي حتى أمسيتُ، وقد جمعتُ شيئاً من تمرٍ فأتيْتُ الرجل وهو بـ(قباء) عند أصحابه، فقلت له:

اجتمع عندي هذا، وأردتُ أن أتصدَّق به فبلغني أنَّكَ رجلٌ صالحٌ ومعكَ رجالٌ من أصحابكَ ذوو حاجةٍ، فرأيتُكَ أحقَّ به فوضعتُه بين يديكَ.. فكفَّ يديه ولم يأكل، وأمرَ أصحابه أن كلوا!.. فأكلوا، فقلت في نفسي: هذه واحدة.

ورجعتُ وقد تحوَّل إلى المدينة، فجمعتُ شيئاً فأتيته به، وقلت: أحببتُ كرامتَكَ فجئتُ أهديكَ هديةً، وليست صدقةً. فمدَّ يده فأكل وأكل أصحابه، فقلت في نفسي: هاتان اثنتان.

ورجعتُ فأتيته وقد تبع جنازةً في بقيع الغرقد وحوله أصحابه، فسلمتُ وتحوَّلْتُ أنظرُ إلى الخاتم في ظهره، فعلم ما أردتُ فألقى رداءه، فلما رأيتُ الخاتم قبلته وبكيتُ، فأجلسني بين يديه فحدَّثته بشأني كلَّه فأعجبه، وأحبَّ أن يسمع أصحابه، فقال لي رسول الله ﷺ: "كاتبٌ^١ يا (سلمان) عن نفسك!.."

قال (سلمان):

فلم أزل بصاحبي حتى كاتبته على أن أغرس له ثلاثمائة وديةٍ، وعلى أربعين أوقيةً من ذهبٍ..

(١) المكاتبه للعبد هي أن يتعهد لسيده بسداد مبلغ متفق عليه في سبيل عتقه.

فقال النبي ﷺ:

”أعينوا أخاكم بالنخل!“ ..

فأعانوني، فكنْتُ آتي النبي ﷺ بالنخلة فيضعها ويسوي عليها الترابَ بيده، والذي بعثه بالحق ما مات منها واحدة، وبقي الذهبُ فأعانني، وأعانني عليه أصحابُه حتى أدَّى اللهُ عني ..

قال واحدٌ منهم:

الحمد لله الذي نجَّانا من الكفر والضلال .. وهل هناك رُقُّ أشقى على

النفس من الكفر؟!

هَلَلُ المسلمون فرحين، وقد رفعوا أكفَّهم ضراعةً إلى السماء:

الحمد لله .. الحمد لله! ..



الفصل الخامس عشر

ما أفسى أن تعايش الظلم أيامًا، وشهورًا!.. تصحو، وتنام عليه!.. تتنفسه في كل ذرة هواء تحتويها بأنفاسك!.. تراها في كل مكان من حولك!.. لكن تهون مشكلاتك حينما تتلهى عنها بمواساة أحزان مَنْ حولك!.. فلو قارنتَ حالكَ بغيركَ ستجدُ من هو أفسى حالاً، وأشدَّ بُؤساً!.. وإذا ما اقتسم الناسُ همومهم حتماً ستهون!

هكذا وجد (ماهان) نفسه.. كان الظلم قابلاً في كل شيءٍ من حوله، وكأنه تجسّد في شخوص رفاقه الذين اكتظّت بهم الزنازين.. كل واحدٍ منهم صورة حيّة على الظلم، والقهر..

وجد نفسه قصةً من بين مئات القصص المتشابكة التي تُولف رواية المنكودين في عالم البؤس والأسى، فجميع القصص تتشابه، بل وتتطابق في كثير من تفاصيل أحداثها!.. والجاني يستطيل في ظلمه بلا نهاية، والمظلومون يُدفعون بأيدي جلادهم إلى مصيرهم المحتوم، إمّا في حفرةٍ بباطن الأرض موتى، أو في قيو مظلم مسجونين!.. والفارق بينهما ليس ببعيد؛ فالجميع فُقدت ذكراهم.. ولا تزال جثثهم تطفو على سطح بحر النسيان!.. الموتى أفضوا إلى ما صاروا إليه، وانتهت آلامهم على الأرض، والمسجونون لا تزال صفحات حياتهم تجري بمداد آلامهم، وأحزانهم..

أليس لهذا الظلم نهاية؟!.. حَدَّثَ بها (ماهان) نفسه، وتردّد صداها في كل شيء من حوله.. فالجميع يتشابهون في الأسى، والحزن..
وجده شاحبًا كالشبح يلفّه الظلام.. يجلس قُبَالَتِهِ يتحدث مع رفيق له حديثًا من نوع الأحاديث الجانبيه التي تخفّف من آلام وحدتهم.. كان صوته مألوفًا لديه! حاول أن يتذكّره!.. أجهّد (ماهان) ذاكرته لكنها لم تسعفه! دَقَّقَ فيما تبَيَّن له من أوصافه.. حاول أن يتعرّف على ملامحه على أثر الضوء الضعيف الذي سقط من النافذة العالية على صفحة وجهه.. اقترب منه (ماهان)، وأمعن النظر في ملامحه.. التقت عيناه بعينه..

لم يصدّق (ماهان) عينيه.. فقد ذكّره هذا الوجه بأحبّ الناس إلى قلبه (جومان)!.. إِنَّهُ أخوها (دَرام)! نعم.. لا يزال يذكر اسمه رغم مرور سنوات وسنوات.. لم يكن صديقًا له، فقد رآه مرّاتٍ قليلة خلال زيارته المتقطّعة لبلدته عند عودته من عمله في المدينة، وفي إحدى تلك الزيارات علم أنّه التحق بالجنديّة، ومن يومها لم يَعُدْ!!

خاص (ماهان) في ذاكرته فترة كانت كافية لِيُعْمَلَ (دَرام) هو الآخرُ عقله، ويقدح ذاكرته.. لم يكن الأمر سهلاً.. فإلى جانب الذكريات البعيدة التي انطمست آثارها في ذهن كليهما كان دور السنّ واضحا، فقد غيّر بعض الشيء من ملامحهما!

تعارفا.. تعانقا عناق الأخوين اللذين لم يعد لأحدهما من عالمه غير صاحبه.

كان (دَرام) يحمل إليه رغم الأسى، والأحزان أخباراً طيبةً.
طمأنه على أخويه (شودار) و(زاران) فقد صحبهما بعض فترات الجندية،
ورافقاه في السجن.. لم يكن ببعيد عنهما، كان معهما حتى جرت التقلبات
الآخيرة منذ أسابيع قليلة، ونُقِلَا إلى زنزانة مجاورة.. كان على علم بموت أبيه
الشيخ (ميراز)، لكنّه لم يكن يعلم بما جرى بعد ذلك، وكان أبشع!
لن يتصور أن يجري لأخته ما جرى، فالموت أهون من الرق بعد الحرية!!
ماذا جنت (جومان) لتلقى هذا المصير المؤلم بعد أن فقدت أسرتها،
وبيتها، وكل شيء؟!!

اصطدمت التساؤلات في العقليْن الحائرين.. كلُّ واحدٍ منهما يريد أن
ينتزع الطمأنينة من حديث صاحبه!.. لا بد أنّه سيجد عنده إجابةً شافية
على أسئلة كثيرة تعصف بأفكاره!.. (دَرام) يشغله مصير أخته الوحيدة،
و(ماهان) يريد أن يُطمئن مخاوفه على الأب والأخ الأكبر بما عرفه من
صحبة (دَرام) لأخويه.. وكان صمت الصدمة!.. ثم استلّت الكلمات منهما
كخروج الروح من الجسد!.. كلُّ كلمة تغرس في الروح طعنةً، ثم تنزعها
بصرخة ألم مدوية!.. الأخت اختطفت لتحيا حياة الذل، والرق!.. والأب،
والأخ الأكبر فقدّا حياتهما تحت سياط الذل، والأسر!.. لكن كيف حدث
ما حدث؟!.. سؤال واحدٌ يحتاج إلى إجابتين!.. سار الحوار بينهما في اتجاه
(جومان)؛ فالشرف أغلى من الحياة!.. ومن مات استراح، أمّا الأخت
فمعاناتها باقية!

قصّ (ماهان) على صاحبه ما جرى لأخته (جومان) بقلب مجروح.. حاول أن يطمئنه على وضعها في القصر وإن كان يحتاج إلى من يطمئنه عليها فقد رآها مؤخراً بخير وأتم صحة، ولا تزال ابتسامتها تملأ ذاكرته!

ثم انتقلت دفّة الحديث إلى أسي (ماهان) بفقد الأب والأخ، من بعد الأسي بفقد الحبيبة.. مات الأب بشيخوخته الفانية، ومات الأخ بأسقام بدنه.. كلاهما انتزعت روحه قسراً تحت وطأة التعذيب! لم يتحملا فماتا في العذاب!.. تذكر (ماهان) أمّه التي قتلها الظالمون هي الأخرى في غيبته!

أكبّ الرجلان على أحزانها يبكيان، لكن الله هوّن عليهما في سجنهما برفقتهما معاً فكانت سلواهما.. ولا يزال القدر رحيماً بـ(ماهان) فقد حفظ له أخواه، بل وراوده الأمل أن يلقاها عن قريب..

دار في رأسه سؤالاً طرحه على صاحبه..

لكن كان آخر عهدي بك وأنت في الجندیّة، ثم التحقّ بها أخويّ لقتال بعض قبائل العرب المتمردة، فكيف ينتهي بك الحال في السجن أنت وهما؟! ألم ينتصر كسرى في حربه تلك؟! وهل يكافئ المنتصرون بالسجن؟! ضحك (دّرام) ضحكة ساخرة، ثم انقلبت إلى دموع اغرورقت بها عيناه..

قال (ماهان) متعجباً:

لم تسخر مني يا صديقي؟! ألم تحرزوا النصر في معركتكم كما أعلن كسرى في طول البلاد وعرضها؟! ألم تؤدّبوا قبائل العرب المارقة كما ادّعى؟!!

قال (دَرام) في أسي:

لو كان ما حدث يُدعى نصرًا، فلم رمي بنا في سجونهِ؟! إنَّها الهزيمة..
وما هزمنا إلا غروره، وكبره! هزمنا حين وضعنا في حربٍ لا نعرف أبعادها
على غير استعدادٍ، أو تدريبٍ!.. حرب نقاتل فيها على غير عقيدة، ولا روح!
نقاتل دفاعًا عن اسمه! اسم ملكٍ دَمَّرَ حياتنا، وأوردنا المهالك! ثم يَحْمِلُنَا
وزر الهزيمة، فيقتل من الجيش مَنْ يقتل، ويسجن مَنْ يسجن! ثم يُعلن في
أرجاء المملكة أنباء نصره.. هراء!!

قال (ماهان):

حقًا إنه لم يتبجَّح ظالمٌ.. لم يزل ينكبنا برزاياه التي لا تنتهي!.. وهاهي
حروبه مع الروم تنتهي بخسارة تمتلأ على إثرها سجونهِ من جديد.. يا له مِنْ
حاكم أخرق!.. ضَيَّعَ جيوشنا بخطواتٍ غير محسوبة.. حرب لم يحرِّكه فيها
إلا طمعه، وكبره.. ونكب كل بيتٍ في قَتيلٍ، أو سجينٍ من خيرة أبنائه!..
وضيَّعَ موارد بلادنا!.. أثقل على الناس بالضرائب طوال تسع سنواتٍ كاملة
في حملته الأخيرة!.. وقد زادت كراهية الناس له بما عسف بهم جباته سرقةً،
ونهبًا.. وبما سبى من بناتهم، وأورث أهلهم الذلَّة، والعار!

وبعيدًا عن ظلمة السجن بباطن الأرض.. فوق.. عاليًا نحو السماء..
في القصر الأبيض ذو الأركان العالية، والأعمدة المرتفعة، والشرفات
التي تجمَّع بخيال من حلَّ بها، وتغرِّقه في شاعرية المكان البديع من حوله،

حيث الحقائق الغناء.. الأشجار، والثمار، وبساط الخضرة الممتد، والأطيار
المغرّدة.. إنّها بحقّ الجنة على الأرض!

وفي داخل القصر النعيم المقيم بشتّى صورته وألوانه.. الشموع، والعطور،
والبخور.. الأسرّة المطرّزة، والستائر المشغولة، والبُسُط، والنفارق،
والمسكّات.. الجواهر، والتحف.. الذهب، والفضة.. كل ما لذّ وطاب من
الثمار.. الكئوس المترعة بالشراب.. الجواري، والمعازف، والولدان.. الخدم،
والحرس، والعبيد.. حياة الترف والنعيم.. الملك الوطيد، والسلطان..
كسرى وزوجاته، وآلاف الحريم ملك اليمن.. ثمانية عشر من الأبناء بخلاف
البنات.. أمراء، وأميرات يرفلون في النعيم.. يأمرّون، وينهون.. صورة ممتدة
من الملك لا تنقطع يتوارثه الأبناء ومن بعدهم الأحفاد.. ملكٌ يورثه السلف
للخلف..

ولا زالت (شيرين) تدفعها المطامع في انتزاع ولاية العهد لولدها
(شهريار).. يحركها حبّ التملك، وكيدُ النساء.. تعودت أن تنتزع ما تريد
بأسلحة فتنتها، وجمالها.. جمالها الذي لا زالت تحتفظ به رغم مرور سنواتٍ
وسنوات.. سهّمها النافذ إلى قلب الزوج الواله فتأسر روحه، وتسبي فؤاده..
أقسمت بما تمتلك من مفاتيح قلبه! لن تترك هذا الأمر لابن ضرّتها التي
أزاحتها من طريقها منذ سنوات مهما تكبّدت من مشكلات.. ستقاتل حتى
الرمق الأخير.. لم يكن الأمر سهلاً، فقد أصبح لولي عهده (شيرويه) شوكة،
فلديه خاصة في القصر.. حرس، وجند.. لن يسلموه أبداً لشرّ يصيبه، أو
يتخلّوا عنه..

لكن كسرى هو الملك الذي لم يزل يجمع كلَّ الخيوط بيده!
سعت (شيرين) بكل طاقاتها إلى دفع (شهریار) في جميع المسالك التي
تصنع منه ولياً للعهد مثل أخيه.. كم عَنَّفَتْه على نزقه، ونزواته كي يلحق
بأخيه في سباق ولاية العهد!

كم ألمحت لكسرى عن مخاوفها من ابن (ماريا) حفيد إمبراطور الروم
الغابر! لم تزل به حتى أثارت في رأسه المخاوف.. كان ينظر إلى ولاية العهد
أنَّها بعيدةٌ بعيدة.. فالملكُ ملكُه، ولن ينازعه فيه أحدٌ، وسيطول به العمر إلى
أبعد بكثير من عمر أبنائه وأحفاده!

لم يَرُقْ للمَلِك أن تحدِّثه (شيرين) أو غيرها في مُلْك يأتي من بعد انقضاء
أيامه.. وكم ضاق كسرى بهذه الفكرة التي أصبحت تحاصره رغماً عنه حتى
في أحلامه! فقد رأى في منامه رؤيا أفزعته!.. رؤيا مشؤمة تُنذر بزوال مُلكه!
أصبح كسرى وقد جمع منجميه، وكهنته، وعرَّافيه فأخبرهم برؤياه..
تقدَّم كبيرهم، فوقف بين يديه، وقال:

مولاي.. كسرى العظيم.. ملك الملوك!.. دامَ مُلككم، واستقرت أركان
دولتكم في ظلِّ حكمكم الرشيد!.. لقد سمعنا لمقاكم، وقد وافق ذلك ما
اجتمعنا عليه مما خبرناه من علم النجوم، والكهانة.. أنه سيُولد لبعض ولدك
غلامٌ يكون خراب هذا المجلس وذهاب المُلك على يديه.. وعلامته نقصٌ في
بعض بدنه.. هكذا أخبرتنا النجوم يا مولاي.. وهذا تفسير رؤياكم.
أصابته تلك النبوءة بهمٍّ وتشاؤم، ونزل هذا القول من نفسه منزلاً عظيماً..

لكنّه وهو الملك الجبار مرهوب الجانب لن يدع تلك الترهات تنال منه!
أقسم بعزّه، وسلطانه، وبمجد آبائه.. سيهزم تلك النبوءة المشؤومة،
سيحول دون تحقّق ذلك.. سيغيّر الأقدار!.. هكذا سوّل له غروره! وتمادى
في ظلمه! وظلم ذوي القربى أمرّ، وأبشع! كان كسرى ظالماً جشعاً لا يقف
لطمعه شيء!

أصدر أمره فمنع أبناءه عن نسائهم، وحبسهم جميعاً.. فقد أنزلهم
ب(بابل)، وجعل عليهم حرساً، ومنعهم من التصرف في أموالهم..
وهكذا تعدّى في ظلمه جميع الحدود، وتجاوز في غيّه!

أمن أجل نبوءة يسلب أبناءه حقّهم في الحياة؟! يسعى في بتر ذريتهم
لينقضي ذكرهم، ولا يبقى إلا ذكره! يمنعهم حقّهم من الزوجات، ويستأثر
لنفسه بالآلاف منهن.. فلا يحقّ لأحد أن يعيش سواه! ولا يجوز لأحد أن
ينعم غيره!!

هذا في محيط أبنائه، والابن فلذة كبد أبيه، فما بالكم بأفراد شعب هم في
عرفه عبيد أذلاء؟! وظلمه لهم أعلى مراتب العدل، فيكفيهم شرفاً أنهم تحت
وطأة ملكه! يقتل، ويسجن، ويستبيح.. يتنزّع منهم أرواحهم، وحياتهم،
وشرفهم كيفما يشاء!!



الفصل السادس عشر

لم يُمهّل ذلك الرسولُ حاجبَ الملك حتى يبلغه بمقدمه، فدلف بقوة وحزم إلى قاعته المكتظة بوجوه القوم، والأعيان.. اندفع كالسهم المارق يشتدُّ نحو الملك!

لم يكن هذا الرسول في حاجةٍ إلى أن يُعرِّف نفسه، ولم يكن يغيب عن فطنة الملك معرفة الرجل، ولا معرفة مَنْ أرسله، فكلاهما يخضع له، وكلاهما يأتمر بأمره، ويخضع مُدْعِنًا لمشيئته وحكمه!

كان هذا الوافدُ رسولُ كسرى، وكان الملك هو (باذان) ملك اليمن أو بالأحرى عامل كسرى على اليمن، وكان كسرى (أبرويز) قد ضَمَّها لملكه، وبسط نفوذه عليها منذ ما يقارب ربع قرن^١..

(١) ففي عهد كسرى (أنو شروان) جاءه (معد يكرب سيف بن ذي يزن) الأخ غير الشقيق لملك اليمن يطلب العون من كسرى لاسترداد ملكه على اليمن من (مسروق بن أبرهة الأشرم)، فأجابه إلى طلبه وأمدّه بجيش من المسجونين جعل عليهم قائده (فاهريز)، فهزم جيش (مسروق) وطرده، واسترد لـ(سيف بن ذي يزن) العرش، وكان ذلك فيما بين عامي (٥٧٥م - ٥٧٧م)، وفي عام ٥٩٨م أرسل كسرى الثاني (أبرويز) حملة عسكرية ضمت اليمن إليه بشكل رسمي، وجعلها تابعة للمملكة الفارسية، ووضع عليها عاملاً له، تمامًا كما كان (النعمان بن المنذر) ملكًا على الحيرة من قبل كسرى.

وكان بادياً من ملامح الجدّة، والصرامة التي كست وجهه وهو يُسلّمه الرسالة ما آل إليه أمر كسرى من ثورة، وغضبٍ.. كانت رسالة كسرى وقد فضّها (بازان) على الفور محدودة الكلمات، واضحة المعاني، إلا أن الأمر كان يحتاج إلى مزيد من الشرح، والتوضيح، وإلقاء الضوء على تتابع الأحداث، كي تكتمل الصورة في ذهن السامع فيستجيب للأمر على خير وجه.

استغل الملكُ حالة التعب التي كانت بادية على ذلك الرسول من وعثاء السفر، وبُعد الشُّقّة، فأنظره قليلاً، وأمّله بعض الوقت في الردّ عليه ريثما يسترد المسافر عافيته.. وهي فرصة ليستفسر الملكُ هو وجلساؤه عمّا أهتمه من كلمات الرسالة العجيبة!.. فَمَنْ (محمد) هذا الذي لم نسمع به من قبل؟! وكيف لرجل من البدو الأعراب مثله أن يثير مخاوف كسرى ملك الأرض حتى يبعث مَنْ يأتي به على هذه الدرجة من السرعة؟!!

وفي الغد جاء رسول كسرى من جديد يستأذن على الملك، وقد بدت عليه علامات الارتياح، وذهبت عن قسّات وجهه آثار التعب، فحيّاً الملك ومجلسه الذي اكتمل نصابه بالأشراف، والوجوه، والأعيان من أهل اليمن، والفرس..

رَحَّب (بازان) برسول كسرى، وأجلسه عن يمينه، وطفق يتحدث، و(بازان) ورجاله ينصتون في دهشة ووجوم، وكأن على رؤوسهم الطير:

اعلم يا حاكم اليمن أيّها الملك (بازان)! واعلموا أهل الفضل من وجوه القوم والأعيان في بلاد اليمن السعيد أن الأمر جلل! وما قدِمْتُ إليكم من

قَبْلَ ملك الأرض إلا في أمر عظيم.. لقد خَلَفْتُ من ورائي كسرى يتلَمَّظ غَضَبًا، ويتميَّز غِيظًا، وإذا لم نَطْعُه ونمثِّل لأمره لَعَمَّنَا جميعًا غَضَبه، وأهلكنا انتقامه! وما تركت صهوة فرسي إلا وأنا بمجلسكم الكريم.

اعلم سيدي أنه منذ بضع سنوات وقع في ملك كسرى العظيم أمرٌ أفرعه فجمع له الكهان، والمنجمين من أرجاء مملكته!

أصبح يومًا وقد انقصم طاقُ ملكه، وانخرقت عليه دجلةُ العوراء فتهدَّم موضع عرشه، فما كان منه إلا أن بطش في يوم واحد ببائة من الكهنة، وأهل التنجيم!.. ثم مرت فترة ليتكرَّر الأمر على صورةٍ أشد، فقد زادت دجلةُ زيادةً عظيمة لم يُرَ قبلها ولا بعدها فانتسف ما كان بناه كسرى، فأمر جنده بإغلاقتها فغلبهم الماء، ولَمَّا انتقل بكرسي عرشه إلى موضع آخر من البطائح طما الماء على الزرع فأغرقه!

ولم يلبث قليلاً حتى حدث ما أغمَّه، وأفقده صوابه!!
عقدت الدهشة حاجبي (باذان) ورجاله، فقال متساءلاً:
وما ذاك؟!

واصل رسول كسرى حديثه قائلاً:

تجرأ رجلٌ من الأعراب ودخل مجلس كسرى!.. كان رجلاً أشعث أغبر تكسوه ثيابٌ رتَّة لا تليق بحضرة كسرى العظيم، ليس فيها موشىٌ بذهب ولا فضة، ولا يعلوه شيء من مظاهر الزينة!.. نزل عن فرسٍ عجفاء، ضامرة البطن فربطها عند سور القصر، ووقف بمجلس كسرى غير رакعٍ ولا ذليلٍ!

لا يأبه لسلطانه العظيم، وملكه المبهر! لا يخطفه بريق تاجه، وأساوره،
وذهبه، وجوهره!.. وتقدّم إليه برسالة^١..

لم يشأ (باذان) مع ما زاده من دهشة أن يقطع عليه حديثه فأشار إليه
ليواصل كلامه متعجلاً، وقد قتله الفضول، فواصل الرجل قوله:
جمع كسرى وزرّاءه ومستشاريه، وكنت من بين الحاضرين لمعرفتي بلغة
القوم، وكنت أترجم إلى الملك رسالته:

”بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس..

أشار كسرى إليّ، فنقلتُ إليه كلامَ الرجل كما سمعته..
تمعّر وجهه، وغضب غضباً شديداً حتى خشيت أن يبطش بيّ وبمن كان
بحضرته، وصرخ في ثورة غضبه:

أيعشى مجلسي رجلٌ يذكر اسمَ أحد رعايائي قبل اسمي؟!
لم يلتفت الرسول إلى ثورة كسرى، وواصل قراءته واثقاً، وأنا أنقل كلامه
إلى كسرى كما هو، وكسرى يتلمّظ غيظاً، ويشتعّل وجهه بحمرة الغضب،
قال:

(١) هو الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه.

”سلامٌ على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. أَدْعُوكَ بِدَعَاءِ اللَّهِ، وَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً لَأُنْذِرَ من كان حيًّا، ويَحَقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ، فَأَسْلَمَ تَسْلَمَ، وَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ إِثْمَ الْمَجُوسِ عَلَيْكَ“.

فرغ ذلك الرسولُ من رسالته، وأنا أسمع كلامه وأقرع به سمع كسرى، وقد غضب غضباً لم يغضب مثله من قبل.. وكنت أنا والجمع من حوله قد تجمّدت الدماء في عروقنا من الخوف..

تفجّرت الحيرة على لسان (بازان) كلماتٍ، وكأنهن مفاتيحُ أبواب عقله التي غلّقت من فرط الدهشة، والعجب:

(محمد)؟!.. رسول؟!.. دين الإسلام؟!!

ثم استيقظ في غمرة تفكيره على سؤالٍ قرع عقله وعقوله من معه، فقال متعجباً:

وماذا كانت ردّة فعل كسرى إزاء هذا الجريء المتعجرف؟!!

قال الرجل:

استقبل كسرى كلمات الرجل في حالة شديدة من الغضب لدرجة أنّه التقط الرسالة منه ومزّقها إرباً، ثم انفجر قائلاً:

يكتب إليّ بهذا وهو عندي!.. لولا أن الرسل لا تُقتل لضربتُ عنقك!

ولشدَّ ما حَيَّرَنِي موقف ذلك الرسول الذي لم تبدُ عليه مقدار ذرةٍ من خوف حتى أَنَّهُ وَلَّاهُ ظهره وانصرف.. وقد شُغِلَ كسرى عنه بأمر الرسالة! وأمر كسرى بكتابته، فكتب إليك ما قرأته عليك، فعليك بالسمع والطاعة!

أرسلُ إلى (محمد) هذا رجلين جليدين من عندك يقتادانه في الأغلال إلى كسرى تمامًا كما أمر!

وأنا عائدٌ من فوري إليه، وقد أبلغتُكَ أمره، فلا تبطئ عليه! وعجِّل! لئلا يحل بك غضبه، وينزل بك وبنا عقابه!

وخرج الرجل من مجلس (بازان) بعد أن خلفه وقد شلَّ عقله وتجمَّدت الكلمات على لسانه، وجلس ومنَّ حوله وكأنها على رءوسهم الطير، ثم تحدَّث إلى مستشاريه، ووزرائه، ورجال دولته ممن اجتمعوا بمجلسه:

أنتم عليَّةُ القوم، وأصحابُ الرأي، والمشورة، والتدبير من أشرف البلاد، وسادتها.. فأشيروا عليَّ برأيكم!

قال أحد الوزراء:

سيدي الملك (بازان) العظيم! أولاً وقبل أيِّ شيءٍ عليك أن تبادر بإنفاذ أمر كسرى! فنحن له أتباع، ومنَّ تجرَّأ عليه فقد تجرَّأ علينا.. فأرسلُ حملةً من رجالك الأشداء تقتحم على هؤلاء الأعراب مضاربهم وخيامهم، وتستخلص هذا الدَّعيَّ من بينهم، وأرسلهُ إلى كسرى يرُسِّف في قيوده وأغلاله!

تذرّع (باذان) بالصمت وهو يستمع إلى هذا الرأي، ثم بادره آخر بقوله:
سيدي الملك! أخشى إن أرسلنا إليه جيشاً يأتي به أن يغضب كسرى،
فأمره أهون عنده من جيش يرسله إليه، ولو كان يرى ذلك لأمرَكَ به في
رسالته إليك.. وأنا أرى هوان أمر الرجل، وضآلة شأنه، وكيفيه أن يسمع
بكسرى حتى ترتعد فرائضه هو ومن معه، فينصاع إلى أمره راجباً ويكفينا
مشقة القتال.. فلندع قتاله، وحسبنا أن نرسل إليه كقول مولانا كسرى
العظيم.

أنصت (باذان) إلى الرأيين فلم يصوّب أحدهما، ثم أشار إلى مستشاره
المؤتمن كان من أهل اليمن شريعاً بين أهله ينتسب إلى تبابعة اليمن، فلماً
وُضع (باذان) على ولاية اليمن من قبل كسرى قرّبه وأدناه - فتكلّم الرجل:
مولاي! أخشى ما أخشاه أن يكون هذا الرجل هو الرسول الذي يبعثه
الله في آخر الزمان ليعمّ بدينه الناس أجمعين، فإن عادينا قهرنا كما سيقهر
ممالك الأرض كلها.. أما سمعتم نبوءات الزمان القديم قبل أن يحتاج
الأحباش أراضينا؟!

قال (باذان):

وما ذاك؟!

قال المستشار:

أما سمعتم عن نبوءتي (شق)^١ و(سطيح) التي فسراها لأحد ملوك
التبابعة؟^٢!

قال (بازان):

سمعتُ عنهما.. كانا أعلم أهل زمانها بالكهانة وعلم النجوم، وما هلكا
إلا منذ زمنٍ يسير.. فهاتِ ما عندك!.. فكلنا آذانٌ مصغية..
قال المستشار:

رأى أحد أجدادنا من ملوك التبابعة رؤيا هالته فلم يدع كاهنًا، ولا عرافًا،
ولا منجمًا من أهل اليمن، إلا وجمعه عنده.. فلما جاءوه قالوا:
اقتصصها علينا نخبرك بتأويلها!

قال الملك:

إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبرتكم في تأويلها، فإنه لا يعرف تأويلها
إلا من عرفها قبل أن أخبره بها.
فقال رجلٌ منهم:

أرسل إلى (سطيح) و(شق)!

فبعث إليهما، فجيء بـ(سطيح) قبل شق، فقال له الملك:

-
- (١) شق بن صعب بن يشكر بن رهم، وقيل سُمِّيَ بذلك لأنه كان نصف رجل، وكان
مستلقياً لا يقوم، وكان أعلم أهل زمانه.
(٢) ربيعة بن نصر أحد ملوك تُبَّعَ باليمن.

يا (سطيح)!..! إني رأيتُ رؤيا هالتي فأخبرني بها!..! فإنَّك إن أصبتَها،
أصبتَ تأويلها..

قال (سطيح): رأيتُ حُمَّةً^١، خرجتُ من ظُلَمَةٍ^٢، فوقعتُ بأرضِ تَهَمَةٍ^٣،
فأكلتُ منها كلَّ ذاتِ جُمُجُمَةٍ^٤..

قال الملك:

أصبتَ.. ما أخطأتُ منها شيئاً يا (سطيح)، فما عندك في تأويلها؟
قال (سطيح):

أحلفُ بما بين الحَرَّتَيْنِ^٥ من حَنَشٍ^٦، لتهبطنَ أرضكم الحَبَشَ، فلتَمْلِكُن
بين أَيْنٍ^٧ إلى جَرَشٍ^٨..

قال الملك:

وأبيكَ يا (سطيح)! إن هذا لنا لغائظٌ مَوجِعٌ، فمتى هو كائن؟ أفي زماني
هذا أم بعده؟ وسيدوم هذا من ملكهم أم ينقطع؟!

(١) حُمَّةٌ: قطعة من الفحم المحترق.

(٢) ظُلَمَةٌ: جهة البحر.

(٣) التهمة: الأرض ناحية البحر.

(٤) ذات جُمُجُمَةٍ: إنسان.

(٥) الحَرَّة: أرض فيها حجارة مدببة ناتئة سوداء وكأنها احترقت بالنار لا تصلح للسير.

(٦) الحنَش: الحية العظيمة السوداء.

(٧) أَيْنٌ: موضع بجبل عدن.

(٨) جَرَشٌ: مدينة باليمن.

قال (سطيح):

لا، بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين، ثُمَّ يُقْتَلُونَ وَيُخْرَجُونَ مِنْهَا هَارِبِينَ..

قال الملك:

وَمَنْ يَلِي ذَلِكَ مِنْ قَتْلِهِمْ وَإِخْرَاجِهِمْ؟!

قال (سطيح):

يليه إِرْمُ ذِي يَزْنَ، يُخْرَجُ عَلَيْهِمْ مِنْ عَدْنَ، فَلَا يَتْرُكُ أَحَدًا مِنْهُمْ بِالْيَمَنِ..

قال الملك:

أَفِيدُوهُ ذَلِكَ مِنْ سُلْطَانِهِ أَمْ يَنْقَطِعُ؟!

قال (سطيح):

لا، بل ينقطع..

قال الملك:

وَمَنْ يَقْطَعُهُ؟!

قال (سطيح):

نَبِيُّ زَكِّيٍّ، يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنْ قَبْلِ الْعَلِيِّ..

قال الملك:

وَمَنْ هَذَا النَّبِيُّ؟!

قال (سطيح):

رجلٌ من ولدِ غالبٍ بن فهر بن مالك بن النضر، يكون الملكُ في قومهِ
إلى آخرِ الدهر..

أطبق الصمت بالمكان قليلاً، ثم بادر (بازان) بالسؤال عن تأويل (شق)،
فأخبره مستشاره المؤمن، قال:

ثم أتى بـ(شق) على محفّةٍ فقال له الملك كقوله لـ(سطيح)، ولم يخبره بما
قال (سطيح) لينظر أيتفقا أم يختلفا، فقال (شق):

رأيت حُمّةً، خرجت من ظُلَمَةٍ، فوَقَعْتُ بين روضةٍ وأكمة، فأكلت منها
كلَّ ذاتِ نَسَمَةٍ..

قال الملك:

ما أخطأت يا (شق) منها شيئاً، فما عندك في تأويلها؟!

قال (شق):

أحلفُ بما بين الحرّتين من إنسان، لينزِلَنَّ أرضُكم السودان، فليغلبن على
كلِّ طفلة البنان^١، وليملكنَّ ما بين أبين إلى نجران.. ثم يستنقذك منها عظيمٌ
ذو شان، ويذيقهم أشدَّ الهوان..

(١) طفل البنان: كناية عن الضعف، يقال امرأة طفلة الأنامل أي ناعمتها، والأنامل
والبنان هما أطراف الأصابع.

قال الملك:

ومن عظيم الشأن هذا؟!

قال (شق):

غلامٌ ليسَ بدنيٍّ ولا مُدَنٍ، يخرجُ عليهم من بيتِ ذي يزن..

قال الملك:

أفيدوم سلطانه أم ينقطع؟!

قال (شق):

بل ينقطع برسولٍ مرسل، يأتي بالحقِّ والعدل، بين أهل الدين والفضل،
يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل..

قال أحد الحاضرين مؤمناً على حديث مستشار (باذان):

وقد تحققت تلك النبوءة بحذافيرها، فقد ضمَّ الأحباشَ اليمنَ.. ملكها
(أبرهة)، ثم ورثه ابنه (مسروق)، ففرَّ (سيفُ بن ذي يزن) إلى بلاد فارس
فاستعان بكسرى (أنو شروان)، الذي أرسل جيشاً يعينه على قتالهم حتى
استخلصها من الأحباش ودانت اليمن من جديد لأهلها، ثم قام كسرى
(أبرويز) العظيم بضمها نهائياً إلى الإمبراطورية الفارسية..

قال (باذان)، وهو يمعن التفكير:

إذاً لم يتبقَّ من النبوءة إلا النبوة والرسالة؟! وربما كان هذا الرجل هو
الرسول المنتظر، وحينئذٍ لن تكون لنا طاقة به، وسيعلموا أمره فوق كسرى

نفسه.. والرأي عندي أن أرسل إليه رجلين من أهل الرأي والتدبير لنسبر غوره، ونقف على أمره، فإن كان دعياً كسبنا من ورائه حظوة لدى كسرى حين نسلمه إليه، وإن كان حقاً نبياً فسيكون للأمر تدبيرٌ آخر..

استصوب الحاضرون رأيَّ (بازان) ومدحوا فيه الحكمة، وبعد النظر..

قال (بازان):

أشيروا عليَّ برجلين!

قال مستشاره المؤتمن:

أشيرُ عليك برجلين خبيرين ذوي رأيٍّ من أوسط أنساب الفرس وأعيانهم.. (بابويه)، و(خرخره)..

فأمر (بازان) بهما فجاءاه على الفور، فكلَّفهما بالمهمة، وسلَّمهما رسالةً إلى (محمد) يأمره فيها بالمسير معهما إلى كسرى..

انطلقَ الرجلان إلى حيث أمرهما (بازان)، فلما سمعتُ قريشُ بذلك فرحوا، وقالوا:

أبشروا!.. فقد نصب له كسرى ملك الملوك.. لقد كُفِيتُم الرجل!!

قدم الرجلان على رسول الله ﷺ بالمدينة فأخبراه بالأمر، ودفعاً إليه بالرسالة، وقالوا:

إن فعلتَ كتبَ (بازان) فيكَ إلى كسرى، وإن أبیتَ فهو يهلكك ويهلك قومك.

قال رسول الله ﷺ :

”ارجعاً حتى تأتيان غداً!“

فلما عادا في الغد لقيا رسول الله ﷺ أخبرهما بوحى من السماء أن الله سلط على كسرى ابنه (شيرويه) فقتله في شهر كذا وليلة كذا، وقال ﷺ :
”قولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ملك كسرى وينتهي منتهى الخف والحافر“، وقولا له: ”أسلم!.. فإن أسلم أقره على ما تحت يده، وأملكه على قومه“.

عادا رسولا (بازان) إليه فأخبراه بما جرى من أمرهما وأمر من وفدا من عنده، فقال (بازان):

وربي! ما هذا كلام ملك، وإنني لأراه نبياً.

وما يضيرنا أن نتظر.. فإذا أثبتت الأيام صدقه فلا نشك في أمره، وإن لم تقم الأمور كما قال رأينا فيه تدبيراً!

فما لبث (بازان) قليلاً حتى قدم عليه كتاب من قبل (شيرويه) ابن كسرى الثاني يخبره أنه قتل كسرى (أبرويز) غضباً للفرس لما استحل من قتل أشرافهم، وأمره باتخاذ الطاعة له باليمن، وبالكف عن الرجل الذي بُعث في بلاد العرب..

فما كان من حاكم اليمن، وجميع من حضر مجلسه إلا أن أسلموا جميعاً، وآمنوا بنبي آخر الزمان ومعجزته المبهرة.

وهلك كسرى (أبرويز) لينغلق بابٌ من أبواب الظلم والطغيان، وينفتح
للإنسانية على شمس الحرّية طاقة، تزرع في النفوس الأمل في قدوم عصرٍ
جديد يشيع فيه الحقُّ والعدل، وينجلي الظلمُ والظلامُ.





الفصل السابع عشر

لم يكن أحدٌ يتوقع أن تسير الأمور في القصر إلى ما سارت إليه.. غير أنَّ الظلم لا بد وأن تكون له نهاية.. فلقد تجاوز كسرى في الجور مداه!.. طغى، وتجبرَّ، وبغى، وأسرف في الظلم!.. فضربه الله من الظلم بما هو أشدُّ وأنكى! قتله ابنه طمعاً في الملك.. وهل بعد قتل الابن أبيه ظلم؟!.. والابن من سعي أبيه، وما زرعه فيه حتماً سيحصده!

كان لا بد لطوق الظلم أن ينكسر! فقد فسدت على كسرى قلوبُ العامة والخاصة، وازدادت كراهيةُ الجميع له بصورةٍ لم تجتمع من قبل في شخص ملكٍ أو حاكم!.. فقد عسف بالناس وظلمهم، وأطلق جباته ينهبون ويسلبون، فجمع في قصره ما لا يُحصَى من المال.. جمعه من دماء شعبه الذي لم يعد لأفراده ما يُقيم أودهم من طعام، أو ما يستر أجسادهم من لباس! علاوةً على ما أجرم في حقِّهم، فقد سبى بناتهم، وأورثهم الذلة والخزي! أطفالاً في قلب كل أم وأب الفرحة بقُرَّة العين وفلذة الكبد ليقمهن بين حريمه في قصره بالآلاف، ليكنَّ له ملك اليمين، وهن بنات شعبه ولسن أسيرات من أعدائه!!

أهدر موارد بلاده في زينتته، وعظمتته، وهيلمان سلطانه!.. دمرَ مواردها في حروب كلها إلى هزيمة.. لم يخضها إلا لهواه، ولم ينتصر فيها إلا لنفسه، ولم يدفع بجنده فيها إلا دفاعاً عن اسمه ومجده الشخصي.. قُتل منهم آلاف!

وحُبِسَ في الثُغور مثلهم سنين طويلة، ففقد أهلهم مَنْ يعولهم، وبارت أراضيتهم، وباعوا ما يملكونه، واستدانوا، وقاسوا مُرَّ الحاجة والفقر! جاء بخيبتهم فحملهم مسئولية إخفاقاته وهزائمه المتكررة، فكان جزاءهم بعد ما لقوا بأس عدوّه وعدوهم السجن!!

ولقد ضجّت الشكوى من ظلمه بما امتلأت به سجونهم! عشرات الآلاف من المسجونين بغير ذنب ولا جناية!.. لبثوا في غياهب سجونهم أعماراً فاقت سنوات حياتهم التي عاشوها خارجه، وفيهم جنده، ووجهاء قومه، وشر فائهم، وكل من خالفه الرأي!

ثم يأتي بعد ذلك فيصدر أوامره بقتل جميع من بسجونهم!؟

سنة وثلاثون ألفاً دفعةً واحدة؟!

ويأمر بقتل جميع مَنْ بيده من جند الروم الذين أسرهم على مدى سنوات طويلة من حروبه معهم!؟ مستهيناً بأرواحهم مستخفاً بما في أيدي الروم من أسرى في مقابلهم!!

فأَيُّ ظلمٍ؟! وأيُّ تبجحٍ؟!

جلس (ماهان) و(دَرام) في جمع قليل من رفاق محبسهما يحيون أمسياتهم المعتادة في ليل السجن الطويل.. يدفعون بصعوبة ساعاته المثاقلة البطيئة.. يسرقون منه أوقاتاً متفرقة في حديث شجونهم حين يغفل عنهم الحرس، أو يحين وقت تناوب الحراسة.

ليلة معتادة تغلفها كآبة ظلمتها الحالكة، وظلمة الزنازاة الضيقة، وظلمة أنفسهم التي ضاقت عليهم فأشبهت الزنازين، تحبس آمالهم وأحلامهم، وتخنق حريتهم.. وقد جمعتهم حياتهم المريرة، ووحد بينهم اليأس.

سارت الأمور على نحو ممل رتيب لا يُنبئ عن أيّ تغيير على المدى القريب، أو البعيد.. صمتٌ نحيبٌ بدا متناغماً مع إيقاع الظلام الدامس الذي يلف كل شيء من حولهم، لا يقطعه إلا أنين الأسى لمسجونٍ فقد الأمل في النجاة، أو صرخة يأسٍ نذت من صدر وافدٍ جديد لم يعتد على المكان بعد.. لم يدُر بخلد أكثرهم تفاؤلاً ما سيجري بعد ساعاتٍ من الأحداث، خاصةً بعد أن تسرّب إليهم الخبر الذي أجهز على البقية المتبقية في نفوسهم من أمل.. فقد أمر كسرى بقتلهم جميعاً!!

وفجأة تشيع في أرجاء المكان فوضى عارمة.. تصدر أوامر مُشدّدة بفتح أبواب السجن تواجه في البداية من القائمين عليها بالرفض، ثم يذعنون لها بالتسليم، فقد كانت الأوامر من القصر.. ظنّ الجميع أنها النهاية، وأن اقترَب أجلهم.. سيلقون حتفهم بأمر كسرى!

لكن الأمور بدت بعد قليلٍ جليّة واضحة.. إنها الحرية تسعى إليهم بعد أن أعجزتهم الحيل! إنها الثورة على كسرى الظالم!

تلقى (ماهان) ورفاقه الأمر بحذر، فقد عاين هو وإخوته منذ سنواتٍ الحرية أملاً كاذباً في مشهدٍ كالذي يعيشونه اليوم، ويخشى أن يتكرّر من جديد!

أحجم عن المغادرة.. دفعته حيرته إلى حالةٍ من الشلل أعجزته عن الحركة، لكنه بين الحشود الكبيرة دُفع دفعًا!

تبَيَّن الجميعُ أن الأمر ليس لكسرى، وإنما لابنه (شيوخه) الذي ثار بجمعٍ من كبار دولته على كسرى..

لقد كان لأنباء الهزيمة أمام الروم دورها في إشعال ثورة العاصمة عليه بعد أن أضاع بحماقته مجد آبائه وأجداده، ولم يحرز من ذلك المجد إلا ما زَيَّن به قصوره، وتزيَّنت له به جواريه!!

ومضى الناس من العظماء إلى (بابل) فأخلوا سبيل أنبائه الذين حبسهم لا لشيءٍ إلا لنبوءةٍ خرقاء، وتأويلٍ منجمٍ كاذب، وساحرٍ أفاك!.. وباع العظماء لابنه (شيوخه).

وتحرَّك (شيوخه) بمن معه إلى (بهرسير) الجانب الآخر من المدائن - في جُنح الليل فأطلق المسجونين الذين رفض قتلهم، فاجتمع له جمعٌ كبيرٌ، وانطلقوا إلى القصر الأبيض يريدون كسرى (أبرويز)، ولاذ حرسه بالفرار، وأفرَّد كسرى وحيدًا، وفرَّ هاربًا، فأدركوه في حديقة قصره وأخذوه أسيرًا، وأرسل في قيوده إلى (شيوخه).

تعوَّد (ماهان) ورفيقه أن يأخذا الأحداث على أسوئها، وألا يُسرفا في الفرحة بسقوط ملكٍ ظالم، فقد علمتهما الحياة أن عالمها القائم على الظلم لا يسقط فيه ظالمٌ إلا على يدي من هو أظلم منه.. فكان موقفهما وموقف الناس

جميعاً هو الترقُّب المشوب بالخذر، لاسيما أن دورهما الذي اعتاده كغيرهما هو دور المُتفرِّج الذي لا يخرج من جعبته إلا المشاهدة، والتأسُّف على ماضٍ قد يكون أقل سوءاً مما ينتظرهم، أو الفرحة البلهاء بمستقبل لا تستوعب عقولهم الخاوية أحداثه، ولا يملكون لأنفسهم فيه نفعاً ولا ضراً.

لم تنل تلك الأفكار بما تجهد به أذهانها من فرحتها ببلوغ الأمل في نجاتها من الموت المُحقَّق.. أقرَّت فرحتها بحريتها في قلبيهما أملاً في لقاء الأخوين المفقودين بين عشرات الآلاف من المسجونين، وفي نجاة (جومان) من أسرها..

سيلتقون جميعاً لتستقر سفيتتهم لأول مرة منذ سنين على شاطئ الحرية.. وكما أُخرجوا من غياهب السجن، سيُكتب لها هي الأخرى النجاة من قبضة ملك اتخذها جاريةً من بين آلاف الحريم، بعد أن يلقي جزاء فعلته، وتُردَّ المظالم لأهلها، ويُطلق سراحها مع بنات جنسها اللائي اختطفهن رجاله في طول البلاد وعرضها.

لكن عليهما الآن أن يخرجوا من دائرة الخطر بسرعة، وأن يبتعدا عن دائرة الصراع قبل أن يصيبهما ما يسؤهما، ثم يكون لهما مع (جومان) موقف يُكتب لها الخلاص فيه على أيديهما.. وسيلتقيان بالأخوين حتماً في الموضع الذي كان يجمعهم حتى فرقتهم الأيام، فاتخذ الرفيقان طريقهما إلى قريتهما والأمل لديهما معقودٌ في جمع الشمل.

صرخ كسرى (أبرويز) بملء فيه يسبُّ ويتوعَّد كل من حوله.. فقد خانه الجميع وتركوه حبيسًا وحيدًا!

لم يعد لكسرى بعد ملكه وسلطانه غير تمسكه بكبريائه وغروره، ولكم استطال بهما على رعيته، وتجاوز أبعد المدى في الظلم حتى أنه لم تعد في قلب واحد من رعيته ذرَّة من معروفٍ تجاهه..

أمَّا الحاشية ورجال القصر فلم تعد لهم حاجةٌ فيه بقدر تطلُّعهم إلى إرضاء كسرى جديد، وهذا مدى الزمانِ ديدانٍ أكثرهم: "عاشَ الملكُ.. ماتَ الملكُ!"..

لم تنفع كسرى اليوم إنجازات ماضيه التي دأب على التباهي بها بين إنجازات آبائه وأجداده، والتي كان يراها قوةً في الملك وتمكينًا له، بينما كان يراها واثره على عرشه ظلمًا، وعسفاً، وحُجَّةً لديه في معاقبته، والبطش به، وكم له من ثاراتٍ عنده!

احتُجز كسرى (أبرويز) في إحدى قاعات العرش، وأُحيط بحراسةٍ مشدَّدة، ومُنِع من الناس حتى يرى فيه (شبرويه) رأيًا.

دخل (شبرويه) على أبيه محبسه فجأةً في وزرائه، وحاشيته، وجنده.. يتدثَّر بكبرياء الملك الذي انتزعه بيده، بينما وقف أبوه منكسرًا، منفردًا، وحيدًا.. فأنبه وقرَّعه.. ثم خاطبه معنفاً:

إنَّ سوء فعلك حملك على ما صرت إليه!.. ألا ترى ما فعلت بنا معشر أبنائك؟! منعنا مجالسة الناس! وحرمتنا من حقنا في الزواج! وأسأت إلينا! هذا ونحن أقرب الناس إليك! فما بالك بظلمك لعامة الناس!؟

ألا تذكر آلاف الأبرياء الذين ألقيت بهم في سجونك؟!

ألا تذكر النساء والجواري اللاتي حبستهن في قصرِكَ سنين طويلة؟! ولم تكتفِ بما فجعتَ بهن أهليهن حين أسرتهن، ولكن أبقيتهن معلقاتٍ بغير زواج ومنعتهن ممن يعاشروهن ويُرزقنَ منهم الولدُ!.. وكيفيكَ ما أجرمتَ في حقِّ رعيتِكَ باستخدام العسفِ والجور في جمع أموالهم ونهب أمتعتهم حتى امتلأت خزانك، وأصبحوا أجراءً أذلاء في أرضهم وبيوتهم، وأنتَ تقيم القصور، والعروش، والحدائق، وتشقُّ أنهار الخمر واللبن لتنعم وتتلذَّذ!! وكيفيكَ تجميركَ الجنود في ثغور الروم وإيقاؤك عليهم حتى بارت أراضيتهم وذاق أهلهم الفقر، والحاجة!!

ويكيفيني من سوء فعلكَ غدركَ بملك الروم الذي أحسن إليك، وأعانك، وزوّجك ابنته! ابنته التي أسأت إليها وأقصيتها من القصر، وأسلمت قيادك وقيادنا لامرأة أخرى تستعبدنا! لقد رأيتُ أُمِّي تذبل يوماً بعد يوم، وتقتلها الحسرة وحيدةً منبوذةً، بينما أنتَ غارقٌ في ملذاتك وشهواتك حتى ماتت كمدًا!.. ألا يكفيك كل ذلك؟!

قال كسرى في تبجُّح:

أيها الابن العاق! يا قصير العمر! عجباً!.. أيقفني صغيرٌ مثلكَ على أمور ما استتب ملكي حتى وصل إليك إلا بها؟! وما أنتَ بمن يساميني في المكانة حتى أسدي إليك بنصح أو تبرير وقد تعدّيت حدك وتجاوزت منزلتك، لكنني سأخبركَ لتزداد علماً بجهلك.

اعلم أنَّ الملَّك لا يقوم إلا بالقوة، وتخويف الرعية بالشدة والبأس!.. أيها الجاهل! إنه لا يقيمُ الملَّك إلا الأموال والجند، وبالأحرى مُلك فارس الذي اكتنفه الأعداء، ولا يقدر على كُفهم إلا الجند والسلاح، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالمال، ولا سبيل إلى المال إلا بالعسف والشدة.. فاعلم أنها كهف ملكك، ولا يستقيمُ ملكك إلا به! وما كانت شدتنا على الرعية إلا سببًا في قيام الملَّك وثبات أركانه.. فاللين، والضعف لا يقيم لهذا أمرًا.

أتاحت تلك الحرية التي مُنحت لـ(أبرويز) الفرصة ليتماذى أكثر في حديثه، وكأنها ظنَّ أنَّ زمنه قد عاد فبسط يديه وأمر ذات اليمين وذات الشمال، فلم يستجب له أحدٌ، فطار صوابه، وطفق يصرخ فيهم حتى لقي من أساليب الزجر والشدة ما أعاده إلى حجمه الذي صار إليه، ثم تذكر سوء حاله فصمت صمت اليائس الدليل.

ألقي (شيرويه) بطرف إزاره وراء كتفه، وولاه ظهره مستخفًا به، واندفع خارجًا يتبعه الوزراء والحرس بعد أن أمر بتشديد الحراسة على كسرى (أبرويز) حتى يرى رأيَّه فيه.

ولم يزل عظماء الفرس به يقولون:

إمَّا أن تأمر بقتل أبيك، وإمَّا أن نطيعه ونخلعك!

فنزل على إرادتهم، وأمر بقتله.

لم تزل المصائب تتساقط على رأس (شيرين) وقد حُبست في جناحها وأُقيِم عليها الحُرَّاس، وعُزِّل كسرى في محبس لا تصل إليه ولا يصل إليها، وقد ملكَ زمامها وزمامه (شيوخه) الابن الحاقِد الذي سار على نهج أمه في مناصبتها العداء، وتنكَّر لوالده ولإخوته.

لم تصدِّق أن أحلامها قد ضاعت وتبخَّرت في الهواء بمثل هذه السهولة.. إنها النهاية!

لكنها لن تستسلم، وحتماً ستصل إليه!.. تستطيع وهي إلى جواره أن تحافظ على العرش، وسيُنهي أمر هذا الغلام الذي زَيَّن له بعض الخائنين باطله فظنَّ أنه حقاً الملك!.. وحتى إن كان الملك قد ولى عن الزوج فلا زالا يملكان المال! ستشقُّ طريقاً للفرار معه ليعيشا في مكانٍ بعيدٍ يتمرغاً في النعيم.. لكن لا بد أولاً أن تصل إليه..

كانت هذه الأفكار المحمومة تنتهب عقلها، وتجري على لسانها.. تحدَّث بها وصيفتها تارةً، وتحدَّث بها نفسها تارةً أخرى.

أرسلت وصيفتها برسالةٍ إليه مرةً بعد مرةٍ، لكنَّها صُدَّت وفي كل مرةٍ تأتيها خائبةً لا تصل إليه.. عزمَت (شيرين) على الخروج بنفسها إليه فمُنِعَتْ.. لم يستجب لها أحدٌ في القصر، وأوصدت دونها الأبواب طويلاً، وأخيراً تمكَّنت من مغادرة موضع الحريم بعد أن حُدِّدت إقامتها به أياماً.

نزلت (شيرين) مسرعةً إلى القاعة الموصدة التي تحاصر بين جدرانها الملك المعزول.. دفعت الباب.. لم تلقَ مقاومةً من الحرس!

دخلت القاعة.. رأته طريحاً مضرجاً في دمائه، وقد تجرَّد من ثياب ملكه،
وطُرح عنه تاجه، ومنطقته، وجميع زينته!!

نَدَّتْ شهقةٌ ملتاعة من صدرها بزفرة حسرةٍ ملتهبةٍ مزَّقت ذهول
صدمتها، وأكَّبت على الزوج الذي كم أَحَبَّته وكم أَحَبَّها تبكيه!.. كان
منتهى أحلامها، ومرمى طموحها البعيد.. عاشت سنوات تتمرَّغ في عزِّه،
ورُزقت منه البنين والبنات.. تنعَّمت في ملكه طويلاً ملكةً تأمر، وتنهي..
كان حصنها، وملاذها، وأمانها..

لم تجد (شيرين) من الدمع ما يطفئ نيران الحسرة، والحزن!.. لقد ضاعت
أحلامها برحيله.. لا ينبغي لها أن تعيش إلا ملكة، ولا معنى لحياتها بدونه،
لذا قرَّرت أن تنهي حياتها!

انتزعت الخنجر الذي غُرس في صدره فانسَلَّ بدماؤه، لتغرسه في قلبها،
لتختلط دماء العاشقين اللذين عاشا سوياً.. وأبت إلا أن تصحبه في رحلته
الآخيرة، حيث ذهابٍ بلا عودة!

غالبت آلامها الرهيبة وقد احتضنته، وقالت وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة
كلماتٍ خلَّصت حياتها التي انقضت في فورة طموحها كالومضة:
الجسدُ استجابَ للجسد.. تخلَّصَ الجسدُ من البعاد.. واستراحت الروحُ
من الشكوى..

وأسلمت الروح..

مُحلت جنازتهما معًا لِيُدفنا في القبر نفسه.. لتنتهي قصتهما التي اختلطت
صفحاتها بابتسامات النشوى، ودموع الأسى.. طموحات، وأحلام..
تنافس، وصراعات.. حشرات، وآلام.. صفحات طُويت بعمرهما الذي
ولَّى وكأنهما لم يلبثا فيها غير ساعة من نهار!





الفصل الثامن عشر

جلس (شيرويه) على العرش وقد دانت له البلاد كلها، بعد أن أزاح والده كسرى الثاني الذي طال به الحكم، وأُعلن في طول البلاد وعرضها كسرى جديد باسم (قباد الثاني).

دخل (شيرويه) مجلس حكمه وقد جمع حوله الوزراء، والمرابطة، والأعيان.. واستحضر كسرى الجديد دموعه الكاذبة التي ذرفها على الوالد الذي ما قُتل إلا بأمره!.. وسواء قتله انتصاراً للفرس من ملكٍ مُفسدٍ - كما ادّعى أو طمعاً في العرش وانتصاراً لأطماعه فيه، كان عليه أن يُشعر الجميع بشرعية ملكه، وأنه امتدادٌ لتاريخ والده الذي جاء بدوره امتداداً لتاريخ الآباء والأجداد.. خيرٌ خلفٍ لخير سلف!.. فأمر له بجنائز مهيبة، وأعلن في أرجاء مملكته الحداد عليه، وأمر بالرجل الذي أسند إليه قتله فأعدمه.. ثم أصدر أوامره فطُويت تلك الصفحة، ولم يسمح لأحد بالخوض في الماضي.. سيسير على نهج آبائه في الإنجازات، ويصحح أخطاء مَنْ سبقه.. هكذا أعلن في شعبه .

وفي هذا المناخ الجديد كان لابد أن تجري تغيرات في بلاط ملكه، ليُقيى جميع مَنْ كان يعارضه، ويُقرَّب أصحاب الولاء. وفي خضم هذا البحر المتلاطم من المؤامرات والفتن ظهر.. إنَّه رجلٌ من

حاشيته لم يكن رفيع المنصب، فقد كان هناك مَنْ هم أعظم منه وأجدر.. بزغ نجمه لديه، وصدقت مشورته عنده، وكشف عن إخلاصه له في أكثر من محكٍّ، فقرَّبَه منه وأدناه، وجعله وزيره الأول ومستشاره المؤتمن.. إنه (فيروز) واحد من دهاة القصر، والخبراء بدروبه وأسراره.

أحسَّ (شيرويه) أن الحرب التي خاضها من أجل العرش لم تنتهِ بإزاحة أبيه، فلا يزال القصر يعجُّ بخصومه!.. كلُّ واحدٍ من إخوته كانت تشتعل في صدره نار الغيرة والحقد عليه، وعلى رأسهم أخوه (شهریار) الذي حاولت أمه (شيرين) أن تُقحِّمه في منافسةٍ معه على العرش، حتى سبق إليها سهمُ القدر فأزاحها من طريقه، واستقرت الأمور في قبضته.

كان يرى في غفلة والده سببًا في الإطاحة به، لذا قرَّر ألا يدعَ شيئًا للصدفة لا بد وأن ينتبه ولا يغفل لحظةً عن أعدائه، وإن كانوا من أبناء أبيه!

وجدت نفسها فجأةً في مساحة خضراء مترامية الأرجاء بعد رحلةٍ طويلة من الركض.. انتظرت لحظة تلتقط أنفاسها، ثم تذكَّرت فانتفض جسدها! اختلست نظرةً وراءها ربما كان لا يزال يطاردها؟!

أطلقت ساقها للريح من جديد حتى أطمأنت إلى موضع آمن احتمت به.. إنه ظل شجرتها التي كم داعبت حواسها الرقيقة بعبير أزهارها، وتغريد أطيَّارها، وزهوة خُضرتها.. في حُضرة حبيبها، أو غيابها بجسده، لكن أملها فيه دومًا حاضر.

وجدتُ في نفسها خَفَّةَ الفراشة، ورشاقة الغزلان.. دارت حولَ جذع تلك الشجرة دورةً أو دورتين.. أَحَسَّتْ بيدين تطوّقانِ خصرها برقّةً.. رفعها عاليًا.. لامست السماء.. تطاولت بيديها لثُمْسِكِ أحلامها البعيدة كالسحاب.. لكنها لم تُعُدْ من ذلك بشيء! نزلت إلى الأرض حيث موضع قدميها لتجده بين يديها فتجسّدت أحلامها البعيدة واقعًا!.. والتقت العيون، والتقا القلبان، وتحقّقت الفرحة باللقاء..

فتحت (جومان) عينيها وقد تكحّلت ببرد السكينة، واستقرت في قلبها نشوةٌ لم تخالطه منذ زمن، استقبلت عيناها نور النهار وقد اكتست شفتاها ببسمةٍ جميلةٍ وسعادةٍ سرت من قلبها إلى سائر جسدها.. كان حلمًا جميلًا!.. أقرّ في نفسها الأمل الذي لا يزال يراودها منذ سنواتٍ طويلة.. الأمل في الحرية المفقودة.. في لقاء الحبيب الذي يشرق في قلبها دومًا حبّه، وفي الاهتداء إلى الأخ الذي صار كل أهلها، ولا تدري أحيّ هو أم ميت؟!

نهضت من فراشها في خِفَّةٍ ونشاط.. تحرّكت نحو المرأة الكبيرة التي تتوسّط إحدى حوائط الغرفة التي تشاركها فيها رفيقاتها.. عدّلت وضع المقعد في مواجهتها، ثم جلست..

تطلّعت إلى صورتها، وكأنها تنظر إلى نفسها لأول مرة!.. تأمّلت صفحة وجهها وقد بدأت تغزوها التجاعيد، وعلا شعرها الشيب.. لم تكن في حاجةٍ بمن يذكرها أنها صارت على مشارف الخمسين!

مرت ذكريات حياتها أمامها بسرعة.. طفولتها في كنف الأسرة.. الحب الذي أشرقت شمسُه على قلبها منذ الطفولة.. وما إن خطا قلبها أول خطوة نحو السعادة حتى توالى المصائب على رأسها تترأ.. فَقَدْ الأم، والأخ، والأب تباعاً، والمصائب التي نزلت بحبييها، ثم الفراق الذي عَشَّش على رأس شجرتها الظليلة وجدران البيت.. العدو الغاصب الذي سبأها، وسلبها حريتها، ودَمَّر بشره آمالها.. صراع الملكتين المحموم على قلب كسرى وميراث عرشه!

أسلمتها الذكريات إلى واقع الحياة والدنيا الزائلة التي لا تدوم لأحد، فقد وَلَّت الملكتان عن الدنيا بأحلامهما العراض، كما وَلَّى شبابها!

أفاقت من سكرة أفكارها على حديث رفيقتها الحنون يمسُّ قلبها بحنان الأم الذي لم تجرِّبه كلتاهما، وقد وَلَّى شبابها كما وَلَّى شباب كثيرات في حريم القصر.. عشن فيه عمرهن كالمعلقات لا حب، ولا زواج، ولا أبناء!

طمأنتها بشيء سمعته من وصيفة كبيرة في القصر أن كسرى الجديد ليس لديه مثل شبق أبيه ورغبته في النساء، وسيُخَفِّض أعدادهن، وسيعيدهن من حيث أتين.

رَفَّت بِسْمَةٍ ساخرةً على شفتي (جومان) استقبلتها رفيقتها بِسْمَةٍ مماثلة كانت بديلاً عن الكلام:

أَيَّة رَغْبَةٍ؟! .. وأَيُّ شَبَقٍ؟!

لقد غادرن سنّ الشباب وأصبحن على أعتاب مرحلةٍ جديدةٍ صرن على أثرها عجائز لا يرغب فيهن الرجال!.. لكن الحرية في جميع الأحوال ثمينة، حتى وإن أقبلت إليهن وقد عجزوا عن إدراكها بإحساس الشباب!

هكذا كان قدرهن وقد رضوا بقضاء الله ونصيبهن من الدنيا، والحمد لله أن حفظهما طوال هذا العمر.. لم يدنس عذريتهما في حياتهما البائسة ذنب، أو قرصان!

في كل مرةٍ تتقابل فيها الوجوه، تتراسق الأعين بأسهم من العتاب واللوم محمّلةً بالتهم، والشكوك، والارتياب.. تحاصره نظراتُ الحقد، والغلّ، والحسد.. فلا تزال يدها ملطختان تقطران بدماء الأب الصريع!

إنه صراعٌ على العرش أشعل نيرانه في القلوب منذ سنين تنافسُ الضرتين لينتهى نهايةً غير شريفةٍ بإراقة الدماء! لقد كسب (شيرويه) الجولة الأخيرة بالقتل، وسفك الدماء!

لم يستطع كسرى الجديد إخفاء تلك الحقيقة أو إنكارها، حتى وإن جاهد في إقناع مَنْ حوله ببطولته في إزاحة والده كسرى الثاني الذي طغى، وتجبرّ، وأسرف في ظلم الرعيّة.. فما له وللرعيّة؟!.. ومنذ متى وملوكهم يحسنون السيرة في رعيّتهم؟! إنه مُلك الأكاسرة الذي يقوم على دعائم البطش، والقوة، والعسف.. وهذا هو شأنهم مع رعيّتهم منذ أجداد الجدود..

وما كان لينظلي على وريثة العرش هذا الزعم، وما كان ليخفي عليهم أن ادعاه للبطولة والانتصار للحقّ دعوى باطلة لا تحمل من البطولة اسماً، أو معنًى!

وجد كسرى الجديد نفسه في صراع على العرش يتجدّد كل يوم مع عشرات المنافسين: أخوته الأمراء، وأهل بيته، وبني عمومته.. كل واحدٍ منهم يرى نفسه أحقّ بالعرش منه.. ووراء هذا الصراع صراعاتٌ أخرى أشد، وأشرس؛ فكلُّ أميرٍ خلفه مؤيدون، وأنصار، وأصحاب مصالح..

وفي هذا الجو المشحون بالصراعات ينتصر صاحب المكر والحيلة، الذي يظهر تدبيره على تدبير غيره.. كان (فيروز) وزير كسرى وصاحب تدبيره يرى الصورة مغايرة تماماً لما يراه كسرى بعيني الأخوة التي تربأ بصاحبها عن الإساءة إليهم فسعى بالدسياسة إليه في إغلاق أيّ منفذٍ يؤدي من جديد إلى صراعٍ مع واحدٍ منهم على العرش!!

وليس بغريبٍ على مَنْ قتل أباه أن يكرّر الفعل نفسه مراتٍ ومراتٍ مع أقرب الناس إليه! إنها شهوة الملك التي إن تملكّت من صاحبها استعبدته، وجعلته أسيراً منقاداً لأطماع نفسه التي لا تشبع! وكما خوّفه مَنْ حوله في آخر حياة أبيه خطر الاختلاف حول ملكين، وضرورة الالتزام بالطاعة لملكٍ واحدٍ، تكرّر المشهد لكن في شخص سبعة عشر رجلاً من أخوته! وكما استجاب من قبل لباعث الشرّ في نفسه فقتل الأب، لبّى داعي الشر، وأعمته أطماعه وشهوته المتعطّشة، فأصدر أمره بالقتل!

وجرت في بلاط القصر مذبحة مروعة لم يشهد التاريخ مثلها قط.. ذبح كسرى جميع أخوته الذكور، وجميع من يساميه على الحكم من بني عمومته في ساعة واحدة!!

وانفرد (شيرويه) أخيراً بالحكم بعد أن أجهز على جميع منافسيه.. قتل الأخُّ جميع أخوته، واستحال الدم الذي يربط بينهم ماءً بارداً!!

لم يعد بعد يلقي ثمة معارضة، لكنه التقى من جديد بعيون أخته التي امتلأت بالكراهية لمن تنكّر لأدنى معاني الإنسانية والرحمة، وأقدم على عملٍ يتنزّه عنه وحوش الغابات!

دخلت عليه أخته (بوران) و(آزمدخت) آخر من تبقي من نسل أبيه.. كانت كل نظرةٍ منهما تسدّد إليه ألف طعنة، كانتا تقتلنه في كل لحظة! لم يكن الأمر من جانبه في حاجةٍ إلى تبرير، فأبى منطقٍ يوضح، وأبى كلامٍ يشرح!؟

واجهته الأختان بحقيقته، وأغلظتا له القول:
لقد حملك الحرص على الملك أن قتلت أباك وأخوتك!.. فاقتلنا إن شئت
لعلك تشتفي من طمعك بالدماء التي تلطّخ يدك!.. لقد أصبحت كالوحش
تلغ في الدماء ولا ترتوي!

نزلت هذه الكلمات من نفسه منزلةً عظيمة، فألقى بالتاج عن رأسه.. بكى.. لطم وجهه.. مزّق ثيابه..

نزل به الهُثم، والكآبة.. لم يخفّف عنه قراره بقتل الوزير (فيروز) الذي أشار عليه بقتل أخوته.. ولم ترُقّ له الحياة بعد.

حاول رجاله بعد أن انفرد بالحكم واستقر له بعد زوال أبيه وأخوته عن العرش أن يعيدوا كسرى إلى نفسه قوياً في مقدمة صفوفهم في سبيل تحقيق أطماعهم ومكاسبهم من ورائه، وبذلوا في سبيل ذلك كل وسيلة..

نظروا إليه بمنطق أبيه الذي كان زير نساء، فأرسلوا في جميع أرجاء المملكة يجمعون الجواري، والعازفات، والمغنيات.. حملوه على الإغراق في الشراب، وجميع أنواع الملذات..

لا بد وأن يعود إليهم!

جلست (جومان) ساهمةً كعادتها، وقد شتت بها الأفكار، وتصارعت داخلها الأمنيات والمخاوف بين شدٍّ ودفعٍ، وتقاذفتها الذكريات في بحر أحزانها بين مدٍّ وجذبٍ.

اقتربت منها رفيقتها المخلصة فما شعرت بها إلا وهي تربت على كتفها برفق وحنانٍ.. وقبل أن تلتفت إليها، عاجلتها رفيقتها بسيلٍ عذبٍ ينساب على شفتيها من الكلمات:

حببتي (جومان) أبشري.. أبشري!.. أخيراً جاءنا الخلاص! سنحصل على حريتنا التي فقدناها هنا منذ عشرات السنين!

أجابتها (جومان) بعزيمةٍ فاترة:

لقد مللتُ من هذا الحديث.. لا أظنُّ أن يُكتبَ لنا من هذا القصر خروج!

تلَقَّفت رفيقتها قولها بفرحتها التي تراقصت بها كلماتها:
هذه المرة الأمر يختلف فمعلوماتي من مصدر موثوق به في القصر..
سمعتُ أنَّهم سيجلبون الكثير من الجواري إلى حريم القصر وسيستغنون
عن كثير من الجواري ممن تجاوزن سنَّ الشباب..
اكتست عبارات الجارية فجأةً بالأسى، وكأنها تودَّع الكلمات التي
خرجت من شفيتها كما ودَّعت قبلها بسنواتٍ شبابها:
مَنْ هن في مثل سنِّنا لم يعدْ لهن قيمة في القصر، فقد أكلوا زهرة شبابنا،
وسيلقون بنا على قارعة الطريق كالمهمات!
تبَّهت لحديثها رفيقاتٍ دربها وقد تلقين هذه الأخبار بردود فعل
متباينة.. منهن مَنْ صدَّقتْ ومنهن مَنْ كذَّبت.. منهن مَنْ تجاوزت بفرحتها
الآفاق.. منهن مَنْ استنكرت أن يتخلصوا منها بمثل هذه السهولة، ويلقونها
في الطريق وقد ضلَّتْ ذاكرتها عن الأهل والوطن..
سرحت (جومان) بخيالها.. تذكَّرت قريتها، وبيتها.. الحبيب، والأخ،
والأهل.. كادت تحلّق بأجنحة فرحتها، لكن رجليها لم تزل في قيد واقعها
المؤلم، وتجارها المفجعة!
دخلت الوصيفة الأولى للقصر، والقهرمانات، والأغوات فاجتمعت
لهن جميع الجواري في الحال، وانتظمت (جومان) ورفيقاتها في صفين..
صَفَّقت الوصيفة الأولى فدخلت فتياتٌ يرفلن في حُلل الشباب.. كن آيةً
في الحسن، أحيان في نفوس الحاضرات ذكريات الماضي البعيد حين كن في
مثل أعمارهن!

غمزت الجارية رفيقتها (جومان)، وأسرت إليها:

أرأيتِ؟! .. ألم أقل لك؟!!

عاجلتها الوصيفة الأولى بنظرة تأنيب، فتذرعتا بالصمت.. أشارت السيدة نافذة الأمر في القصر إلى (جومان) وبعض رفيقاتها من الجواري، فانتحين جانبًا.

انتظرتها (جومان).. لحظات مرت عليها كالدهر لتنطق بها الوصيفة الأولى.. كلمة الحرية التي كانت تشتاق إليها اشتياق النبتة الذابلة إلى ماء الحياة!

لكنّها سدّدت مع كلماتها طعنةً جديدةً إلى قلبها الممزّق الذي لم يعد به موضعًا لجرح جديد!

لم تكن كلمة الحرية واردةً مطلقًا في قاموسها!

لقد أصدرت الأمر لتنتقل (جومان) ورفيقاتها من جناح الحريم إلى مكائهن الجديد بين خدم القصر، ولم يكن في طاقة (جومان) ومن معها إلا الإذعان والطاعة، فسرّن أسيراتٍ في خنوعٍ إلى حيث أُريدَ بهن..

قرّر (ماهان) ورفيقه أن يستريحا قليلاً، فالطريق إلى قريتهما لا يزال طويلاً.. كان التعب والجوع قد حلا بهما ونالا منهما، فقد مرت عليهما أيامٌ وهما يسيران بغير توقّف.. لم يجدا ما يحملهما على المسير من جهدٍ أو ثؤنةٍ، وقد ضربا في الصحراء بعيدًا عن الناس، فهما لا يعلمان ما خلفاه وراءهما،

ولا ما ينتظرهما من خطر؛ فمن يدري ربما سارت الأمور إلى الأسوأ؟! يذكر أحدهما نفسه أنه سجينٌ هارب، ثم يطمئن نفسه وصاحبه أن الظروف تغيرت، فالملك الجديد هو الذي أطلقهم ألوفاً.. ثم تتخطفهما من جديد المخاوف..

شاهدا على البعد خيام الأعراب، فأحيت فيهما الأمل، فتحامل كلُّ منهما على نفسه، وتساندا حتى بلغا مضاربهم.. نالا عندهم الأمان، والراحة، وما يحفظ لحياتهما البقاء بعد أن أشرفا على الموت..

جلسا في ضيافة شيخ القبيلة الخبير بدروب الصحراء، وصاحب الخبرة الأكبر في دروب الحياة، فتحدثا إليه بقلب مفتوح، وحدثاه بقصتهما.. حدثاه بعزمتهم على الرجوع إلى القصر ليستردَّا لـ(جومان) حريتها، فقد عدَّلا عن رأيهما في العودة إلى القرية.. أرجأ الأمر حتى يسترجعا وديعتيهما، ويعودوا ثلاثتهم معاً إلى القرية.

أمهلها الشيخ أياماً ليستعيدا عافيتهما، وحتى تعود القافلة من المدينة ليقفوا على أخبار كسرى قبل أن يدخلوا من جديد إلى عرينه.. وحينئذٍ سيجهز لهما راحلةً تحملهما إلى هناك.





الفصل التاسع عشر

لم يمضِ وقت طويل على (ماهان) ورفيقه وهما في ضيافة شيخ القبيلة، حتى أقبلت عليهم القافلة تحمل إلى القبيلة الميرة، وتحمل إلى الرجلين ما يشفي حيرتهما من أخبار..

اصطدما بما فجعهما من أنباء كسرى الجديد، والمذبحة الشنيعة التي ارتكبتها في حق ذوي رحمه، ونسبه!.. لقد أتى من الجرم في أيام ما فاق إجرام والده على مدى بضعة وثلاثين عامًا هي سني حكمه! إذاً فما جدوى استراحته في شأن (جومان)؟! وما معنى مخاطبة شفقتة ورحمته؟! وقد نزعَت من قلبه الشفقة والرحمة، وانتكست فطرتة، فأجهز على أقرب أقاربه في وحشية لم تعهدها الوحوش في الغابات! وهل مثل هذا يعرف الرحمة؟! أحسًا بالعجز، وقد هزمها اليأس مرة بعد مرة، وأيقنا بأن العدل لا مكان له في دنياهما!

كانت المدينة قد ضربها الوباء وتفشى فيها الطاعون، فمات خلقٌ كثير، فأصرَّ الشيخ أن يُضَيَّفَهما في مضارب البدو حتى تنقشع الغمة ويزول الوباء، فليس ذلك على الله ببعيد، وربما يزول الظالمون فينصلح حال البلاد، والعباد!! من يدري؟!

لم يهنأ (شيرويه) بالملك فقد ساءت حاله وانتابته الكآبة والهموم، وذَهَلَّ عَمَّنْ حوله، حتى مرض واعتَلَّ بدنه، وأصبح دَنَفًا سَقِيمًا، ولم يستمر به الحال طويلاً حتى هلك، ولم يَدُمْ ملكه أكثر من ثمانية أشهر.. ونَصَّبَ الفرس مكانه ابنه (أردشير) وكان طفلاً ابن سبع سنين، وجُعِلَ وصياً عليه أحدُ رجال البلاط وكان عاقلاً حكيماً فأحسن سياسة الملك والتدبير، لكن صغر سنِّ (أردشير) جعل كرسيه مطمعاً للأمرء والقادة، وكان على رأس هؤلاء الطامعين قائد الجيوش الفذُّ (شهربراز) الذي كان لم يزل بثغور الروم.. لم يستطع كسرى (أبرويز) أن يخلعه بعد أن انحاز لقيصر الروم، لقوة شوكته وكثرة رجاله، فكان يتملّقه بالهدايا ويستشيره في أمور الملك، ثم جاء (شيرويه) فسار على نهج والده في التعامل معه، وعندما علم (شهربراز) بملك (أردشير) وهو لا يزال حَدَثًا، وجاء بغير مشورته احتقره، وازدراه، وعقد النية على خلعه، وأقبل في جنده نحو المدائن ففرَّ (أردشير) إلى (طيسفون)^١ فتبعه (شهربراز) إليها فحاصرها ونصب عليها المجانيق، وشدَّدَ الحصار عليها حتى سقطت في يده، فاقتحمها وقتل كبار القوم بها وسلب أموالهم، وأمر رجاله فقتلوا (أردشير)، ثم نصَّبَ نفسه ملكاً على الفرس، ولم يَدُمْ له الملك سوى أربعين يوماً، فقد تعاهد عليه ثلاثة من الحرس فقتلوه بمساعدة بعض عظماء دولته غضباً لـ(أردشير)، وشدُّوه من رجليه إلى فرسٍ وطاقوا به الطرقات!

(١) الجانب الشرقي من نهر دجلة التي سَمَّاها العرب المدائن.

وسقط الفرس في حيرةٍ لا يعلمون مَنْ يملكون بعده، وفي هذه الأثناء جاءهم رسول (خالد بن الوليد) برسالةٍ، وقد فتح (الحيرة) وأسقط دولة المناذرة، كتب فيها:

من خالد بن الوليد إلى ملوك الفرس..

أما بعد، فالحمد لله الذي حلَّ نظامكم، ووَهَنَ كيدكم، وفرَّقَ كلمتكم، وأوَهَنَ بأسكم، وسَلَبَ أموالكم، وأزالَ عزَّكم.. فإذا أتاكم كتابي فأسلموا تسلموا، أو اعتقدوا منا الذمة وأجيبوا الجزية، وإلا والله الذي لا إله إلا هو لأسيرنَّ إليكم بقوم يحبون الموتَ كما تحبون الحياة، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا..

كانوا قد تسامعوا بمعاركه، والهزائم المتوالية التي نزلت بساحتهم على يديه، لكن لم يكن أحدٌ يتوقع أن يأتيهم بمثل هذه السرعة، فقد خاض معهم سبع معارك كبيرة في مدة لم تتجاوز ثلاثة أشهر حتى دخل الحيرة فاتحاً!!¹ وكتب (خالد) إلى مرازمة السواد ودهاقينهم رسالةً قال فيها ما قاله للملوكهم، فصالحوه ورضي منهم بدفع الجزية.

(١) كانت أول معاركه مع الفرس هي «كاظمة» في المحرم ١٢ هـ (مارس ٦٣٣ م)، ثم «ذات السلاسل» مع «هرمز» حاكم الأبله في نفس الشهر، ثم «المدار» في غرة صفر (١٧ أبريل ٦٣٣ م)، ثم «الولجة» في ٢٢ من صفر (٨ مايو ٦٣٣ م)، ثم «أليس» في ٢٥ من صفر (١١ مايو ٦٣٣ م)، ثم «أمغيشيا» في ٢٨ من صفر (١٤ مايو ٦٣٣ م)، ثم فتح الحيرة في ربيع الأول (مايو / يونيو ٦٣٣ م).

تسامع (ماهان) ورفيقه بأخبار الجيش الإسلامي وفتوحاته، وقد امتلأت
عقولهم بالحيرة، وقلوبهم بالدهشة! كيف يستطيع جيشٌ قليل العدد والعُدَّة
أن يهزم جيوش الإمبراطورية الفارسية أعتى إمبراطورية في الأرض؟!
كانت أخبار تلك المعارك العجيبة لا تنقطع عنهم!

لم يَدْر (ماهان) لَمْ يَخَالطه الخوف من هؤلاء بمثل ما كان يخشى ملوك
الفرس وقادتهم، وَقَدْ عاين طويلاً ظلمهم للرعية؟! وكان هو وكثيرٌ مثله
يرى المسلمين بشرًا من صنفٍ جديد لم يعهدْ مثلهم! ولأول مرة يرى العدل
والرحمة وقد انحازا إلى صف القوة! وعلم أنه الحقُّ الذي لا يتأخى العدلُ
والقوةُ إلا في ظله.. الحق الذي كم بحث عنه طويلاً في حديث الآباء
والأجداد، وفي حديث صاحبه (سلمان) الذي بحث عنه في ركب رسول
آخر الزمان..

لقد تعامل معهم فوجدهم نوعاً لم يألفه من البشر، كانوا يدعون إلى دينهم
بأخلاقهم قبل سيوفهم! يتألفون الناس بالرحمة بهم، وحسن السيرة فيهم،
والقدوة الصالحة بينهم! لا يظلمون، ولا يغدرون، ولا يخونون، ولا يأتون
المنكرات.. وهم على ما هم فيه من خُلُقٍ كريم يأخذون عدوهم حين يقاتلهم
بالبأس والشدة!.. الرجل منهم يُجهزُ على فِئَةٍ، ولا يخشى عدداً ولا عُدَّةً،
يضحي بحياته في سبيل دينه ويقدم روحه عن طيب خاطر، وهم يتسابقون
في ذلك، ويتنافسون على الموت في سبيل الله كتنافس غيرهم على الحياة!
وكأنهم في حروبهم مع غيرهم قوى سماوية تصارع قوى أرضية! ولا عجب

أن يرى فيهم رجلاً كـ(خالد) لا تُهزَم له راية، وكأنه أُعطي من الله سيفاً ينتصر به على عدوّه كما قيل عنه!.. ولقد تناقلوا أخباراً مذهلة حول هذا القائد الفذ وجيشه الذي لا يتجاوز بضعة آلاف، فقد التقى بـ(هرمز)، وما أدراك ما (هرمز)؟! إنه أعظم قادة الفرس على الإطلاق وأشدّهم بأساً.. قتله مبارزةً ومزّق جيشه في (كاظمة)، كما قتل من قادة الفرس (الأنوشوجان)، و(قباد) في (المذار) وأفنى من جيشها ثلاثون ألفاً، ودمّر جيش (الأندرزغر) في (الولجة) وفرّ أمامه كالفار المذعور، وفي (ألّيس) هزم (بهمن جاذوية) في مائة وخمسين ألفاً وأجرى النهر بدمائهم، ثم دمرّ جيش الفرس في (أمغيشيا)، وقاتل الفرس على قناطر الحيرة حتى فتحها وأجرى النهر بالسفن التي غنمها منهم تحمل جيشه، ودخل بها الحيرة فاتحاً بعد قتالٍ عنيف، ودفعوا له الجزية عن يدٍ وهم صاغرون!!

وبخلاف ما نزلت به هذه الأخبار بالرعب على الفرس، نزلت برداً وسلاماً على خليفة المسلمين أبي بكر الصديق الذي ما إن علم بانتصارات (خالد) المبهرة في العراق حتى قال:

يا معشر المسلمين! عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله^١، أعقمت النساء أن يلدن مثل خالد!

ولقد عاين (ماهان) حقيقة هؤلاء المسلمين الفاتحين بنفسه حينما التقى بوفد خالدٍ في اجتماعهم بمشايف القبيلة.. لقد عرفهم دعاءً للحقّ قبل أن

(١) الخردولة: القطعة الكبيرة من اللحم.

يكونوا محاربين.. إنهم لم يخوضوا الحرب طمعاً في دنيا يصيبنها.. فهذا الزهد الذي تخلّقوا به لا يكون لطلاب دنيا، فقد جلسوا جلسة البسطاء على ذلك البساط الخشن الذي اعتاد شيخ القبيلة أن يبسطه لضيوفه.. لم يتعرّف (ماهان) في زيّ هؤلاء القادة وهيئاتهم على أيّ مظهر من مظاهر الزينة، فلباسهم بسيط، وخيولهم سرجهما ليس فيها شيءٌ مؤشّرٌ بذهبٍ أو فضةٍ، أو مرصّع بجوهرٍ، أو نفيسٍ كما هي العادة عند الفرس!

لقد جاءوا إلى الناس بدعوى الحقّ وفضليّ الدنيا والآخرة.. العزّ والكرامة في الدنيا، ورضوان الله والجنّة في الآخرة.. جاءوا بدعوى الحقّ ليُخرجوا الناس من عبادة البشر إلى عبادة ربّ البشر.. جاءوا بدعوى الحقّ ليرفعوا عن الشعوب جور حكامهم، فمن أسلم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم لا يُنتَقَص من ذلك شيء، فإن أبوا الإسلام دفعوا الجزية وهو حقّ حمايتهم ومسالمتهم وقتال أعدائهم، فإن لم يكن إلى ذلك سبيل إلا القتال قاتلوهم حتى تكون كلمة الله هي العليا.. وهذا القتال لا يكون إلا مع من قاتلهم، لا يمسّون فيه فلاحاً، أو عسيفاً^١.. ولا يقتلون شيخاً، أو امرأة، أو طفلاً.. ولا يقطعون شجرة، ولا يقتلون بهيمة.. ولا يظلمون، ولا يجورون.. وكان الخليفة الصّديق قد أوصاهم بفلاحي السواد.. أن يحسنوا معاملتهم، وأمر بإبقائهم على أراضيهم التي يفلحونها، ومكّنهم من إنتاجها، وتمتّعوا بثمرة عملهم منها.. من دخل الإسلام حدّد له نصيبه من الزكاة، ومن بقي على

(١) العسيف: الأجير الذي يعمل في إعمار البلاد.

دينه دفع الجزية .. مبلغٌ زهيدٌ يُؤدَّى سنويًا، ولم ينزِعْ الأرض من أيدي أصحابها كما فعل بهم حكامهم الفرس، لكنه أنصفهم فيها.. لقد شملت دعوتهم أرض السواد كلها، واستجابت لهم جميع قراها، هكذا عرف من ذلك الوفد..

تذكر (ماهان) ورفيقه قريتهما، وما جرى لأهله على أيدي الدهقان ورجاله.. تمنّا لو عادًا إليها فيستزرعاها وينعما بخيرها، لكنهما أحسّا بنور يسري في أوصالهما أبدلهما عن حب الدنيا وزينتها بحبٍّ من نوع جديدٍ أشرقت على سمائهما شمسُه.. إنه دينُ الحقِّ الذي لم يعدْ يخالطه في نفسيهما ريبة.

أسلم (ماهان) ورفيقه، وأسلمت القبيلةُ كلها.. واستشعرا في أول عهدهما بالدين الجديد المسئولية تجاهه.. لقد نسي الرجلان أنها تخطيا الخمسين، وأحسّا بروح الشباب تسري في أبدانها وكأنها وُلِدا من جديد! شكر (ماهان) و(دَرام) للشيخ حُسن ضيافتها، وخرجا مع وفدٍ من شباب القبيلة ليلحقا بجيش المسلمين في موكب الحقِّ، والحرية..

العجيب أن الفرس لم يستشعروا خطرًا حقيقيًا من تلك الأحداث! فما دولة المناذرة التي سقطت لتوها على أيدي المسلمين - في نظر قادتهم إلا دولةً تابعةً، وأهلها وإن كانوا موالين لهم فهم عربٌ!.. ولا تزال للفرس القوة والسطوة.. ولن يجترأ هؤلاء الأجلاف رعاء الشاة أن يعبروا نهر الفرات إليهم؟! فالفرس لا يرحون من يتجرأ عليهم!

هكذا تجسّد الكبر والغرور الذي ملأ أنفسهم أفكارًا وأقوالاً!!
ولم يزل الفرس في انقسام قد أصابتهم دعوة رسول الله ﷺ بأن يمزّق الله ملكهم كما مزّق كسرى (أبرويز) رسالته ﷺ ..

وكان الفرس في أزمة ملوك لم يجدوا رجلاً يملكّوه من آل ساسان، فولّوا (فرخزاد بن بندوان) أحد كبار قادة الفرس، لكن لم يدّم له الحكم إلا أياماً ثم عزلوه، ونصّبوا (بوران) ابنة كسرى (أبرويز) فأحسنّت السيرة، وأصلحت القناطر والسدود، وأنشأت الطرقات والجسور.. لكن بعد سنة وأربعة أشهر عُزلت، ونصّب رجلٌ من بني عمومة كسرى (أبرويز) الأبعدين لم يدّم ملكه أكثر من شهر وقُتل على يدي الجند لسوء سيرته، ثم تتابع على الملك اثنان من رجالهم، قيل أن أولهما كان ضخم الرأس فلما توجّه، قال:
ما أصغر هذا التاج!

فتشاءموا من كلامه، وقتلوه في الحال قبل أن يعتلي كرسيّ عرشه، والآخرُ ملكٌ أياماً ثم عزلوه وقتلوه!

ثم ملّكوا (آزرمدخت) ابنة (أبرويز) الثانية، وكانت من أجمل النساء، ورثت جمال والدتها (شيرين) أجمل نساء عصرها، فأحبّها (فرخزاد) الذي كان وقتئذٍ حاكم الفرس على (خراسان) وفُتن بها، فأرسل ليخطبها لنفسه، وكانت خبيثة القصد، فأرسلت إليه:

إن الزواج من الملكة أمرٌ غيرٌ جائزٍ، وأنا أعرف أن غرضك قضاء وطرك وشهوتك مني، فأتني!

وأُسرَّت إليه بموعدٍ يلتقيان فيه بالقصر.. لم يستطع القائد الكبير أمام سلطان حُبِّه لها، وافتتانه بجهاها أن يصمد طويلاً، فاستخلف ابنه (رستم) على حكم (خراسان)، وسار إليها حتى أتى القصر في الموعد، ليغتاله قائدُ حرسها بتدبير منها، ثم يُطرح مُجندلاً في رحبة دار الملك، ليكون عبرةً لكلِّ مَنْ تسوّل له نفسه الطمع فيها!

وأظهرت (آزرمدخت) لرعيثها الشدّة والبأس، فقالت:

منهاجنا منهاج أبينا كسرى (المتنصر) فإن خالفنا أحدٌ أرقنا دمه!

وأرسلت (بوران) إلى (رستم) بـ(خراسان) تخبره بما فعلت (آزرمدخت) بأبيه، وتستحثّه على السير إليها، فتقدّم بجيشه حتى وصل إلى (طيسفون) وهزم جيوش (آزرمدخت) وأحضرها ذليلاً بين يديه، فثمل عينيها، ثم قتلها وقتل حارسها الذي قتل والده، وانتهت فترة ملكها التي لم تدُم أكثر من ستة أشهر.

وأخيراً دعت (بوران) القائد (رستم) إلى حكم البلاد عشر سنين يعودُ المُلك بعدها إلى آل كسرى، وتم الاتفاق بينهما على هذا العهد ليصبح دستوراً للبلاد في المرحلة القادمة.





الفصل العشرون

مرت سنوات طويلة ولا يزال (جaban) ذلك الدهقان الظالم رابضاً على صدر قرية (ماهان) وكثيرٌ من قرى أرض السواد من حولها، يذلُّ أهلها، وينهبُ خيراتها..

وأخيراً جاء الإسلام مُخَلِّصاً، ففتح المسلمون أرض السواد، وأعادوا لأهلها كرامتهم المهدرة، ومكنوا الفلاحين من أراضيهم، فجنوا بأيديهم ثمرة جهودهم.. لقد أحسنوا معاملتهم، وتركوا لهم الحرية في الإسلام أو البقاء على عقيدتهم، فمن أسلم أدى حقَّ الله عليه في الزكاة، ومن بقي منهم على معتقده أدى جزيةً سنويةً زهيدة.. وأحسنَّ الفلاحون البسطاء لأول مرة أنهم أسيادُ أحرارٍ لهم أملاك، وثروة..

لم يستطع (جaban) أو غيره أمام المدِّ الإسلاميِّ الكاسح إلا أن يُذعن خاضعاً ويقدم الصلح صاغراً، بعد أن فقد سطوته، وسلطانه اللذين ما اكتسبهما إلا بقهر الفلاحين، ونهب خيراتهم.

وتعافى القرية ويسترد أهلها أراضيهم المنهوبة، ويعملون بعزم ورضا في ظل العدالة الاجتماعية التي تحققت لهم في كنف الإسلام، كان أكثرهم قد هجروا أراضيهم وفروا من ظلم (جaban) ورجاله، فلما رُفعت عنهم قبضته عادوا إلى قراهم..

كان الرجل يأتي القائدَ المسلم بما يُثبتُ حقَّه في أرضه وبشهوده من جيرانه، فيُمكنه منها.

وكان (شودار) و(زاران) قد عادا إلى القرية منذ سنواتٍ فعمرا بيتهما للإقامة، وتعهَّدا أرضهما بالرعاية، والاهتمام.. وهكذا طاب للرجلين المقام، وازدهرت الحياة، وتحسَّنت أحوالهما وأحوال جيرانهما من أهل القرية الطيبين.

وفي فارس كان الأمر قد استتب على ما كان بين (رستم) و(بوران) من عهد، وكتب (رستم) إلى دهاقين السواد يحرضهم على نقض العهد والثورة على المسلمين، فكان (جaban) أول مَنْ لَبَّى دعواه ونقض العهد، وأطلق رجاله في القرية بالإرهاب والتخويف، وتجهَّز في جيشٍ كبير لقتال المسلمين، قاده بنفسه.

وأعدَّ (رستم) جيشاً كثيفاً لقتال المسلمين بـ(الحيرة)، وكان (خالد بن الوليد) بعد أن أتمَّ فتوحاته بالعراق قد انتقل إلى ساحة الشام لقتال الروم تنفيذاً لأمر الخليفة الصِّديق وسلَّم الراية للـ(مثنى بن حارثة)، فسحب (المثنى) قواته إلى الصحراء واستخلف عليها أحد قواده، وانطلق بنفسه إلى المدينة المنورة يطلب مدداً من خليفة رسول الله ﷺ.

أقبل (المثنى) على خليفة رسول الله ﷺ فوجده على فراش الموت، وحضره وهو يستخلف (عمر بن الخطاب) ويوصيه قائلاً:

إني لأرجو أن أموت في يومي هذا، فلا تمسين حتى تندب الناس مع (المثنى) إلى العراق! ولا تشغلنكم مصيبة عن أمر دينكم، ووصية ربكم!

ولبى الصديق نداء ربه، وأسلم الروح الطيبة إلى بارئها راضياً مرضياً، وكان أول ما ولي الفاروق أن جمع الناس في فناء المسجد، وأخذ يحرضهم على الخروج إلى العراق، والمسلمون محجمون متثاقلون، وهو يدعو ويلح في الدعوة:

أين الطراء المهاجرون؟! أين عباد الله الصالحون؟! أين المجاهدون؟! فتقل ذلك على المسلمين، وشعروا بأسف لتثاقلهم عن الجهاد، فتقدم وفد من المسلمين فيهم (أبو عبيد بن مسعود)، و(سليط بن قيس)¹، فبدأ (أبو عبيد) بالقول:

يا أمير المؤمنين! إننا سمعناك وأطعناك، وأنا أول من أجاب هذه الدعوة أنا وقومي!

وتبعه (سليط)، فتحدث بكلمات تتفجر حماسة وقوة:

يا أمير المؤمنين! والله إن كان قعودنا عن غزو هؤلاء الفرس إلى يومنا هذا شقشقة من شقاشق الشيطان، وإنني وهبت نفسي لله!

(١) صحابي جليل كان ممن شهدوا بدرًا.

وكان لقول الرجلين صدًى كبير في شحذ الهمم، واستثارة نخوة الإسلام في الحضور، فهاجت نفوسهم، وأجهشوا بالبكاء، وتدافع الناس على المسجد يلبّون داعي الجهاد، ولما قيل لأمر المؤمنين:

وَلَّ عَلَيْهِم!

قال (عمر):

والله لا أؤمرُ عليكم إلَّا أولكم انتدابًا، ولولا أن (سليطاً) عجولاً في الحرب لأمرته عليكم، ولكنِّي أَمَرْتُ عليكم (أبا عبيد)، وليكن (أبو عبيد) الأمير و(سليط) الوزير!

فلما قيل له أن (عبيدًا) ليس من الصحابة، فهلا أَمَرْتُ عليهم واحدًا من الصحابة!

فقال (عمر):

إنَّكم معشر الصحابة إنَّما سبقتم الناس بنصرة هذا الدين، وإنَّ هذا هو الذي استجاب قبلكم، ولا أوَّلِيَّ عليكم أحدًا غيره!

ثم دعاه أمير المؤمنين فأوصاه بمن معه، وأن يستشير أصحاب النبي ﷺ: (سليط) و(المثنَّى) فإنهما باشرا الحروب طويلاً.

وتحرَّك (أبو عبيد) على رأس عشرة آلافٍ إلى العراق، وانضمَّ إليه جيش (المثنَّى)، وما توافد عليهما من أمداد..

وكم كان (ماهان) في أشدَّ حالات الانبهار والإعجاب وهو يرى هؤلاء

القادة العظام الذين لم يتنافسوا على شرفٍ أو زعامة، وإنما أخلصوا نيتهم،
وتجرّدوا لله، وأنكروا ذاتهم!

فهذا (المثنى) صاحب المبادأة في غزو الفرس ينضوي تحت راية (خالد)
فيقاتل معه أشدّ القتال، ثم يحارب تحت راية (أبي عبيد) عن تسليمٍ ورضاً،
ويؤدي ما عليه على أكمل وجه!

وهكذا تحقّق لجندهم المثل الأعلى فيهم، مما جعلهم يستميتون في الدفاع
عن دينهم، ويبدلون فيه بصدقٍ وأخلاص.. لا يطلبون إلا ما عند الله!

وحشد الفرس جيشاً كثيفاً بعد أن نقضوا الصلح مع المسلمين في السواد،
وتحرّك (جبابان) بجيشه فلقبهم (أبو عبيد) بمن معه فهزمهم بـ(النهارق)^١
ووقع (جبابان) في الأسر.. أسره جنديّ مسلم، وطلب منه الأمان فأمنه
وأعطاه عهداً وهو لا يعرفه، فلما أحضر بين يدي (أبي عبيد) عرفه القادة
وأشاروا عليه بقتله، فأبى القائد العظيم أن يخيس بعهد مسلم، ويخفر ذمته،
فقال:

إني أخافُ اللهَ أن أقتله وقد آمنه رجلٌ مسلم.

(١) معركة النهارق وقعت في ٨ من شعبان ١٣هـ (٧ أكتوبر ٦٣٤م).

فقالوا له:

إنَّه القائد!

قال (أبو عبيد):

وإن كان، فلا أغدُرُ أبداً!

وأطلق سراحه..

لقد تلقَّى (ماهان) ورفيقه هذا الحدث الفريد بحالةٍ عجيبةٍ من المشاعر المتناقضة! فما أبغضا أحداً مثلما أبغضا ذلك الدهقان (جaban) فهو أصل كل شرٍّ نزل بهما.. نَعَصَ عليهما حياتهما وأحالها إلى جحيم! وما فرحا لشيءٍ مثلما فرحا بنظرة شماتةٍ قهرا بها عينيه! أخيراً لقي الذلَّ والهوان جزاء أفعاله، وجرائمه!.. لكن كيف لمثل هذا أن يُطْلَقَ حُرّاً وقد غدر، ونقض العهد؟!

إنَّه خلق الإسلام الذي يحترم للجندي عهده فيُلْزَمُ به قائده! وخلق القائد الكريم الذي يمثِّلُ القدوةَ لجنده.. وإن خدع (جaban) وخان وغدر، فالمسلم لا يخون، ولا يغدر، ولا يخدع!

ثُمَّ تَبَعَ (أبو عبيد) المنهزمين ولقى جيشاً عظيماً يقوده ابن خالة كسرى فهزمه بـ(الساقطية)^١، وفرَّ مهزوماً، ودخل المسلمون أرضه ففتحوها وغنموا شيئاً عظيماً، وأعجب ما رأوه بها شجر الترسيان، وكانت فاكهة

(١) معركة الساقطية وقعت في ١٢ من شعبان ١٣هـ (١١ أكتوبر ٦٣٤م).

لا يطعمها إلا الملوك والأمراء، وكان يحميها ويقيم عليها الحرس، ويمنع عنها الفلاحين والعامة، فجمع (أبو عبيد) منها وأطعم جيشه، وأرسل إلى الفلاحين فأطعمهم من طعام ملوكهم الذي كان محرماً عليهم!

ودانت للقائد المنتصر البلاد من جديد، فجاءه الولاة يطلبون الصلح، فاستجاب لهم، ثم جاءوا بطعام خاص من فاخر طعامهم فأبى أن يأكل منه، وقال:

لا حاجة لنا فيما لا يسعُ الجند!

وما أكل منه حتى أكل أدنى جندي في جيشه.. فلهذا دُرَّ هذا القائد!.. والله دُرَّ هذا الدين العظيم الذي وسع الناس جميعاً رحمةً وعدلاً!

وتقدّم جيش المسلمين فقطعوا الطريق على جيش (الجالينوس) الذي كان مدداً لجيش الفرس فهزموهم في (باروسا).. وهكذا استطاع القائد الفذ أن يهزم جيوش الفرس الثلاثة قبل أن تتحد.. وقد أزعجت هذه الهزائم المتتالية (رستم) فحشد جيشاً كثيفاً، وألحق به القادة المنهزمين بفلولهم، وأمر عليه أشرس قادته ذا الحاجب (بهمن جاذويه)، وأمدّه بعشرين فيلاً ضخماً، ودفع إليه براية الفرس العظمى (درفش كايان) - وكانوا لا يرفعونها إلا في أمر عظيم!

وتحرّك الجيش المسلم في مواجهته حتى حجز بينهما نهر الفرات في موضع الجسر المشهور هناك^١، فأرسل قائد الفرس إلى قائد المسلمين:

(١) وقعت معركة الجسر بين المسلمين والفرس في ٢٣ من شعبان ١٣هـ (٢٢ أكتوبر ٦٣٤م).

إمّا أن تعبر إلينا، أو أن نعبر إليك؟!

كان شيطان الفرس يعلم أن القائد العربيّ الذي تجري في أوصاله الشجاعة مجرى الدم سيلبيّ إليه غير هياباً بالموت، وكانت تلك خطته للإجهاز على جيش المسلمين، وقد خالفه في هذا الرأي (المثنّى) وكثيرٌ من القادة، ووضّحوا له صعوبة وضع الجيش المسلم وما يكتنف اجتياز مثل هذا المانع من مخاطرةٍ غير مأمونة.. حيث تفقد عند عبورك توازنك، وتكون فرصة المدافع الرابض خلف ذلك المانع أكبر للإيقاع بك وإصابتك إصاباتٍ مباشرة!

لكن (أبا عبيد) أصرّ على رأيه، وقال بلهجة إباءٍ وشمم:

والله لا يكونون أجراً على الموت منّا، بل نعبر إليهم!

لقد وجدها طريقةً يرفع بها من حماسة جنده، ويشدّ عزيمتهم، ويُرهب به عدوّ الله وعدوّهم.

وانصاع الجيش المسلم لأمر قائده حرصاً على توحيد الكلمة، وتحرك (أبو عبيد) يقود جيشه عبر الجسر، وكان الفرس قد أدخلوا لجيش المسلمين على الجانب الآخر من النهر مساحةً ضيقة لا تسمح لهم بالمناورة..

ولم يمهّل الجيش الفارسيّ المسلمين حتى يعبروا، فانقضوا عليهم وهاجموهم بعنف.. وفوجئ المسلمون بالأفيال تمتك بهم ذات اليمين وذات الشمال، ففزعت الخيل وفرت، فكان الفارسُ المسلمُ يثب من فوقه مخافة الفرار من الزحف ويقاتل مترجلاً!

ونشب قتالٌ رهيبٌ غير متكافئٍ بين جيشٍ قليل العدد والعُدَّة قُتل أكثره وأُحيط بمقاتليه من كل جانب، وبين جيشٍ بكامل عدده وعُدَّتِه.. واستبسل المسلمون استبسالاً أدهش عدوَّهم، وبعد أن سمَّى (أبو عبيد) القادة من بعده تقدَّم في شجاعة الأبطال إلى أضخم الأفيال - وكان يبطش بجند المسلمين ليجهز عليه ويريح المسلمين من شرِّه، وتصدَّى له بسيفه فهاج الفيل، وثار، وأوسع ركلاً، ووطأ حتى فاظت روحه الذكيَّة تحت أقدامه الثقيلة، وقُتل جميع القادة من بعده، وقام رجلٌ من المسلمين إلى الجسر فقطعه ليوقف انسحاب المسلمين تحت ضغط الجيش الفارسيِّ الرهيب، وصاح فيهم:

أيُّها الناس! موتوا على ما مات عليه أمراؤكم! النصرُ أو الشهادةُ!
لكن الضغط الفارسيَّ المتزايد ضاعف من خسائر المسلمين حتى قُتل نصفُ الجيش، واستشهد قادة الجيش و(سليط بن قيس) وعدد كبير من الصحابة رضي الله عنهم.

وظهرت بطولة (المثنَّى) الذي أمر بإصلاح الجسر، وتبدَّت شجاعته بأن قاد بنفسه فرقةً من الفدائيين الشجعان أمرهم فجثوا على الرُّكب وقد شرعوا الرماح فحبسوا الفيلة، وما استطاع جيش الفرس أن يتقدَّم خطوةً واحدةً! ووقف يصيح في جيشه:

يا معشرَ المسلمين أنا دونكم فاعبروا على هيئتكم ولا تدهشوا! فإنَّا لن نزائل¹ حتى نراكم على الجانب الآخر!

(١) زايله: فارقه.

وسقط في شِقِّه رمحٌ فانتزعه، وصمد، وظلَّ يقاتل حتى عبر المسلمون جميعهم، وأصدر أمره بالانسحاب السريع إلى حدود الصحراء لتصحيح الأوضاع، وبذلك استطاع هذا البطل أن يفوَّت الفرصة على جيش الفرس في الإجهاز على المسلمين، وبلغ من شجاعة الجيش المسلم وصلابته على الرغم مما وقع به أن كبَّد الجيش الفارسيَّ خسائر في الأرواح بمثل ما أصاب المسلمين!

وكان (الفيروزان) ينافس (رستم) السيادة والشرف، فدبَّ بينهما الخلاف كلُّ يريد أن ينسب النصر لنفسه، وانقسم الجيش الفارسيَّ بينهما، فقرَّر (بهمن جاذويه) أن يعود بالجيش إلى (طيسفون) لكي يقطع عليهما هذا الخلاف، وترك قوةً كبيرة لتتبع فلول المسلمين، وجعل على قيادتها (جaban) و(مردنشة) فتبعوهم إلى (الساوة)، لكنَّ (المثنَّى) قلب الوضع فجأةً ليكرَّ على جيش الفرس كالصاعقة هجوماً بالخيالة قاده بنفسه فمزَّق جيش الفرس، وهدم نصرهم الزائف، وأسر القائدين (جaban) و(مردنشة) وأعدمهما جزاءً لخيانتهما، ونقضهما العهد مع المسلمين.

لم يدع دينُ الحقِّ الذي أشرقت شمسُه في نفس (ماهان) و(دَرام) منفذاً لتشفٍّ أو شماتة، فكم تمنَّى أن يمزِّقا (جaban) إرباً انتصاراً لأنفسيهما من الظلم الذي جنيا آثاره على يديه، لكنَّهما اليوم أيقنا بالواجب المقدس والهدف الأسمى في القلوب، ألا وهو دين الله الإسلام الذي يحبون ويغضون فيه لا يحرِّكهم هوَى أو ميل!

ورأى (رستم) أن يعاجل المسلمين بحرب تكون فاصلةً يُجهز بها على جيش المسلمين، ويقضي عليه تمامًا، فجَهَّز جيشًا عرمرم يزيد على المائة ألف، وأمر عليه (مهران) أكبر قواده وأمدّه بعدد كبير من الفيلة الضخمة، وتوجّه لقتال المسلمين في (البويب)، وكانت القيادة العامة لجيش المسلمين للـ(مثنى بن حارثة).. وتحرك الجيشان فحال بينهما النهر عند (البويب)^١، فعمد قائد الفرس إلى حيلة سابقة (بهمن جاذويه) ليعبر إليه المسلمون، لكن قائد المسلمين الفطن قال:

بل اعبروا أنتم إلينا!

لقد كان يومٌ (البويب) يومًا لا مثيل له في تاريخ الحروب، ويكفي أن يُقال عنه أنه نظيرُ يوم اليرموك في العراق!

وقف (ماهان) ورفيقه في صفوف الجند وقد هالهما من جيش الفرس العظيم ما أحدثه من ضجةٍ بفعل همهمة الجند، ووقع أقدامهم، وطرق السلاح، وقرع الطبول، وصياح الفيلة، وما وُضع عليها من أجراسٍ لتُفزع الخيل!.. لكنهما وجدا الثبات في قلوبهما، والسكينة في نفسيهما على نحو عجيب.. إنها قوة الإسلام.. دين الحق.. لقد عاينا نفوسًا تسعى إلى الشهادة والموت في سبيل الله، فذرفت أعينهما، فوالله ما ذرفت من الخوف، ولكنها ذرفت الدمع اشتياقًا للقاء ربّها في أشرف موضع.. الشهادة في ميدان الجهاد! وتبدّى (المثنى) في مركز القلب من مقدمة الجيش، وقد امتطى فرسه

(١) وقعت معركة البويب في رمضان ١٣هـ (نوفمبر ٦٣٤م).

(الشموس) - وكان لا يمتطيها إلا لحرب - يخطب في الناس محرّضهم على الجهاد، ويستحثّهم على بذل الأرواح والدّماء رخيصةً في سبيل الله وسلعته الغالية.. الجنة، ثم قال:

إني مكبّرٌ ثلاثاً، ثم احمّلوا مع الرابعة!

لكن جيش الفرس لم يمهلّه حتى يُتمّ التكبيرات فهاجم المسلمين بضراوةٍ وعنف، فثبت القائد الشجاع وضرب أروع الأمثلة في الشجاعة والفداء، وكان أقرب المحاربين من العدو، يتقدّم الصفوف ويقاقل قتال الأبطال، فسرت روح البطولة في الجند، وأبلوا أحسن البلاء، واستمات المسلمون في القتال، وثبت الذين فرّوا يوم الجسر ليمسحوا عن صحيفتهم وزر الفرار يومئذ وفعلوا بالفرس الأفاعيل، واستبسلوا وتعاهدوا على الشهادة، وطعن أخو (المثنى) فضلًا يقاتل حبواً حتى أنهكته الجراحات، فصاح في المسلمين:

ارفعوا راياتكم رفعكم الله! لا يهولنكم مصرعي!

ثم جاد بروحه الطاهرة، فجزع الجند لمصرعه، فصاح فيهم (المثنى) بقوة وعزم:

يا معشر المسلمين! لا يرُغنكم مصرع أخي! فإن مصارع خياركم هكذا! وحيي الوطيس، واستمر القتال عنيفاً هادراً لم ير مثله، وعمد (المثنى) إلى عمل يحسم به المعركة فأسند إلى اثنين من قواده مهمة حماية ظهره، وحمل بنفسه على قائد الفرس (مهران) حملةً صادقة، وشقّ الصفوف حتى وصل إليه وأجهز عليه، ولما عاين الفرس مصرع قائدهم دبّ فيهم الخور

والضعف، فأسرعوا إلى الجسر، لكن المسلمين كانوا أسرع منهم إليه فقطعوا عليهم خطَّ الرجعة، وأطبقوا عليهم من كل جانب حتى أفنوا جيشهم، وقتل من الفرس مائة ألف في هذا اليوم، وعُرف بيوم (الأعشار)!

وبعد هذه المعركة الفاصلة استطاع المسلمون أن يخضعوا من جديد أرض السواد كلها فعاد أهلها إلى الصلح بعد أن رُفعت عنهم قبضة الفرس المستبدة التي دامت قرونًا، ولم يتبقَّ أمام فتوحات المسلمين غير (طيسفون) عاصمة إمبراطورية الفرس، أو (المدائن) كما يسميها العرب.

وقد أحدثت هذه الهزيمة المدوية في صفوف الفرس اضطرابًا شديدًا، فاجتمع ساداتهم ورفضوا العهد الذي أعطته (بوران) لقائدها (رستم)، ووضعوا القائدين (رستم) و(الفيروزان) موضع الاتهام، وعزوا إليهما الهزيمة لما وقع بينهما من تنافس وخلاف، وقالوا لهما:

أين يذهب بكما الخلاف حتى وهَّمتما أهل فارس؟! وأطعمتما فيهم عدوَّهم؟! والله ما جرَّ هذا الوهن علينا غيركم يا معشر القواد! لقد فرَّقتما أهل فارس، وثبَّطتموهم عن عدوِّهم.. ما تنظرون والله إلا أن ينزل بنا الهلاك، وما بعد (بغداد)، و(ساباط)، و(تكرت)، إلا (المدائن)! والله لتجتمعن أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت، والله لولا أن في قتلكما هلاكنا لعجَّلنا لكم القتل الساعة، ولئن لم تنتهوا لنهلكنكم ثم نهلك وقد اشتفينا منكم!

فشقَّ ذلك على القائدين وقرَّرا أن يُخلِيا مسؤوليتهما عن القيادة، فذهبا إلى
(بوران) ابنة كسرى، فقالا لها:

اكتبي إلى نساء كسرى وسراريه ونساء آل كسرى!
فأخرجت لهم بذلك كتاباً فأرسلوا في طلبهن، وأُتي بهن جميعاً فسُلِّمن
للحرس يعذبوهن ليدلُّوهن على ذَكَرٍ من أبناء كسرى يكون له الملك،
وتتوحد عليه كلمة الفرس.



الفصل الحادي والعشرون

لم تستطع المرأة العجوز أن تتحمّل ما نزل بها من العذاب فأقرّت بما تعرف.. كانت وصيفة الملكة (شيرين) وكانت تحتفظ بكثير من الأسرار.. كانت بعد موت مليكتها تظنّ أنّ الماضي قد انتهى وابتلعت دواء النسيان، كما ابتلعت من قبل أبطال أحداثه..
أحضرت وصيفة الملكة إلى القصر لتُبدلِ باعترافها إلى كبار الدولة..
قالت:

كان جميع مَنْ في القصر يعرفون نبوءة كسرى (أبرويز) بزوال ملكه على يدي أحد أبنائه.. ويذكرون ردّ فعله تجاهها، فقد حبس أبنائه الذكور عن نسائهم مما أوغر صدورهم عليه وكان في ذلك فيما بعد مصرعه!
وكانت (بوران) قد عاينت ذلك بنفسها، فاستحثّت الوصيفة على الجديد من القول، لتواصل العجوز حديثها:

كان الأمير (شهریار) محطّ أنظار الجميع في القصر؛ فقد كان ابن الملكة (شيرين) الأثيرة على قلب كسرى، لكنه كان نزقاً طائشاً يعشق النساء، وكثيراً ما كان يتعرّض لنساء القصر وجواريه، حتى أنّي شكوته في ذلك يوماً لأمه، وكانت حيناً تنهره لأنه لم يكن في نظرها إلا وريثاً للعرش ومَلِك

المستقبل وعليه أن يترفع عن مطاردة الجوّاري والتعرّض لهن، وحيناً ترى في ذلك حقّه، فما أشبه الولد بأبيه! و"مَنْ شابه أباه فما ظلم!".

وعندما منع كسرى أبناء الذكور من نسائهم وحبسهم عنهن شقّ ذلك على (شهریار) الابن المدلّل لوالدته، فلم تُطَقْ أن تراه مهموماً حزيناً..

وفي يوم جاءها وهدهداً أن يقتل نفسه أمامها إن لم تمكّنه من امرأة يواقعها، وأمرتني الملكة فنظرتُ في نساء القصر، وأشرتُ عليها بخادمة لا تلد كانت تقوم بحجّامتها، فأرسلتها إليه فواقعها، لكنّها حملت منه! وأتيّت الملكة فأخبرتها ففزعت، وأمرتني أن أكتّم الأمر خوفاً من غضب كسرى الذي خالفنا أمره، وأرسلت الملكة بتلك الجارية إلى دار بعيدة وتعاهدتها بمن يقومون بخدمتها حتى وضعت، وتكتم الجميع الأمر خمس سنين..

وفي يوم رأت الملكة من كسرى رغبةً في الأبناء، فقالت له:

مولاي! أيسرُّك أن ترى لبعض بنيك ولداً؟

فقال:

نعم.

فأتت الملكة به، ولم يستطع كسرى في مواجهة تأثيرها عليه، وأمام رغبته في الأبناء مع تقدّم سنّه أن يرفض.

استرجعت (بوران) تلك الأحداث، فقالت:

نعم.. أذكر أنّ أبي فرح بهذا الغلام.. كان يحبّه، ويدلّله، ويقرّبه.. وقد تفاجأت بأمره، ولم استطع يومها أن أعرف من أين أتى به، وكنت أظنّه رُزق

به من إحدى جواريه.. لكن هذا الغلام كما ظهر فجأة اختفى فجأة، ولا أعلم ماذا جرى له بعد ذلك!

أشارت (بوران) إلى المرأة كي تستكمل حديثها، فاستجابت لأمرها على الفور، وقالت:

وبينما كان مولاي كسرى يلعب معه ذات يوم نظر إليه فإذا بأحد وركيه نقص فتذكر النبوءة.. أن علامة الغلام الذي ينتقص ملكه على يديه نقص في بعض بدنه.. فتحقق أنه هو، وأمر بقتله!

حاولت مولاتي الملكة أن تثنيه عن عزمه، فازداد إصرارًا وتمسكًا برأيه! فأرسلتني بالغلام سرًا إلى أمه، وأمرتها بالارتحال به إلى (سجستان) في الحال، وهذا كل ما أعرفه..

مولاتي! أستحلفك بالنار المقدسة أن تأمرهم ليتركوني وشأني! فإني امرأة مسنة هذني الزمن، وقد أفنيت عمري في خدمتكم.. حملتكم على يدي صغارًا، ثم كنت لك وإخوتك خادمة ومربية..

أرسل القصر الجنود إلى أم (الغلام)، وأحضروها يجرونها في قيودها.. حاولوا أن يعرفوا منها شيئًا، لكنها كانت أشد إصرارًا وعنادًا من سابقتها، فرفضت أن تخبر بالمكان الذي هربت ابنها إليه حينما علمت بأمر المذبحة التي ارتكبها كسرى (شيرويه) في حق إخوته..

واجهت الأم الخائفة صرامة التحقيقات وشدتها بإصرار أشد، وصرخت في تصميم:

لقد أنجى الله ابني من القتل مرتين! مرة حين أراد جده أن يقتله، والأخرى حينما أجهز عمه على جميع إخوته، ولو كان موجودًا أمامه لقتله لا

محالة! فكيف لي أن أسوقه بيدي إلى الموت وأدلكم عليه؟! هذا لن يكون أبداً
ولو انتزعتم روحي من جسدي انتزاعاً!
قالت (بوران) متلطفة:

يا أمّ الغلام! الأمرُّ اليوم قد اختلف عن ذي قبل فقد مات الجميع..
ذهبوا بغير رجعة.. والمُلكُ يسعى إلى ابنك، فلا تمنعِ حَقَّهُ! إنَّ العرشَ،
والتاجَ يناديان.. سيتحقَّقُ أملكُ فيه.. هيّا دليّنا عليه!
أحسّت الأمُّ من جانب (بوران) بالصدق، ومن جانب الجند والقادة
بالبأس والشدة، فأرشدت إليه بعد أن أخذت له العهد بالأمان..

كانت قد أودعته (إصطخر) عند أخواله، فذهب القادة والجند يبحثون
عنه هناك إلى أن وجدوه في بيت نار لـ (أردشير)، فأتوا به ونصّبوه وهو ابن
إحدى وعشرين سنة، وأعلن كسرى جديداً للبلاد باسم (يزدجرد الثالث)^١،
 واجتمع الفرس عليه اعتماداً على مشورة وزرائه، ورجال قصره، ووُضع على
قيادة الجيوش (رستم) يعاونه (الفيروزان)، وكانا خيرين قد باشرا الحروب
سنيّاً..

وتوحّدت كلمة الفرس وبدأوا في حشد قواتهم استعداداً للقتال المسلمين..

(١) وُضِعَ (يزدجرد الثالث) على عرش الإمبراطورية الفارسية في ذي القعدة ١٣هـ
(يناير ٦٣٥م).

بلغ (المنثى) تحركات الفرس، وكتب إلى أمير المؤمنين، فأمره بالانسحاب إلى حدود الصحراء، وصدق تقدير (المنثى) فلم يكذب يصل أمير المؤمنين كتابه حتى نقض أهل السواد العهد مع المسلمين تحت ضغط الدهاقنة والمرابطة، وثار بهم الفرس على الأراضي التي فتحها المسلمون فانتزعوها من أيديهم.. وانسحب (المنثى) بقواته، وفرّقها من وراء مياه الفرات من أول صحراء العراق إلى آخرها..

وعادت مسالح كسرى، واستقرّ أمرهم وهم في حالة من الترقّب، أما المسلمون فكانوا مسالح كثيرة ينظر بعضهم إلى بعض، ويُغيث بعضهم بعضاً عند الحاجة، وهم بين كرّ وفرّ في ضراوة الأسد ينازع فريسته ثم يعاود الكرّة.



كان (شودار) و(زاران) حديثاً عهداً بالإسلام، وقد اختلطت في قريتهما الأمور! تسير مع المسلمين فتتحسّن أحوال الفلاحين ويعيشون الحرية ورغد العيش بعد البؤس والفقر، ثم يحشد فيهم الدهاقنة وقادة الفرس رجالهم بالتخويف، والإرهاب، ودعوى نقض الصلح مرة بعد مرة.. الجولة للمسلمين تارةً وللفرس تارةً أخرى.. وهم من أمرهما في حيرة حتى ضاقت بهما وبأسريتهما الحياة، وكان هذا حال أغلب أهل القرية فقد أقفلوا عليهم بيوتهم، وكتبوا أمر إسلامهم خوفاً على أراضيهم، وأموالهم، وذرائعهم.. لم يستطع كثيرٌ منهم البقاء تحت هذا الضغط الشديد، ففرّوا عشيةً ليتركوا أراضيهم وبيوتهم، كما هجروها من قبل!

وكما جاهد الشيخ (طهمان) عمره في إخفاء أصله العربيّ سار ابنه على نهجه، فصبرا على مصابهما انتظاراً لزوال تلك الغيمة التي عكّرت صفو سمائهما بعد أن عرفت أخيراً شمس الإسلام، وأشرق في القلوب نورٌ لا يمكن لجميع قوى الظلام أن تقهره.. ومن ذاق حلاوة الإيمان، وجنى ثمرة عدله، والكرامة في ظلّه لا يمكن أن يعود من جديد لمرارة الكفر، وتحمل غُصص ظلمه!

كان أمير المؤمنين يتابع ما يجري على ساحة العراق بما تتوافد عليه من كتب يومًا بيوم.. فأرسل (عمر) في عمّاله أن لا يدعون أحدًا له سلاح، أو فرس، أو نجدة، أو رأيٍ إلا وجّهوه إلى العراق، فلم يدع رئيسًا، ولا ذا رأيٍ، ولا ذا شرفٍ، ولا خطيبًا، ولا شاعرًا إلا ورماهم به، وكان يقول في ذلك:

والله لأضربنّ ملوكَ العجم بملوك العرب!

وفي عزيمةٍ عمريّةٍ صادقة قرّر أمير المؤمنين الخروج بنفسه على رأس جيش لقتال الفرس، فنادى في المهاجرين والأنصار، وخرج في غرة المحرم سنة أربع عشرة للهجرة حتى أتى موضعًا يقال له (صراراً)^١، وجعل (طلحة بن عبيد الله) على مقدمته، وأمره بالتحرك حتى أتى موضعًا شرق المدينة يُقال له (الأعوص)، وسمّى على ميمنته (عبد الرحمن بن عوف) وعلى يسرته (الزبير بن العوام)، واستخلف (علي بن أبي طالب) بالمدينة..

(١) بئر تبعد عن المدينة ثلاثة أميال على طريق العراق.

لكن المسلمين نهوه عن الخروج بنفسه، وقام فيهم (عبد الرحمن بن عوف) ينهاه، ويقول:

يا أمير المؤمنين! ما فديتُ أحدًا بأبي وأمي بعد النبي ﷺ قبل يومئذٍ ولا بعده غيرك.. فلا ندعكَ تخرج! فقم وابعث جندا! فإنه إن هُزم جيشُك ليس كهزيمتك، وإنَّكَ إن تُقتلَ أو تُهزمَ في أول الأمر فأخشى أن لا يُكبرَ المسلمون وأن لا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبدًا.. وإني أرى أن تبعثَ رجلاً مكانكَ، وترجعَ أنتَ إلى المدينة!

فوقف أمير المؤمنين والناس جميعًا على هذا الرأي، وقال (عمر):

فمن ترى أن نبعثَ إلى العراق؟

قال (ابن عوف):

وجدته!

قال أمير المؤمنين:

ومن هو؟!

قال (ابن عوف):

الأسدُ في برائته.. (سعد بن أبي وقاص)..

قال أمير المؤمنين:

نعم.. أصبتَ.

وأرسل أمير المؤمنين إلى (سعد) فأمره على العراق، وأوصاه فقال:

يا (سعد)! لا يُعَزِّتَكَ من الله أن قيلَ خالَ رسولَ الله ﷺ ، وصاحبَ رسول الله ﷺ ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ليسَ بينه وبينَ أحدٍ نسبٌ إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيْعُهم في ذاتِ الله سواء، اللهُ ربُّهم وهم عبادهُ يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عند الله بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيتَ النبيَّ ﷺ عليه منذ بُعثَ إلى أن فارقنا فالزمه فإنه الأمر!

هذه عظمتي إياك، إن تركتها ورغبتَ عنها حبطَ عملُك وكنتَ من الخاسرين!

وتأهَّب (سعد بن أبي وقاص) ليخوض أشرس قتالٍ يخوضه المسلمون في مواجهة الإمبراطورية الفارسيَّة العاتية! إنَّها المعركة الفاصلة التي تعني للمسلمين أو الفرس النهاية!

وخرج (سعد) من المدينة في ستة آلافٍ يشيِّعهم أميرُ المؤمنين، ويوصيه: يا (سعد)! إنِّي قد وَلَّيتُكَ حربَ العراق فاحفظ وصيتي! فإنَّكَ تُقدِّمُ على أمرٍ شديدٍ كرهه لا يخلصُ منه إلا الحقُّ، فعوِّذْ نفسك على الصبر فهو عتادُ كلِّ خيرٍ.. فإن صبرتَ على ما أصابكَ تجتمع لك خشيةُ الله.. وخشيةُ الله تجتمعُ في أمرين: في طاعته، واجتناب معصيته.

ووقف (عمر) في الجيش خطيباً.. حَبَّبَ إليهم الجهاد، وأمرهم بالطاعة، ووعدهم بنصر الله الذي ينصر مَنْ ينصره كما بشرَ رسول الله ﷺ.

وانطلق (سعد) بجيشه حتى اتحد مع جيش (المنثى)، وكان (المنثى) قد انتقضت جراحته التي أصابته يوم الجسر، واشتدَّ وجعه، وقد قارب أجله

على النفاذ فأفضى بوصيته إلى أخيه، وأمره أن يُعَجِّلَ بها إلى (سعد)، وأسلم الروح إلى بارئها، لينطفأ السراج الذي ملأ فتوح العراق نوراً.

لقد كان (المثنى) تَوَاقاً إلى الجهاد.. بذل فيه طاقته، وأفنى عمره، وما ترك الدنيا إلا وهو يفكر في أمره ويوصي به.

وانتهى (سعد) إلى جثمان صاحبه المُسَجَّى فترخَّم عليه، وأكرم زوجته (سلمى) فخطبها وتزوَّجها حين انقضت عِدَّتُها، وقام إلى وصيته فسعى في إنفاذها..

وجاء الأمر من أمير المؤمنين إلى (سعد) أن تحرَّك إلى القادسية، وعاد فأوصاه قائلاً:

إِنِّي آمُرُكَ وَمَنْ مَعَكَ بِتَقْوَى اللَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَإِنَّ التَّقْوَى أَفْضَلُ الْعُدَّةِ عَلَى الْعَدَدِ.. وَأَمُرُكَ وَمَنْ مَعَكَ أَنْ تَكُونُوا أَشَدَّ احْتِرَاسًا مِنَ الْمَعَاصِي مِنْكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ، فَإِنْ ذَنُوبَ الْجَيْشِ أَخَوْفٌ عَلَيْكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ، وَإِنَّمَا يَنْتَصِرُ الْمُسْلِمُونَ بِمَعْصِيَةِ عَدُوِّهِمْ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ تَكُنْ لَنَا بِهِمْ قُوَّةٌ، لِأَنَّ عَدَدَنَا لَيْسَ كَعَدَدِهِمْ، وَعُدَّتُنَا لَيْسَتْ كَعُدَّتِهِمْ، فَإِذَا اسْتَوَيْنَا فِي الْمَعْصِيَةِ كَانَ لَهُمُ الْفَضْلُ عَلَيْنَا مِنَ الْقُوَّةِ.. وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَوْنَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ كَمَا تَسْأَلُونَهُ الْعَوْنَ عَلَى عَدُوِّكُمْ!

وأوصاه بالجند.. تعبئتهم، وأمر حراستهم، وراحتهم، والعدل بينهم، واختيار أنسبهم للقيادة، وأوصاه باختيار أرض المعركة، والتعرف على طبيعتها، وبثِّ الطلائع والعيون فيها..

وظلَّ أمير المؤمنين يتواصل مع قاداته عن طريق الرسل يخبرونه عن كل شيءٍ عن عدوِّهم، وعن أرض المعركة فكان كمن يرى ساحة القتال بعيني رأسه، مع أنه عاش ومات ولم تطأ قدماه أرض العراق!!

وكان من وصاياه إلى قائده أن يستعين بمن صَحَّحت توبُّته من المرتدين، لكن عليه ألا يوليَّهم.. كما أوصاه وجنده بذكر الله عند الغزو، وأن يكثروا من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله..

واختار (عمر) وفداً من أهل النظر، والرأي، والهيبة، وأمر سعداً أن يُكَمِّل الوفد بجماعةٍ يختارها بنفسه، ففعل ليكتمل لهذا الوفد أربعة عشر رجلاً تحت رئاسة (النعمان بن المقرن المزني) وكان فيهم: (فرات بن حيان)، و(عاصم بن عمرو)، و(المغيرة بن شعبة)، و(الأشعث بن قيس).. وأمر بهم أن يذهبوا دعاءً إلى كسرى (يزدجرد) بالحكمة، والموعظة الحسنة..

في بلاط القصر الأبيض.. المكانُ واحدٌ، لكن يتغيَّر الأبطال بتغير الزمن!!

لم تمضِ تسعُ سنواتٍ منذ وقف رسولُ الله ﷺ بين يدي كسرى (أبرويز) يدعوه إلى الإسلام، وقد مزَّق الرسالة فمزَّق الله ملكه، واليوم يتكرَّر المشهدُ من جديد في شخص كسرى (يزدجرد الثالث) كسرى الأخير يقف بصلفه، وغروره في مواجهة وفد المسلمين الذين تسلَّحوا بقوة الحق، والثبات عليه..

وكأنهم القدر الذي لا يستطيع الإنسان له دفعاً ولا يملك أمامه حيلة!
إنَّه الحقُّ الذي لا يثبت في مواجهته الباطلُ مهما انتفش وتزَيَّن، فالله غالبٌ
على أمره.

ودخل الوفدُ المباركُ على (يزدجرد) لم يرهبهم سلطانه، ولم تخطف
أبصارهم زينته.. دخلوا عليه في عزَّة المسلم الذي لا يخشى غير ربِّه..
عجب كسرى لمظهرهم إذ رآهم عجافاً، خيولهم ضعيفةً، وأرديتهم على
عواتقهم!

فسألهم كسرى عن طريق ترجمانه:
ما جاء بكم ودعاكم إلى غزو بلادنا؟! أمِنْ أجل أنا تشاغلنا عنكم
اجترأتم علينا؟!

فقام (النعمان بن المُقرن) خطيباً فقال:
إنَّ اللهَ رحماً فأرسلَ إلينا رسولاً يأمرنا بالخير وينهانا عن الشرِّ، ووعدنا
على إجابته بخيري الدنيا والآخرة.. فنحنُ ندعوكم إلى ديننا، وهو دينٌ حسنٌ
الحسن، وقبَّحَ القبيحَ كلَّه، فإن أبيتم فأمرٌ من الشرِّ هو أهونٌ من آخر شرٍّ
منه: الجزية، فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتُم إلى ديننا خلَّفنا فيكم كتابَ الله،
وأقمناكم عليه، على أن تحكموا بأحكامه، ونرجعُ عنكم وشأنكم وبلادكم!
قال كسرى:

إني لا أعلم في الأرض أُمَّةً كانت هي أشقى، ولا أقلَّ عدداً، ولا أسوأ
ذات بينٍ منكم، فقد كُنَّا نوكلُ بكم قرى الضواحي فيكفوننا أمركم!.. فإن

كَانَ غَرَرٌ لِّحَقِّكُمْ فَلَا يَغُرَّتْكُمْ مَنَّا!.. وَإِنْ كَانَ الْجَهْدُ^١ فَرَضْنَا لَكُمْ قُوَّةً إِلَى أَنْ يَحِينَ خَصْبُكُمْ، وَأَكْرَمْنَا وَجُوهَكُمْ، وَكَسَوْنَاكُمْ، وَمَلَكْنَا عَلَيْكُمْ مَلِكًا يَرْفُقُ بِكُمْ!

فَقَامَ (الْمَغِيرَةُ بْنُ زُرَّارَةَ)، فَقَالَ:

أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ سُوءِ الْحَالِ فَكَمَا وَصَفْتَ وَأَشَدُّ..

وَذَكَرَ مِنْ سُوءِ عَيْشِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَرَحِمَهُ اللَّهُ بِهِمْ بِإِرسَالِ النَّبِيِّ ﷺ
مِثْلَ مَقَالَةِ (النَّعْمَانِ)، ثُمَّ قَالَ مُخَاطَبًا كَسْرَى:

اخْتَرْتُ لِنَفْسِكَ إِمَّا الْجُزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَأَنْتَ صَاغِرٌ، أَوْ السِّيفَ، وَإِلَّا فَأَنْجِ
نَفْسَكَ بِالْإِسْلَامِ!

غَضِبَ كَسْرَى غَضَبًا شَدِيدًا، وَقَالَ فِي ثَوْرَةٍ هَائِلَةٍ:

لَوْلَا أَنَّ الرِّسْلَ لَا تُقْتَلُ لِقَتَلْتُكُمْ.. لَا شَيْءَ لَكُمْ عِنْدِي.. ارْجِعُوا إِلَى
صَاحِبِكُمْ فَأَعْلَمُوهُ أَنِّي مُرْسِلٌ إِلَيْهِ (رَسْتَمٌ) حَتَّى يَدْفِنَهُ وَيَدْفِنَكُمْ مَعَهُ فِي
خَنْدَقِ الْقَادِسِيَّةِ!

ثُمَّ اسْتَدْعَى خَادِمًا بِوَقْرٍ^٢ مِنْ تَرَابٍ، وَأَمَرَهُ وَمَنْ مَعَهُ:

احْمِلُوهُ عَلَى أَشْرَفِ هَؤُلَاءِ! ثُمَّ سَوَّقُوهُ حَتَّى يُخْرَجَ مِنْ بَابِ (الْمَدَائِنِ)!
يَقْصِدُ بِذَلِكَ إِهَانَتَهُمْ.

فَقَامَ (عَاصِمُ بْنُ عَمْرٍو)، وَقَالَ:

أَنَا أَشْرَفُهُمْ.

(١) الجهد: الضيق والشدة.

(٢) الوقر: الحمل الثقيل.

وتناول حملَ التراب فحمله على كتفه، وخرج إلى راحلته فركبها يتبعه
الوفدُ وسط حالةٍ شديدةٍ من سخريةِ القصر حتى كاد كسرى ينقلب على قفاه
من الضحك وقومُه يضحكون لضحكه..

وانطلق وفد المسلمين قافلين إلى (سعد) لم تزعزعهم كلمات كسرى
الجوفاء ولا أفعاله الخرقاء، كلُّهم ثقة في نصر الله.. فلما بلغوا (سعدًا) قال له
(عاصم) مُسْتَبْشِرًا ومُبَشِّرًا:

أبشر! فوالله لقد أعطانا الله أقاليدًا مُلكهم!

ولما دخل (رستم) على مجلس (يزدجرد) ووجدهم يتضاحكون وأُخبر
بالأمر ارتسمت الكآبة على وجهه ولام كسرى أن أعطاهم تراب فارس،
فصمت (يزدجرد) مهمومًا وقد فهم مغزاه.. وبدون أن يرجع (رستم) إلى
كسرى أرسل الجنَد في طلبهم كي يستعيد حملَ التراب من بين أيديهم فلم
يدركوهم، فتشام الرجال ونزل بساحتها الهُم والكآبة..



(١) الإقليد: المفتاح أو حلقة تكون في أنف الناقة تشد منها، والجمع أقاليد.



الفصل الثاني والعشرون

لم يزل (رستم) متشائماً منذ أن كلفه كسرى بقيادة جيوش الفرس في مواجهة جيوش المسلمين، وقد حاول مراراً أن يتنصّل منها لكنّ (يزدجرد) أرغمه.. لم يكن (رستم) يدري سبب تلك الرعدة التي كانت تتملّكه كلّما اقتربت المواجهة وصارت وشيكةً بين الجيشين!.. كيف له أن يخاف عدوًّا؟! وهو مَنْ هو!!

إنّه قائدُ جيوش أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ! مملكة فارس العريقة التي تضرب بجذورها آلاف السنين في عمق الماضي.. فكيف يهزمها رعاءٌ أجلاف أقبلوا عليها من الصحراء؟! ثم إنه (رستم) ذو العقلية العسكرية الفذة! صاحب الخطط العسكرية المذهلة، وقائد الجيوش المنتصرة دومًا! جيوش كاملة العدد والعُدّة جميعها تحت تصرفه، فما يضيرها من مواجهة هؤلاء الأعراب الذين ما دفعهم إلى ما صاروا إليه إلّا ضعف قادة الفرس؟! وقد آن الأوان أن يتدخّل بنفسه ليحسم هذا الصراع، ويُجهز على طموحاتهم الجامحة!

وهكذا كان يطمئن نفسه ويُسكّن روحه القلقة، لكن ما زالت تحتوشه المخاوف في يقظته ومنامه، فقد تسلّط عليه الأحلام المزعجة والهواجس منذ أن خرج من (المدائن) قاصدًا (القادسيّة).. وبعيدًا عن الغرور الذي

أعمى بصره وكثيراً ما كان ليطمس على بصيرته، كان يرى بعقله الأملعي وفطنته النافذة اللذان يحكم بهما دائماً على الأمور فيسبر بدقة غورها- هؤلاء المسلمين فيزداد إجلالاً وإكباراً لهم، ويتسائل متعجباً:

مَنْ هؤلاء الذين جاءوا إلينا؟! وَمَنْ أين أتوا بمثل هذه الثقة التي تملأ قلوبهم؟! وكأنها يقرأون الغيب، أو يُسيرون القدر!

ثم ينظر إلى ما أحرزوه من انتصاراتٍ على إمبراطورية الفرس على مدى سنواتٍ ثلاثٍ، فلا يراها إلا علامة على صعود نجمهم وأفول نجم إمبراطورية مريضة تصارع الشيخوخة والهزال.. لا يمكن أن تكون صدفة؛ فالصدفة في تقدير الحكماء أمثاله لا يمكن أن تتكرر بمثل هذا العدد من المرات!

لقد رآهم - بما لا يدع أمامه مجالاً للشك - بشراً من نوع جديد لم يعهد مثلهم بين قاداته وجنده.. يحاربون عن عقيدة صلبة! يُضَحُّون في سبيلها بأرواحهم، ويحرصون على الموت كما يحرص هو وَمَنْ ومعه على الحياة!

كيف يتسابقون هكذا على الموت كما لو كان بعد الموت حياة؟!

يقولها ويعجب، ثم ينغلق قلبه على ما وقر فيه من مخاوف، ويقول في نفسه:

إنَّهم القدرُ الذي يترصده هو ورجاله!!

ولقد مرَّ (رستم) بجيشه الهائل على رجل من الأعراب فحاوره.. لم يزل يذكرُ الحوار الذي دار بينهما!.. كل كلمةٍ منها وعابها بينه وبين نفسه... سأله:

ما جاء بكم؟ وماذا تطلبون منّا؟!

فأجابه الرجل بثقة:

جنّنا نطلب موعود الله بمُلك أرضكم وأبنائكم إن أبيتم أن تسلموا!

فقال (رستم) متعجباً:

فإن قُتلتم قبل ذلك؟!

أجابه بردُّ أشدَّ حسماً من سابقه:

مَنْ قُتل منّا دخل الجنة، ومَنْ بقي أنجزه الله وعده، فنحن على يقينٍ.

فقال (رستم) ساخراً:

لقد وُضِعنا إذاً في أيديكم؟!

فأجابه الأعرابيُّ بكلماتٍ لم تزل ترنُّ في أذنيه:

أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها، فلا يغرنّك ما ترى حولك فإنّك لا

تحارب الإنس، وإنّما تحاربُ القدر!

فما كان من (رستم) حين عجزت كلماته أمامه إلا أن قتله في ثورة غضبه!

ولقد تحقّق لـ (رستم) قول الأعرابيِّ على مسافة أميال قليلة من الموضع

الذي قتله فيه، فقد مرَّ بجيشه على إحدى القرى، فغضب جنده أموال أهلها،

وقتلوهم، وشربوا الخمر، ووقعوا على النساء، وشكى أهلها إلى (رستم)،

فقال لقومه:

والله لقد صدق الأعرابيُّ! والله ما أسلمنا إلا أعمالنا، والله إنَّ العربَ

أحسنُ سيرةً منكم!

لقد أيقن بزوال مُلكه، وأفول نجم قومه في مواجهة شمس هذا الدين الساطع، فامتلاّت نفسه خوفاً، ورهبةً، لكنه لا يمكن أن يتراجع وهو (رستم) قائد الجيوش، وعظيم المملكة!

ورأى (رستم) المطاولة حتى يَمَلَّ المسلمون وينصرفوا، فتباطأ في سيره حتى وصل إلى (القادسيّة) في أربعة أشهر.. وخاب ظنُّه ولم يَمَلَّ المسلمون، واحتدمت المواجهة..

كان (رستم) قد حشد جيشاً لا مثيل له بلغ قوامه مائتي ألف بينهم ستون ألفاً من الفرسان، ومثلهم من المشاة، والباقي للخدمات، وضع على رأس جيشه ثلاثة وثلاثين فيلاً ضخماً مُدَرَّباً على أعمال القتال، على أن يصحب كل فيل منها أربعة آلاف جنديّ يقاتلون بالأسهم والحراب الطويلة على تابوتٍ مُثَبَّتٍ على ظهره، ويحتمون به، ويقاتلون من حوله.. وقد استعان بأقوى قواده وأشدّهم بأساً: (الهرمزان) في جند (الأهواز) على الميمنة، و(الجالينوس) في جند (الباب) على الميسرة، وذي الحجاب (بهمن جاذوية) على جند (همدان) في القلب.. واتخذ مكانه في مركز القيادة من ورائهم، فجعل لنفسه مَظَلَّةً وضع تحتها سرير ملكه، ورفع راية الفرس العظمى عن يمينه.

أما جيش المسلمين فكان قليل العدد والعُدّة لا يتجاوز الثلاثة والثلاثين ألفاً، لكنه كان جيشاً غنياً بأفذاذ الرجال، فكان بينهم ثلاثمائة وبضعة عشر صحابياً منهم سبعون بدرياً.. يقودهم (سعد بن أبي وقاص).. الأسد في برائته.

والتقى (رستم) عند قنطرة القادسيّة بـ(زهرة بن الحويّة) على مقدمة جيش (سعد) فألح له بالصلح مقابل جعلاً للمسلمين، لكن (زهرة) لم يجبه بشيء، فرجع (رستم) إلى معسكره، وأرسل في طلب رجل من المسلمين يكلمه، فبعث إليه (سعد) بـ(ربيعي بن عامر) وكان رجلاً حَصِيْفًا.. ودخل (ربيعي) على (رستم) وقد زُيِّنَ مجلّسه بالنارِق المذهّبة، والزرايِّ المطرّزة، وأصناف الحرير، وأظهرت اليواقيت، والالآئ الثمينة، والجوهر، وعلى رأسه تاجه الذهبيّ المرصّع بالجواهر يخطف بريقه الأبصار، وقد جلس على سرير من ذهب، ومُدَّ أمامه بساطٌ طويل من الديباج.. وكان (ربيعي) في ثياب صفيقة، وفي جنبه سيف قصير معلق بخارقة، وفي يده ترسٌ صغيرٌ، وهو على فرس عجفاء لم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل عنها فخرق بعض الوسائد فربطها، وأقبل عليه سلاحه، ودرعه، وبيضته^١ على رأسه، فقالوا له:

ضع سلاحك!

فقال:

إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتوني! فإمّا أن تتركوني هكذا، وإلاّ رجعتُ؟!

فقال (رستم):

اأذنوا له!

(١) البيضة: الخوذة.

فَأَقْبَلَ (رَبِيعِي) يَتَوَكَّأُ عَلَى رُحْمِهِ فَوْقَ النَّهَارِقِ فَخَرَقَ عَامَتَهَا، حَتَّى وَقَفَ فِي مُوَاجَهَةٍ (رَسْتَم) الَّذِي خَاطَبَهُ مُتَكَبِّرًا:

مَا جَاءَ بِكُمْ؟!

فَقَالَ (رَبِيعِي):

اللَّهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ الْعِبَادِ، وَمَنْ ضَيَّقَ الدُّنْيَا إِلَى سَعَتِهَا، وَمَنْ جَوَرَ الْأَدْيَانَ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ، فَأَرْسَلْنَا بِدِينِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِنُدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَبَلَ ذَلِكَ قَبَلْنَا مِنْهُ وَرَجَعْنَا عَنْهُ، وَمَنْ أَبَى قَاتَلْنَاهُ أَبَدًا حَتَّى نُفْضِيَ إِلَى مَوْعُودِ اللَّهِ.

فَقَالَ (رَسْتَم):

وَمَا مَوْعُودُ اللَّهِ؟!

قَالَ (رَبِيعِي):

الْجَنَّةُ لِمَنْ مَاتَ عَلَى قِتَالِ مَنْ أَبَى، وَالظُّفْرُ لِمَنْ بَقِيَ.

ثُمَّ انْصَرَفَ، وَجَاءَهُ (حَذِيفَةُ بْنُ مَحْصَنٍ)، ثُمَّ (الْمَغِيرَةُ بْنُ شَعْبَةَ)، فَقَالَا لَهُ مَا قَالَهُ (رَبِيعِي)..

وَهَكَذَا انْتَهَتْ الْمَفَاوِضَاتُ بِغَيْرِ نَتِيجَةٍ..

تَرَدَّدَتْ عَلَى مَسَامِعِهِ أَقْوَالٌ، وَأَلْقَيْتُ فِي قَلْبِهِ مَخَافَ، لَكِنَّهُ فِي النِّهَايَةِ هُوَ (رَسْتَم) الَّذِي يَخْلَعُ اسْمُهُ الْقُلُوبَ، وَيَكْفِيهِ مِنْ قُوَّتِهِ وَقُوَّةُ جَيْشِهِ أَنْ يَقْهَرَ تِلْكَ الْأَوْهَامَ، وَيَهْزِمُ تِلْكَ الْمَخَافَ.. وَهَكَذَا دَلَّاهُ غُرُورُهُ، وَأَسْلَمَتْهُ نَفْسُهُ

المتغترسةً إلى قدره الذي ينتظره، شاء أم أبى.. لم يدعْ غروره وكبره مكاناً
لآية فكرة أخرى غير انتصاره وعلو شأنه، حتى أنه حدث أحد قادته ليلة
المعركة قائلاً:

غداً ندقُّ المسلمين في القادسيّة!

فقال له الرجل:

إن شاء الله.

فردّ (رستم) متغترساً:

وإن لم يشأ!!

واحتدمت المعركة التي أصبحت لا بديل عنها..

واقرب الوعد الحق، وأصبح القتالُ وشيكاً، وتراء الجيشان..

وأصاب (سعداً) مرضٌ مفاجئٌ.. انتشرت في جسده الدماملُ حتى
أعجزته عن الحركة، ولم تمكنهُ من الجلوس فأكبَّ على وسادة وضعها تحت
صدره يتكئ عليها، واتخذ لنفسه مكاناً مشرفاً في حصن (قُدَيْس) يطلُّ على
ساحة القتال، وأسند القيادة إلى (خالد بن عرفة)، ثم خطب في الناس فقال
بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله:

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي الْمُلْكِ وَلَيْسَ لِقَوْلِهِ خُلْفٌ، وَهُوَ الْقَائِلُ
تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ
الصَّالِحُونَ﴾ (١٠٥) ^١.. إِنَّ هَذَا مِيرَاثُكُمْ، وَمَوْعُودُ رَبِّكُمْ، وَقَدْ أَبَاحَهَا اللَّهُ

(١) (الأنبياء: ١٠٥).

لكم منذ ثلاث حجج.. وقد جاءكم هذا الجمع وأنتم وجوه العرب، وخيارُ كلِّ قبيلةٍ، وعِزٌّ مَنْ وراءكم، فإن تزهّدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمعَ الله لكم الدنيا والآخرة، ولا يُقَرَّبُ ذلك أحدًا إلى أجله، وإن تفشلوا وتهنوا وتضعفوا تذهب رِيحُكم وتوبِقوا آخرتكم..

ثم استدعى جماعةً من أصحاب الرأيّ والشجاعة أمثال (المغيرة بن شعبة)، و(عاصم بن عمرو)، و(طليحة بن خويلد)، و(عمرو بن معد يكرب)، و(عروة بن زيد الخيل)، و(بشير بن ربيعة الخثعمي).. وأمرهم أن يخطبوا في الناس فيلهبوا حماسهم ويستثيروا نخوتهم، ويحققوا لهم المثل الأعلى في الشجاعة والفداء، وقال لهم:

ألا إنّ الحسدَ لا يحلُّ إلا على الجهاد في أمر الله.. يا أيُّها الناس! فتحاسدوا، وتغايروا على الجهاد!

ودعا الخطباء والشعراء أمثال: (الشمّاح)، و(الخطيئة)، و(عبدة بن الطيب).. ليحرّضوا المسلمين على الفداء.. وكان أمير المؤمنين قد أمر بـ(سلمان الفارسي) أن يكون رائدًا للجيش، وداعيه..

وأمر (سعد) فاصطفَّ الجيش، وشرع يخطب فيهم:

الزموا مواقفكم! لا تحرّكوا شيئًا حتى تصلُّوا الظهر!.. فإذا صلّيتم الظهر فإنّي مكبرٌ تكبيرةً فكبروا، واستعدوا!.. واعلموا أنّ التكبير لم يُعطه أحدٌ قبلكم، إنّما أُعطيتموه تأييدًا لكم.. ثم إذا كبرتُ الثانية فكبروا!..

وتهَيَّأُوا، ولتستَمَّ عدَّتُكم.. ثم إذا كَبُرَتْ الثالثةَ فكَبِّروا!.. ولينشط فرسانُكم لِيبارزوا، وليطاردوا.. فإذا كَبُرَتْ الرابعةَ فشدُّوا النواجزَ على الأضراس، وازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوَّكم، وقولوا لا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله!

ولَمَّا صَلَّى المسلمون الظهرَ أمرَ (سعد) فقرأت سورةَ الأنفالِ في الكتائبِ كلها، فهشَّت القلوبُ، ودمعت الأعينُ، وغشيت الجميعَ السكينةُ.. ولَمَّا فرغت القراءةَ كَبَّرَ (سعد)، فكَبَّرَ الذين يلونه بتكبيره، وكَبَّرَ بعض الناس بتكبير بعض حتى كَبَّرَ الجيش كله، وجيش الفرس يسمع.. فملاهم الرعب حتى أن أرجلهم كانت تخفق في ركبهم من الخوف!

ثم كَبَّرَ الثانيةَ فاستعد الجند، وتجهَّزوا للقتال، فكان كلُّ رجلٍ يقول لصاحبه وقد حدَّد وجهته في الهجوم، وأبصر وجهَ عدوِّه:

أي فلان! تنحَّ عني حتى لا أُوطئكَ بفرسي! إنِّي لا أرى إلا وجهَ مقاتلي، إنِّي غير راجعٍ إن شاء الله حتى أُقتل أو يفتح اللهُ عليَّ!

ثم كَبَّرَ الثالثةَ فبرز أهل النجدات، والشجعان، وأبطال المبارزة لينشبوا القتال، ونادوا بالمبارزة فخرج لهم أمثالهم من الفرس، وأول من برز من أبطال المسلمين (غالب بن عبد الله الأسدي)، فخرج يتمشَّى بين الصَّفين وهو يرتجز:

قد عَلِمْتُ وَارِدَةَ الْمَسَالِحِ^(١) ذَاتُ اللَّبَانِ^(٢) وَالْبَنَانِ الْوَاضِحِ
أَنِّي سِامٌ^(٣) الْبَطْلُ الْمُشَايِح^(٤) وَفَارِجُ الْأَمْرِ الْمُهِمِّ الْفَادِحِ

فلقي قائد الفرس (هرمز) فغلبه، وأوقعه، وجردّه، واقتاده أسيراً..
ثم خرج (عاصم بن عمرو) يرتجز:

قد عَلِمْتُ بِيَضَاءِ صَفَرَاءِ اللَّبِّ^(٥) مِثْلُ اللَّجِينِ^(٦) إِذِ تَغَشَّاهُ الذَّهَبُ
أَنِّي امْرُؤٌ لَا مَنَ تَعِيَهُ السَّبَبُ مِثْلِي عَلَى مِثْلِكَ يُغْرِيه الْعَتَبُ

وهزم أحد قادة الفرس، وساقه أمامه أسيراً، ثم برز من أبطال المسلمين
(عمرو بن معد يكرب)، و(طليحة بن خويلد)، وغيرهم فصرعوا أمثالهم
من الفرس، ولم يخسر واحدٌ منهم مبارزةً واحدةً!
إنها المبارزة!.. فنَّ عسيرٌ من فنون القتال لا يظهر فيه إلا الشجعان، ولا
يتقنه إلا الأبطال!

(١) المسالِح: الجماعة المسلّحة.

(٢) اللبان: الصدر.

(٣) السام: جمع سَم، أو السام هو: الخفيف اللطيف السريع من كل شيء.

(٤) أشاح بالسيف أي لَوَّح به.

(٥) اللَّبُّ: موضع القلادة من الصدر.

(٦) اللجين: الفضة الذائبة.

وارتفعت معنويات الجيش المسلم، وهبطت معنويات جيش الفرس بعد أن خسروا في أول جولةٍ عددًا من أبطالهم!

وانتظر المسلمون التكبيرة الرابعة وقد هاجت نفوسهم إلى القتال، وتحركت أكبادهم للقاء العدو.. لكنَّ (رستم) لما رأى تفوق المسلمين في المبارزة والمطاردة لم يمهلهم حتى يكبروا الرابعة فأمر بالهجوم العام، وضغط الفرس بقوةٍ هائلةٍ على جناح قبيلة (بجيلة) من جيش المسلمين.. هاجموا بثلاثة عشر فيلاً وما يزيد على خمسين ألفاً من المشاة أحدَ جناحيّ جيش المسلمين قليل العدد! فنفرت الخيل أمام الأفيال فكان المقاتلون الشجعان يثبون من فوق ظهورها حتى لا تفرّ بهم ويقاتلوا مترجلين، وتساقط القتلى في جيش المسلمين!

وعلى الفور أمر (سعد) قائده البطل (طليحة بن خويلد) في قومه بني أسد أن يذبوا عن (بجيلة)، فوقف (طليحة) يصيح في قومه:

يا عشيرته! لو علم (سعد) أن أحداً أحقُّ بإغاثة هؤلاء منكم لاستغاثهم.. ابتدئوهم بالشدة، وأقدّموا عليهم إقدام الليث الحرّية! فإنّا سُمّيتم أسداً لتفعلوا فعله.. شدّوا، ولا تصدّوا!.. وكروا، ولا تفرّوا!.. شدّوا عليهم باسم الله!

وتقدّم (طليحة) يقود أبطال بني أسدٍ فقاتلوا بجرأةٍ لا مثيل لها حتى حبسوا الفيلة!!

لقد كان عملاً بطوليًا خارقًا نال فيه خمسمائة من قومه الشهادة تحت أقدام الفيلة وهم يصارعونها ويصارعون رجالها!.. ثم تصدَّى لتلك الفيلة (عاصم بن عمرو) ومن معه فاستدبروها وقطعوا وُضْنَهَا^١، فسقطت التوايت بمن فيها وتكسَّرت، وصارت الفيلة وبالا عليهم بما وطأت من جند الفرس وهي تفرُّ أمام أبطال المسلمين.. واستمر القتال عنيفًا هادرًا حتى غربت شمس هذا اليوم، ففاء كلُّ جيشٍ إلى معسكره، وقد مُنِيَ الفرسُ بخسائر كبيرة، وخسروا سلاح الفيلة مما حال دون مشاركتها في اليوم التالي، واستشهد عددٌ كبيرٌ من المسلمين، وعُرف هذا اليوم بيوم (أرماث).

وأرسل أمير المؤمنين أمدادًا من جيوش المسلمين المنتصرة ببلاد الشام.. لقد كانت المعركة في انتظار البطل الذي لم ترَ ساحات القتال مثله! القائد الذي ما خاض معركةً إلا كان نقطة التحول فيها وبطلها الأول! الذي كان يُلقَى في المعارك لينشب القتال من فرط شجاعته، وجراته! الذي أرسله خليفة المسلمين (أبو بكر) حين استمده (خالد بن الوليد) في العراق فأرسله مددًا وحده، وقال حين عجبوا من فعله:

والله لا يُهزَم جيشٌ فيه مثلٌ هذا.. والله إن صوته في المعركة بألف فارس! إنه القائد الفذُّ، والبطل المغوار (القعقاع بن عمرو التميمي).. أرسله أمير المؤمنين في مددٍ إلى المسلمين بالقادسية فتقدَّم في ألف فارسٍ ينهبون بخيلهم

(١) الوضين: حزام عريض من سيور، أو شعر، أو جلد يُشدُّ به الرجل على البعير، وهو هنا السير الذي يُشدُّ به التابوت على ظهور الفيلة المحاربة.

الأرض نهباً، ويسبقون الدقائق والساعات حتى يصلوا في أسرع وقت
لنجدة إخوانهم المجاهدين بغير راحة أو توقف، وكيف يتوقف أو يرتاح
وقد جعلت راحته ومن معه في الجهاد؟!

وحين اقترب (القعقاع) من ساحة القتال قسم جيشه أقساماً متتابعة
جعل بين كل قسمين مسافة مدّ البصر، وأمرهم أن يرفعوا أصواتهم بالتكبير،
ويحدثوا جلبة، ويشيروا الغبار حتى يظنّ مَنْ يراهم أنهم أمدادٌ كبيرة العدد!
(وسعد) ينظر إلى فعله وقد أثلج صدره.. يباهي به من حوله، ويصدق
فيه قول الصديق.. إنه (القعقاع) أفرسُ الفرسان!

وما إن ترائى (القعقاع) بين الصفين حتى صاح بصوتٍ زلزل نفوس
الفرس، وألقى في قلوبهم الرعب:
من يبارز؟!

فخرج له من صفوف الفرس فارسهم العنيد وقائدهم الشرس ذو
الحاجب (بهمن جاذوية)، فقال مُعرِّفاً نفسه والكبرُ يتفجّر من بين جنبه:
أنا (بهمن جاذويه)..

فعرفه (القعقاع) وتذكّر فعله بالمسلمين يوم الجسر، فقال مغضباً:

يا لثارات (أبي عبيد)، و(سليط)، وأصحاب الجسر!

ولم يمهل (القعقاع) فهاجمه كشعلة من النار، وضربه ضربة هائلة أطاحت
برأسه، فإذ بها تتهاوى بين جنده، ثم خرج له (فيرزان) و(النبذوان) فقتل
(القعقاع) أولهما، وقتل (الحارث بن ظبيان) الآخر، ثم نادى (القعقاع) في
الناس:

يا معشرَ المسلمين! باشروهم بالسيوف! فَإِنَّمَا يُحْصَدُ الكافرون بها!
وهكذا أنشب (الققعقاع) القتال في اليوم الثاني للقادسية.. الذي عُرف
بيوم (أغواث).

وتابع (سعد) قائده المظفر (الققعقاع) في إكبار وإعجاب، وهو يقول:
والله ما رأيتُ أفرسَ منه! وظلَّ يتابعه في القتال وقد حمل على الفرس
وحده في هذا اليوم ثلاثين حملةً، يقتل في كلِّ حملةٍ عظيمًا منهم!!
وظهر من أبطال المسلمين في هذا اليوم فارسٌ كان يعدُّه العربُ في
الجاهلية والإسلام بألف فارس!
إنه (عمرو بن معد يكرب) أخذ يمرُّ بين الصفوف يشدُّ من عزم المسلمين
ويقوِّيهم، ويصيح فيهم:

يا معشرَ المسلمين!.. كونوا أسودًا فَإِنَّ الفارسيَّ تَيْسٌ!
وبينما هو يصول ويجول بين الصفين إذ رماه فارسيٌّ بنشابةٍ فوقعت في
قربوس فرسه^١، فحمل على صاحبه، وأخذه بيديه من فوق فرسه كما يُؤخذ
الطفل، فكسر عنقه، ووضع بين الصفين على الأرض، ثم ذبحه كالشاة،
وقال:

هكذا فاصنعوا بهم!

(١) القربوس: الجزء المرتفع المقوس من السرج.

كانت المعركة تدور على أشدها، والقتال ضارياً وهناك من يقبع خلف الأسوار سجيناً.. لم يحزنه سجنه مرتهناً بقيوده، ولا ظلمة محبسه خلف أسواره، ولكنه كان أسير سجن أشقّ على نفسه، ألا وهو العجز عن المشاركة فيما تطيب له نفسه، والحرمان مما يحب، وما كان شيء أطيب عنده ولا أحب إلى نفسه من الجهاد في سبيل الله!

كان (أبو محجن الثقفي) قد قال في الخمر شعراً فحبسه (سعد)، وأُسقط في قيده في السجن ليمنع من القتال، وما إن سمع دويّ المعركة، وقرع السيوف حتى هاجت نفسه للقتال، فبكى وأنشد في ذلك شعراً:

كَفَى حُزْنًا أَنْ تَرْتَوِيَ الْخَيْلُ بِالْقَنَا ^(١)	وَأُتْرِكَ مَشْدَوْدًا عَلَيَّ وَثَاقِيَا
إِذَا قُمْتُ عَنَّا ^(٢) الْحَدِيدُ وَأَغْلِقْتُ	مَصَارِيْعُ دُونِي قَدْ تَصُمُّ الْمُنَادِيَا
حُبِسْتُ عَنِ الْحَرْبِ الْعَوَانِ ^(٣) وَقَدَبَدْتُ	وَأَعْمَالُ غَيْرِي يَوْمَ ذَاكَ الْعَوَالِيَا
فَلِلَّهِ عَهْدٌ لَا أَخِيْسُ ^(٤) بِمِثْلِهِ	إِذَا فُرِّجْتُ أَلَّا أَزُورَ الْحَوَانِيَا ^(٥)

(١) القنا: الرماح.

(٢) عَنَّا: كلفه من الجهد ما لا يطيق.

(٣) الحربُ العوان: الحرب التي تشهد القتال مرةً بعد مرة.

(٤) خَاسَ العهدَ: نقضه وخانه.

(٥) الحانة: المكان الذي تُقدَّم به الخمر.

فسمعتَه (سلمى) زوجةً (سعد) فرقت له، ثم نزلت إليه وكلمته، فقال لها راجياً مستعطفاً:

خَلِينِي! فَلَكَ عَلَيَّ إِنْ سَلِمْتُ أَنْ أَجِيَّ حَتَّى أَضَعَ رَجُلِي فِي الْقَيْدِ، وَإِنْ قُتِلْتُ اسْتَرَحْتُمْ مِنِّي!

فَقَالَتْ:

إِنِّي اسْتَخَرْتُ اللَّهَ وَرَضِيتُ بِعَهْدِكَ.

وخلَّته، فوثب على فرسٍ لـ(سعد) يُقال لها (البلقاء)، ثم التقط رنحاً، وانطلق..

وإذ بالمسلمين يرون رجلاً ملثماً يبرز فجأةً من بين صفوف المسلمين ليقف بين الصفين يلعب بالرمح على ظهر فرسه يقلبه بين يديه في سرعةٍ خاطفة، يشيح به ذات اليمين وذات الشمال في خفةٍ تعجز عن متابعتها العين! اقتحم صفوف العدو، فأخذ لا يحمل في ناحيةٍ إلا قصفهم قصفاً منكراً، ولا يحمل على فارسٍ منهم إلا ودقَّ صلبه!

والمسلمون يعجبون يقولون هذا مَلَكٌ.. وجعل (سعد) ينظر إليه ويعجب، يقول في نفسه: من ذلك الفارس؟! فالضَبْرُ^١ ضَبْرُ (البلقاء)، والطَفْرُ^٢ طَفْرُ (أبي محجن)! و(أبو محجن) في القيد!!

(١) الضبر: هو أن يجمع الفرس قوائمه الأمامية يرفعها واقفاً على رجليه الخلفيتين.

(٢) الطفر: هو الوثوب في ارتفاع.

وظلَّ (أبو محجن) يقاتل عامة يومه حتى جنَّ الليلُ فانفلت من المعركة،
ورجع إلى سجنه، وردَّ الفرس والسلاح، وشدَّ رجله إلى القيد، وأنشد:

وليلةٌ قَاسٍ ما يشعرون بي ولم أُشعِرُ بمخرجي الزحوبا
فإن أُحْبِسَ فذاككم بلائي وإن أُتْرِكَ أذيقُهم الحُتُوبا

وجاء (سعد) امرأته (سلمى)، فقالت له:

كيف كان قتالُكم؟

فجعل يخبرها، ويقول:

لقينا ولقينا حتى بعث الله رجلاً على فرسٍ أبلق، لولا أنّي تركتُ (أبا
محجن) في القيد لظننتُ أنّها بعض شأئله!

فقالت (سلمى):

والله إنّهُ لـ(أبو محجن)!

وقصّت على زوجها قصّته، فأتاه (سعد) في محبسه، وعفا عنه، فعاهده ألا
يقول الشعر في شيءٍ يغضبه.. وانتهى ثاني أيام القتال..

ثم أقبل اليوم الثالث.. يوم (عماس)، وفيه احتدم القتال على أشده حيث
أقبلت على المسلمين أمدادٌ من الشام قوامهم ستة آلاف على رأسهم (هشام
بن عتبة)، ووصلت إمداداتٌ كبيرة إلى الفرس، كما أصلحوا توايت الفيلة
ليشارك ذلك السلاح شديد الفتك في القتال من جديد.. وأرهقت الفيلة

المسلمين في القتال، فنظر (سعد) فإذا بفيلين عظيمين أحدهما أبيض، والآخر أجرب.. رآهما يهدآن جيش المسلمين هداً، والشهداء يتساقطون تحت أقدامهما الثقيلة ومن حولهما، فأمر (سعد) قائديه (الققعاع) وأخيه (عاصم) أن يكفيا المسلمين الفيل الأبيض، وأمر فارسين من بني أسد أن يكفياهم الفيل الأجرب..

وتقدّم الأبطال الأربعة فحاصروا الفيلين من الأمام والخلف، فضربوا أعينهما بالرماح، وقطعوا مشفريهما^١، فولّيا هاربين مذعورين إلى النهر فوطئا جند الفرس، وتبعتهما بقيّة الفيلة إلى النهر فسقطت فيه ليخسر الفرس هذا السلاح الرهيب، واستمر القتال ضارياً عنيفاً حتى أسدل الليل أستاره، فتوقّف القتال، وفاء كل جيشٍ إلى معسكره.

وأثناء الليل تنبّه (سعد) إلى وجود مخاضة^٢ أسفل مواقع المسلمين، فخشي أن يستغلها الفرس ويعبروا خلالها فيهاجموا جيش المسلمين من الخلف بغتة، فأرسل (عمرو بن معد يكرب) و(طليحة بن خويلد) لاستطلاع الأمر، وصدق قول الفاروق فيها حين أمدّ بهما (سعداً) أنّهما بألفي فارس! فقد حدثتهما نفسيهما بمهاجمة جيش الفرس على غفلة منهم، وأخذهم على غرة! وتحركت نخوتهما، وأبوا ألا يعودا إلا بنصرٍ أو شهادةٍ، بعد أن ضاقا بطول المعركة، وتأخر النصر!

(١) المشفر: شفة البعير، ومعناها هنا خرطوم الفيل.

(٢) المخاضة: البركة الضحلة التي يمكن خوضها بالأرجل وعلى ظهر الخيول.

كَبَّرَ الرجالان، وانطلقا كالإعصار يشقان معسكر الفرس.. يصرعان الجند، ويجندلان الأبطال، فانخلعت قلوب المشركين، وظنوا أنهم يقاتلون جيشاً كامل العدد والعدة، وكان (القعقاع) على الجانب الآخر يحرس معسكر المسلمين، فلما سمع التكبير ظنَّ أن أخويه في خطر.. لم يستطع الانتظار حتى يرجع إلى قائده (سعد) فهُرِعَ بمن معه إليهما، وهاجم معسكر الفرس بكتيبته.. ونظر (سعد) وقد احتدم القتال، فأخذ يدعو:

اللهم اغفر لد(قعقاع)، وانصره!.. فقد أذنتُ له وإن لم يستأذن!

وكَبَّرَ (سعد) تكبيرةً، وأعطى الأمر فزحفت بنو أسد..

وكَبَّرَ الثانية، وأعطى الأمر فزحفت (بجيلة)، و(النخع)، و(كندة)، وأهل النجدات..

ثم كَبَّرَ الثالثة، فكانت المزاخفة، والأمر بالهجوم الشامل على جميع قطاعات العدو..

واختلط الجيشان في قتالٍ مريرٍ مستميت، و(القعقاع) يضرب بسيفه ذات اليمين، وذات الشمال.. يشعل حماسة الجند طوال الليل، حتى أشرق الصبح و(القعقاع) يتقدّمهم ويدعوهم لمواصلة القتال والصبر عليه، ويصيح فيهم: إن الدَّبرَةَ^١ بعد ساعة لمن صبرها، فاصبروا ساعة! واحملوا! فإنَّ النصرَ مع الصبر!

(١) يُقال: جعل الله لهم الدبرَةَ أي النصر، ويُقال: جعل الله عليهم الدبرَةَ أي الهزيمة.

وواصل المسلمون القتال المستميت، و(سعد) لا يفتر عن الدعاء طوال الليل:

اللهم اغفر لهم!.. اللهم انصرهم!

ولما رأى (رستم) أنَّ قاداته لا يصلون إلى مستوى قادة المسلمين في المبارزة والمطاردة أمرهم أن يخرجوا مزاحفةً في ثلاثة عشر صفًا، ولا يخرج واحدٌ منهم للمبارزة!

وعزم (الققعقاع) على عمل يعجّل به إلى إنهاء المعركة التي لا زالت مستعرة، فشكّل رأس حريةً بقليل من الجند يحمون ظهره، وجعل هدفه (رستم)، واستطاع أن يفتح ثغرةً عميقة في قلب الجيش الفارسيّ.. لقد كانت مواجهةً عنيفة، ومعركةً في حدّ ذاتها؛ لأنّ (رستم) كان في أمتع مواقعهم.. وأرسل الله ريجاً شديدةً أثارت في وجوه الكافرين غباراً فأعمت أعينهم وأطاحت بفرش قائدهم (رستم)، وبعد أن عاين (رستم) قتل قواده، وتفرّق جنده من حوله وانفضاضهم عنه لم يجد مهرباً إلا النهر فألقى بنفسه فيه فتبعه (هلال بن علفة) فأخذه بقدميه خارج النهر، وطرحه أرضاً، وفلق هامته بسيفه، ثم صعد على سريره وهو يصيح:

قتلت (رستم) وربّ الكعبة!

وانهارت جبهةُ الفرس لما رأوا مصرع كبيرهم، ثم جاء (ضرار بن الخطاب) فأنزل راية الفرس العظمى من عليائها، فلم ترتفع بعدها أبداً! وفرّ (الهرمزان)، ولم يثبت إلا (الجالينوس) ببعض جنده، لكنّه لم يستطع

الصمود طويلاً أمام الهجوم الإسلاميّ الكاسح فأمر جنده بعبور النهر، فاندفعوا مذعورين والمسلمون في إثرهم، فانهار بهم الجسر، وغرق منهم ثلاثون ألفاً كانوا مقرّنين في سلاسلهم، وقتل (الجالينوس)..

أخيراً بعد قتالٍ عنيفٍ لم تشهد ساحات القتال مثله انكشف الفرس، وانقشعوا عن سماء المعركة كالسحب التي بدّتها الريح، ليتساقطوا قتلى أو يولّوا فارّين كالجرذان المذعورة..

وهلّل أبطال المسلمين وكبّروا فرحاً في يوم من أيام الإسلام المجيدة.. سجدوا لله شكرًا.. مرّغوا جباههم في التراب تواضعًا لله وحمدًا.. تعانقوا، وقد ذاقوا لذة النصر بعد صبر أيام على القتال.. بكفاح أبطالهم، وبجهود أبطالٍ ذهبوا ولم تذهب بطولاتهم التي سطرها التاريخ ناصعةً بأحرفٍ من نور.. (خالد)، و(المثنّى)، و(أبو عبيد)، و(سليط)..

وقف (ماهان) بين أخوانه المجاهدين يشكر ربّه، ويحمد فضله أن أقرّ أعينهم بالنصر.. اغرورقت عيناه، وخشع قلبه فرحًا بالنصر، والتمكين، والحرية.. فرحًا لأخوانه الذين عرفوا طريقهم إلى الشهادة، والجنة..

مرّ أمام ذاكرته مشهد صاحبه (دّرام) وهو يخالط جمعًا من جنود الفرس حتى جندلوه قتيلاً، ومات متشبّثاً بعدوّه.. قتل منهم نفرًا غير قليل.. وعاجلوه بطعنةٍ في إثر طعنةٍ حتى لفظ أنفاسه الطاهرة!

لم يستطع (ماهان) أن يصل إليه وقد وطّته الخيلُ حتى مزقته، فلم يتبيّن بعد زوال الغبار عن تلك البقعة رفاته من رفات أخوانه الشهداء.. لم يحزن

(ماهان) عليه ولم يبكيه، وإنَّما غبطه وتمنَّى لو فاز بالشهادة مثله!

لقد كان يوم (القادسية) يوماً من أيام الله! شهد قتالاً ضارياً لم يعرف المسلمون مثله من قبل، ولا من بعد.. قتالاً استمر ثلاثة أيام بلياليها إلى أن حُسم في اليوم الرابع.. واستشهد في صفوف المسلمين ثمانية آلاف وخمسمائة شهيد، أي ما يساوي رُبْع جيش المسلمين بأكمله!

وكان أمير المؤمنين (عمر) والحرب دائرة لا يقرُّ له قرارٌ، لم يُطَقِّ الانتظار حتى تأتية أخبار المعركة، فكان يخرج كل يوم من المدينة حتى يبلغ الصحراء من طريق العراق ينتظر، حتى أتاه البشير بأخبار النصر، فرفع كفيه ضراعةً لله وشكراً، وحمد الله تعالى على فضله.. ولما أخبر بأسماء الشهداء الذين تمَّ حصرهم ترحَّم عليهم، واستغفر لهم، ولا يزال يسأل عن المزيد حتى قيل له: ما أُصِيبَ بعدهم من رجلٍ يُعرَفُ وجهه..

فبكى (عمر) طويلاً، ثم قال:

والمستضعفون من المسلمين لا يضرهم ألا يعرفهم (عمر)، لكنَّ الذي أكرمهم بالشهادة يعرفُ وجوههم، وأنسابهم، ويحبُّهم.. فما يصنعون بمعرفة (عمر) ابن أمِّ (عمر)؟!



الفصل الثالث والعشرون

كان كسرى (يزدجرد الثالث) قد أمر رجاله أن يوافوه بأخبار ساحة القتال لحظة بلحظة.. يقف رجاله في تتابع: الأول، ثم الثاني، ثم الثالث.. من القصر الأبيض حتى ميدان القتال كلَّ رجلين على مسافة الصوت المسموع بينهما- يتناقلون أخبار المعركة حتى تصل إليه!.. وكان آخر ما وصل إليه أن قُتل (رستم)!!

نزل الخبر على رأسه كالصاعقة.. لم يصدّق كسرى ما يسمعه.. إنّها الهزيمة، وضياع الملك!

غضب كسرى غضبًا شديدًا، وانتابته ثورةٌ من الجنون! وأخذ يهذي بكلمات:

لا يخبرني أحدٌ بهزيمة أقوى إمبراطورية في الأرض من حفنةٍ من الأعراب!

مَنْ تحدّث أمامنا بمثل هذا الهراء ضربنا عنقه!

هكذا لم يدع الغرور والكبر في نفسه مساحةً للاستماع إلى الحقيقة.. ثم جاء ما كان يحذر.. أخبارٌ عن فلولٍ منهزمة مكسورة.. عشرات الآلاف من القتلى.. زحفٌ إسلاميٍّ اجتاح مملكته!

ماذا عساه أن يفعل؟! لا بد أن يوليَّ هاربًا بأسرع ما يمكن، وإلا أُسقط في أيديهم!

وبدأ الزحف الإسلامي.. وتقدَّم الجيش المنتصر ففتح مدينة (بهرسير) -الجزء الغربيّ للـ(مدائن) على الجانب المقابل لها من نهر دجلة - ففرَّ منها الجند والحرس وعبروا إلى الضفة الأخرى للنهر بعد أن ضمُّوا إليهم سفنهم، ليجد (سعد) وجنده أنفسهم وقد حجز بينهم وبين عدوِّهم النهر الذي كان في ثورة فيضانه ماذا يرمي بزبدته، وقد صار عدوُّهم في منعةٍ منهم لا يصلون إليه!

وقف (سعد) على ساحل النهر ومن ورائه رجاله يطالعون في الأفق موكب النصر بعد أن صار عدوُّهم في متناول أيديهم، ولن تمنعهم عنه قوَّة كانت!

خطب القائد المسلم في رجاله، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله:

أيها الناس! إنَّ عدوَّكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تخلصون إليهم معه، وهم يخلصون إليكم معه، وليس وراءكم شيءٌ تخافون أن تُؤثروا منه..
أيها الناس! لقد رأيت أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا.. ألا إني عزمت على قطع هذا البحر إليهم!
فقالوا جميعًا:

عزم الله لنا ولك على الرشد، فافعل!

ومضى (سعد) فيما شرح الله إليه صدره، وما اتفق عزم الجيش عليه.. فشكّل كتيبةً قوامها ستمائة مقاتلٍ يقودها (عاصم بن عمرو) أطلق عليها اسم كتيبة الأهوال، وكلّفهم أن يجزوا النهر، وأن يحمو الجانب الآخر من النهر، ثم أتبعها بالكتيبة الخرساء يقودها (الققعاع بن عمرو).. وعلى الفور تحرّكت الكتيبتان، وانطلقتا إلى الموقع المحدّد، وقاتلتا بشجاعة وجرأة ليس لها مثيل على الجانب الآخر للنهر.

ووقف (سعد) متضرّعاً إلى ربّه.. يستحضر صدقَ يقينه بدعائه الذي لا يردُّ.. إنّه سلاح المؤمن الذي يُشهره في وجه عدوّه بعد أن يعلم الله أنّه قد استنفد حيله ولم يبقَ له غير قوة الله التي لا تُغلب.. وأيُّ مؤمنٍ؟! إنّه (سعد) الذي دعا له رسول الله ﷺ: "اللهم أجب دعوته".

دعا (سعد) في تذلّلٍ وأقسم على ربّه، ثم أصدر الأمر بالعبور.. واندفع رجلٌ من المسلمين فذكر اسم الله، ثم أقحم فرسه فارتفع على الماء، وقال مَنْ خلفه مثل قوله، واقتحموا النهر جميعاً حتى صارت صفحة الماء كأنّها أرضٌ لهم!.. وامتلاً النهر بالخيّل والرجال فلم يعد يُرى ماؤه!!

ثم اقتحم (سعد بن أبي وقاص)، و(سلمان الفارسي)، و(المقداد بن عمرو)، وجملة من كبار الصحابة.. و(سعد) يردّد:

حسبنا الله ونعم الوكيل.. والله لينصرنَّ الله وليّه، وليُظهرنَّ دينه، وليهزمنَّ عدوّه إن لم يكن في الجيشِ بغْيٌ أو ذنوبٌ تقلبُ الحسَنات!

وقال (سلمان الفارسي):

والله لقد ذُللتُ لهم البحورُ كما ذُللَ لهم البرُّ، أما والذي نفسي بيده
ليخرُجَنَّ منه أفواجا كما دخلوه أفواجا!

كان الفرس على الجانب الآخر للنهر يتابعون هذا المشهد العجيب.. نهرٌ
دافقٌ مهيبٌ! شديد العمق! سريع التيار يجري بالمدِّ! اسودَّ ماؤه! يقذف
الموج زبداً كثيفاً على شاطئيه! والمسلمون يندفعون فيه!! يمشون على صفحته
وكأنها أرض!!

صاح الفرس في فزع:

ديوان.. ديوان.. (شياطين.. شياطين)!!

وقال بعضهم لبعض:

والله ما تقاتلون إنساً، بل تقاتلون جنًّا!

لقد كان يوماً عظيماً من أيام الإسلام، ومعجزةٌ لرسول الله ﷺ خلقها الله
لأصحابه، لم يُرَ مثلها لا قبل ولا بعد!

حقاً إنَّه لأمرٌ يثير في النفس العجب! لكن سوف يتبدّد العجب كتبدّد
ظلمة الليل مع بزوغ الشمس.. وأيُّ شمس؟!... إنَّها شمس الإيمان.. الإيمان
بأنَّ الله ناصر جنده.. وأيُّ جند؟!... إنَّهم رجال الإسلام، وحملة كتابه،
وحماة عرينه من كبار الصحابة.. أهل الجنة.. أمثال: (سعد)، و(سلمان)،
و(المقداد).. ومن ورائهم جميعاً أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) إمام العدل،
وثالث هذه الأمة في الفضل بعد رسول الله ﷺ، وأبي بكر الصديق رضي
الله عنه.. وهل يُهزَم جمعٌ فيه أمثال هؤلاء الذين يقوم الرجل فيهم مقام

أمة كاملة؟! الذين لو أقسم أحدهم على الله لأبره، ولو واجهتهم الجبال لأزالوها!

دخل (سعد) القصر الأبيض فاتحاً منتصراً متواضعاً لله عزَّ وجلَّ، يرتل قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝۳۶ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَنِكَهَيْنَ ۝۳۷ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝۳۸ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ۝۳۹﴾ حتى إذا بلغ إيوان كسرى خرَّ لله ساجداً..

ليشهد هذا الموضع ولأول مرة منذ بنائه سجدةً لله تضيء ما بين أرضه وسماؤه، وكلمة ذكر الله طاهرة تُعَطِّرُ أجواءه! نورٌ، وعبيرٌ يملآن ساحاته التي تزيّنت لكسرى على الزمان ببريق الجوهر، وعبق أزكى العطور.. فما أشرقت بنور، ولا تطيبت بعبير مثل اليوم!.. إنه نور الإسلام المتلأل، وعبيره الأخاذ! لو لم ير كسرى الأمر بعينه ما صدّق، لكنّه عاينه بنفسه فهاله ما رأى وتملكه الرعب، ولم يجد أمامه بديلاً عن الفرار!

أسرع كسرى إلى إحدى شرفات القصر الخلفية فتسلّق حافتها، ودلّاه أحد حاشيته منها في زَبِيل^٢، وكان قد أخذ معه ما استطاع حمله من الكنوز، وفرَّ معه بعض خاصته، ولاذ بالهرب مَنْ كان بالقصر من الجند والأعوان خوفاً من المسلمين الذين ملأوا قلوبهم بالرعب، والفرع!

(١) سورة الدخان: (٢٥-٢٩).

(٢) الزَبِيل: القَفَّة.

وقف أمير المؤمنين في جمع من الصحابة وعامة المسلمين في ساحة مسجد رسول الله ﷺ ، وقد امتلأ بغنائم لا تُحصى ولا تُعد من اللآلئ، والجوهر، والذهب، والياقوت، والفيروز، والزبرجد، والعقيق.. كنوز، منها ما تنوء بحمله الفئة من الرجال، ومنها ما هو في حجم الحصاة.. لم يُنتقص منها شيء، ولم يغُل جنديٌّ منها ذرة!

لقد أعجب هذا أمير المؤمنين، وأعجب أكثر بأمانة جنده، فقال مفاخرًا بهم:

إِنَّ قَوْمًا أَذُوا هَذَا لَذَوُوا أَمَانَةَ!

فقال (عليّ بن أبي طالب):

يا أمير المؤمنين!.. عَفَفْتُ، فَعَفَّتْ الرِّعْيَةُ، وَلَوْ رَتَعْتَ لَرَتَعَتْ!

وتذكّر (عمر) أمرًا لطالما استشرفت نفسه إليه وتمنّى لو تحقّق على يديه..
إنّه عهدٌ قطعه رسولُ الله ﷺ وحقٌّ على الله أن ينجزه له وعده - واليوم أن له أن يبرّ به..

فتّش عنه بعينه بين جموع الناس المحتشدة، فلمّا رآه انشرح صدره،
وارتسمت على شفّته ابتسامةُ الرضا، ثم ناداه:

يا (سراقة)!.. قُمْ فَالْبَسْ!

وعلى الفور قام (سراقة بن مالك) إليه، فوضع في عضديه سوارى كسرى
يخطف بريقها الأبصار.

سار (سراقة) يتهاذى بكنز كسرى مضرب الأمثال على مدى الدهر.. يتذكّر وعد رسول الله ﷺ يوم الهجرة.. ست عشرة سنة مضت ولا يزال يذكر.. لا يزال يحتفظ بكتابه، ويتذكّر تلك الكلمات التي انسابت من ثغر رسول الله ﷺ بها أملاه على كاتبه.. لقد كان (سراقة) واثقاً أن هذا الوعد صائرٌ إليه مهما ابتعدت به الأيام.. ثقته في دين ربّه، وقول رسوله ﷺ.. ثقة لا تتزعزع منذ أن آمن به، وصدّقه.

فرّ (يزدجرد) بما استطاع حمله من كنوزه وأمواله إلى (حلوان)، فجمع عسكره وفلوله المنهزمة، ووجههم إلى (جلولاء) فاجتمع له بها جيشٌ عظيم، فخرج إليهم (سعد) بجيشه فهزمهم شرّ هزيمة، ومزّق شملهم، وقتل منهم أعداداً كبيرة، وطارد (الققعاق) فلولهم إلى (خانقين) وسحقهم.

استجمع (يزدجرد) على مدى عدة سنوات جميع قوته، وقد انتقل الصراع إلى ساحة فارس بعد أن فتح المسلمون العراق بكاملها.. واجتمع للفرس جيش عرمرم بلغ قوامه مائةً وتسعين ألفاً يقودهم قائد الفرس العنيد (الفيروزان) - الذي كم نافس (رستم) على الزعامة، واليوم قد خلصت له وحده وخرج إليهم الجيش الإسلامي يقوده (النعمان بن المقرن)، فالتقوا بـ(نهاوند)^١.

(١) وقعت معركة (نهاوند) بين المسلمين والفرس في سنة ٢١هـ (٦٤١م).

دار قتالٌ عَنيفٌ استمات المسلمون فيه، وظهرت لهم بطولاتٌ وتضحيات، وكان القائد المسلم (النعمان) أول من نال الشهادة، واستشهد (عمر و بن معد يكر ب)، و (طليحة بن خويلد) وجمعٌ كبير من المسلمين، ونصر الله المسلمين نصرًا مؤزَّرًا، وقُتل قائدُ الفرس (الفيروزان).

كانت هذه هي المواجهة الأخيرة بين الفئتين.. انتهت بالنصر الحاسم للإسلام، وانطلقت فلولُ المنهزمين هاربةً، وانساحت الجيوش الإسلامية المظفرة خلفهم يحرِّرون أراضي فارس من رجسهم كما سبق وحرَّروا العراق من قبل، وانتهى تواجد الفرس كقوةٍ عسكرية، وسقطت إمبراطوريتهم بغير رجعة.

فرَّ (يزدجرد) مواصلاً هربه بعد أن تفرَّق عنه جنده، ولم يتبقَّ معه سوى جملةٍ من خدمه وحاشيته، وقليل من حرسه وبعض أعوانه.. حمل ما استطاع حمله من كنوزه وأمواله، وانطلقَ حتى بلغ (الري) إحدى المقاطعات الخاضعة لإمبراطوريته الغابرة.. فاستقبله حاكمها (آبان جاذويه) في قصره فأسرف في احترامه وتبجيله، وتحمَّل كبره وتعاليه، وكان يضمِر له الشرَّ فلمَّا انفرد به انقضَّ عليه فانتزع خاتمه من يده قسرًا، وأمهرَ ختمَ كسرى وثائقَ كانت في حوزته بامتلاك أراضٍ وضياع، وتفويض من كسرى ببسط يده في السُّلطة والحُكم، وبعد أن حقَّق غايته ردَّ إليه خاتمه.

لم يجد (يزدجرد) الأمان في ظلِّ هذا المرزبان الغادر، فقرَّر الخروج من (الري) إلى (أصفهان)، لكنَّه ما إن وصل إليها حتى وجد الجيش الإسلاميَّ

أسرع منه إليها ففتحها، فولّى هارباً منها دون أن يحلّ بها، وأسرع إلى (إصطخر)، ثم تحوّل عنها سريعاً خوفاً من أن يسبقه الفتح الإسلامي إليها، فانتقل إلى (كرمان) ..

كان (يزدجرد) مع ما آل إليه أمره من ذلٍّ وخيبةٍ، وخذلانٍ متعجرفاً فظاً، يَرُدُّ الإحسان بالإساءة، فقد تكبّر على مرزبان (كرمان)، وعامله بازدراء معاملة الخدم والعبيد أمام رجاله وأعوانه، فثار عليه هذا المرزبان، وأمر جنده فجزّوه من رجله، وقال له مُعَنِّفًا:

ما أنت بأهل لولاية قرية فضلاً عن الملك، ولو علم الله منك خيراً ما صيرك إلى هذه الحال!!

وأمرهم بطرده شرّ طردةٍ من بلاده، فخرج (يزدجرد) مخذولاً إلى (سجستان) يصحبه مَنْ تَبَقَّى من أعوانه - أربعة آلاف من الطباخين، والفراشين، والحريم، والأطفال ليس فيهم محارب واحد فأكرمه حاكمها وأحسن إليه، لكن ما إن سأل (يزدجرد) خراجها لِيُفِقَ على مَنْ معه، حتى تنكّر له، ومنع عنه النفقة، وأهانته، فخرج (يزدجرد) إلى (خراسان)، واستقبله مرزبانها (ماهويه) بالتعظيم وقَدَّمَ له المال والعطايا، فما كان من (يزدجرد) إلا أن أهانه أمام رعيته فضجر (ماهويه) منه، وكاد يخرج له لولا أن الفتح الإسلاميّ داهم بلاده، فقرّ (يزدجرد) بمن معه مذعوراً إلى (مرو الروذ) آخر حدود الإمبراطورية الفارسية، ولما استقر بها كتب إلى ملك (الصغد) وملك الصين يستغيث بأحدهما أو كليهما فلم يجيباه، وما لبث

قليلاً حتى تبعه الجيش الإسلامي إليها ففرَّ إلى (بلخ)، وأدركه المسلمون بها فهزموه وأسروا أكثر من كان معه، واستطاع أن ينجو بنفسه بصعوبةٍ ومعه عددٌ قليلٌ، فعبر بهم نهر (جيحون) إلى خاقان الترك مستنجداً به، واستجاب خاقان الترك له وأمدّه بجيشٍ إلى (بلخ) لقتال المسلمين..

انطلق جيشُ الترك يصحب (يزدجرد)، لكنَّهم ما إن بلغوا (مرو الروذ) حتى دبَّ في الجند الخور وانهارت معنوياتهم؛ لبعد الشُّقة عليهم وتوجُّههم لقتال أناسٍ لا حاجة لهم إلى قتالهم، فتفرَّقوا عنه وعادوا من حيث أتوا.

وكان (يزدجرد) في رحلة هروبه الطويلة قد أخفى كنوزه وخزائنه في موضع بـ(مرو الشاهجان)، فانطلق إليها سريعاً واستخرج كنوزه منها، وعزم على اللحاق بخاقان الترك أو ملك الصين ليعيش بقيَّة حياته متمتعاً بشروته، لكنَّ جيش المسلمين الذي كان يتابعه فاجأه بالهجوم وانقضَّ عليه وغنم خزائنه وأمواله، فلاذ (يزدجرد) بالفرار ونجا بنفسه، وانطلق إلى (فرغانة) فمكث بها قليلاً في قلةٍ من أتباعه، وأثناء وجوده بها كتب إليه (نيزك) طرخانُ الترك يخُطب ابنته - آخر من تبقى معه من خاصته، وكانت آيةً في الحسن لكنَّ (يزدجرد) أبى وتكبر، وكتب إليه ردّاً عنيفاً مُغلظاً:

إِنَّمَا أَنْتَ عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِي! فَمَا جَرَأُكَ أَنْ تَخْطُبَ إِلَيَّ؟!

حنق (نيزك) على (يزدجرد)، وعزم أن ينال منه، فأرسل إلى (ماهويه) مرزبان (خراسان) يستعديه عليه ويستعين به على حربه، فاستجاب له.. تعاون (ماهويه) و(نيزك) على (يزدجرد) فهاجماه ومَنَّ معه بجيوشهما، واختطفوا ابنته، وقتلوا أصحابه، ونهبوا عسكره، وقتلوا فرسه..

فَرَّ (يزدجرد) من القتل لائذاً بحياته بعد أن خسر كل شيء، وأُفرد وحده.. هرب، بينما هما وجيوشهما يطلبوه، ويسIRON في إثره..

سار (يزدجرد) وحيداً هائماً على وجهه حتى تمزقت أقدامه اللينة من طول المسير، وأحرقَت الشمس بشرته الناعمة، وتقرَّح جسده الأملس من الوسخ.. وأُنْهَكَ فتحامل على نفسه في المسير حتى وجد على البعد بيتاً منفرداً على شاطئ نهر (المرغاب)، فتسلَّل إليه مُتخفياً وقلبه يرتجف من الخوف.

كان كوخاً حقيراً لطحانٍ فقير.. جدرانه خشبية مهترئة، وسقفه من سعف النخيل والبوص، وأرضيته عارية مادتها التراب والحصى.. كان الغبار والوسخ يغشيان كل شيء من حوله.. كان (يزدجرد) خائر المقاومة، متهاكٍ البدن، فسقط مغشياً عليه ككومة من الخطب في أحد أركان ذلك الكوخ الحقير!

مرَّت عليه ليلتان في ذلك الموضع بين نومة المتعب المكدود، وخوف القلق المفزوع..

وكان (ماهويه) و(نيزك) قد بثَّا جندهما في كل موضع يطلبوه، ولَمَّا علم الطحان بوجوده في كوخه طمع في مكافأة (ماهويه) إن هو دَلَّه على طريقه. وبينما (يزدجرد) غارقاً في نومته إذ قام عليه الطحان بحجرٍ فشدخ رأسه، ثم احتزَّها بفأسه، وأسرع بها إلى (ماهويه) بعد أن ألقى بجثته في نهر (المرغاب).

سبحت الجنة الطافية مع التيار حتى تعلقت بعودٍ عند فوهة (الرزيق)،
وبعد أيامٍ إذ بمطران (مرو) يرى جثته في النهر، فعرفها، وأمر بها فأخرجت،
وُوريت التراب إكرامًا لجذته (شيرين) التي كان يعرفها..

مات وهو ابن تسع وثلاثين.. وانتهت اسطورة كسرى الأخير (يزدجرد
الثالث) كما انتهى من قبل جميع الأكاسرة، وصار إلى ما صاروا إليه، وكأنهم
لم يغنوا فيها!

وولى عصر مملكة فارس بظلم حكامها، وفسادهم، وإفسادهم.. وتمزق
مُلْك الفرس، وزالت دولتهم، ومكن الله لدينه في الأرض، وحقّق للمسلمين
وعد نبيهم ﷺ..

وأشرقت أرض فارس والعراق بنور الحق، وانتهت دولة الظلم التي
ظلت جاثمة على صدر البلاد والعباد قرونًا طويلة..



الفصل الأخير

اجتمع أطفال القرية في ساحة البيت العتيق، وفي ظلّ الشجرة العريقة التي نشرت أغصانها وأوراقها على مساحةٍ كبيرة من السماء، لتحضن ذلك البيت وبيوتاً أخرى بجانبه..

أقبل الشيخ الكبير عليهم من داخل البيت يتهادى في مشيته.. يتوكأ بجسده المنحني الضئيل على عصاً غليظة حتى انتهت به خطواته المتثاقلة إلى موضعه الذي يشرف منه على الجالسين.. امتدّت إليه يد أحد الصبية يُجلسه، فتراحت قبضته عن العصا التي تلازمه كعضوٍ من جسده، ونحّاه جانباً.

قال الصبيُّ في احترامٍ وحبٍّ:

تَفَضَّلْ يا جدِّي! كلُّنَّا ننتظرُكَ.. تَفَضَّلْ!

قال الجدُّ الطيب بلسانٍ شاكِرٍ ممتن:

باركَ اللهُ فيكَ يا بُنَيَّ!

نَقَلَ الشيخُ بصره بين الصبيِّ وبين الصغار أمامه، ليردّد على مسامعهم

جميعاً:

بارَكَ اللهُ فيكم جميعاً.. السلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاته..

أجاب الجميع على لسانٍ واحدٍ:

وعليكم السلامُ ورحمةُ اللهِ وبركاته يا جدَّنَا..

بدأ الجُدُّ يُرْتَلُّ من كتاب الله الكريم آياتٍ متتابعة، والصغار يُرَدِّدون وراءه بحماس على اتساع حناجرهم الصغيرة.. يكرّر كلُّ آيةٍ بجهدٍ مرة بعد مرة، ويستحثُّهم على متابعة التلاوة من بعده، والجميع يتابعونه باهتمام.. كان يستوقفهم على فترات ليستمع إلى حفظ أحد أبنائه أو بناته الصغار، فيشجِّعه ويعطيه في يديه ثمرة، ثم يواصل مع الجميع تلاوة كتاب الله وحفظه..

انتصفت الشمس في كبد السماء، ورفع الشيخ بصره الكليل إليها فطمست بصره، فأسرع ليغطي عينيه بإحدى ذراعيه ثم أزاحها ببطء، وانتقل بنظره ليعيّن موضع الظلّ من الشجرة أمامه.. أشار إلى الحاضرين أن كفى، فلقد حان وقت الصلاة..

وما هي إلا لحظات حتى خشعت القرية كلّها بكلمات تردّدت ما بين السماء والأرض:

اللهُ أَكْبَرُ. اللهُ أَكْبَرُ.

اللهُ أَكْبَرُ. اللهُ أَكْبَرُ..

أشهدُ أنّ لا إله إلا الله.

أشهدُ أنّ لا إله إلا الله..

أشهدُ أنّ محمداً رسول الله.

أشهدُ أنّ محمداً رسول الله..

حيّ على الصلاة...

صمت الجميع في خشوع يستمعون إلى أذان الظهر الذي ينبعث من مسجد القرية القريب، والشيخ يتمتم بكلماته ويبتهل في ضراعة بالدعاء.. نهض الشيخ بصعوبة مُثاقلاً، ثم مضى بخطواته البطيئة إلى الدار.. أقبلت عليه زوجته العجوز مسرعةً، فعاونته على المسير، وأسندت شيخوختها إلى شيخوخته، وبكلماتها الحنونة تلفّفته:

(ماهان)!!.. ما عاد السنُّ يحتمل.. إِنَّكَ تُجهد نفسك كثيراً، فمنذ الساعات الأولى من النهار وأنت تكدح.. لقد كدْتُ أن أقطع عليكِ الدرس لتراتح قليلاً، ولولا أنني أعرف أن ذلك يُغضبُكِ لفعلتُ!

أجابها (ماهان) مُتلطّفاً:

(جومان)!!.. لم يعد في العمر بقية، ولا يزال لدينا الكثير أن نقدّمه.. فمنذ أن كتب الله لنا اللقاء وتزوَّجنا، وأنا أعتبر أبناء القرية كلهم أبنائي وأحفادي، ولهم عليّ حقُّ التوجيه والتعليم، ولا بد أن تشاركوني هذا الدور! إنَّها رسالتنا نحو ديننا!

صمت (ماهان) بعض الوقت يتذكّر ما مرَّ بحياته الطويلة من أحداث.. تذكّر الأهل.. الأب، والأم، والأخوة.. لقد انقضت حياتهم البائسة وهم كغيرهم يبحثون عن العدل المفقود في الدنيا، وعن حياةٍ عزيزةٍ كريمة تحترم كرامة الإنسان على اختلاف جنسه، وشكله، ولونه.. ماتوا جميعاً دون أن يجدوا ضالّتهم، وما عند الله لهم خير إن شاء الله!

تذكّر سنوات غربته في رحلة العمل الذي سعى عليه منذ نعومة أظفاره،

ثم رحلة شقائه، وشتاته، وسجنه.. وأخيرًا، نور الحق الذي أشرق في قلبه، فجعله يستعذب الشقاء مثله مثل أخوته طالما كان سعيه لله ونشر دينه حتى صار الجهاد في سبيل الله أحبَّ إليه من كل شيء.. جاهد، وأمضى حياته كلها فيه.. جاهد حتى كُبر سنُّه، وثقل عليه جسده، فانتقل إلى جهاد من نوع آخر لا يقل أهمية عن سابقه.. إنه نشر دين الله بين أبنائه.. إنها لرسالة.. جيل يعلم جيلًا.. يُسلمه الراية!

تذكر صاحبه (سلمان)، فاستقلَّ ما عاناه في حياته إلى جوار شقاء صاحبه.. لقد كان مثلاً أعلى له، ونموذجاً واضحاً أمامه - وإن كان قد فقد صحبته سنوات طويلة.. ضحى بالمال، والجاه، والأهل، والحسب في سبيل تحقيق غايته، ألا وهي البحث عن الحقيقة.. عاش حياة الترحال، والتنقل.. حياة لا تعرف الاستقرار.. تحمّل الغربة، وحياة العبودية والرق.. حتى بلغ الغاية فيما تمنى، وعرف الحق.. فأسلم لله، وأتبع رسوله ﷺ.. تذكره حين التقى به في أول شبابه، ثم عاد والتقى به رائداً لجيش الفتح الإسلامي وداعيه.. تذكر فرحته يومئذٍ بلقائه.. تذكر فرحتهما بالعودة إلى حضن الوطن، وقد سبقهم نور الإسلام إليه.. لكنهما ما لبثا أن تفرقا فراق المحب الذي يغلب واجبه على مشاعره.. كانا على موعدٍ مع جهادٍ لا ينقطع، ومسئولية لا تنفك عن أحدهما، إلا بقاء الله بعد أن يؤدي كل منهما ما عليه.. إنه نوعٌ من الجهاد يكتب لك حياة ممتدة، فمعه لن تنطفئ شمعتك أو تحبو بعد موتك؛ لأن العلم الذي تورثه للناس يبقى، فيصير ميراثاً، وخيراً باقياً لك إلى يوم القيامة..

شاركت (جومان) زوجها رحلة ذاكرته.. تكتفي بنظرة حاملة في عينيه اللذين لم يغيرهما الزمن في دفعها وميضها إلى ذكريات ماضيها البعيد.. استرجعت (جومان) - هي الأخرى ما مرَّ بها من أحداثٍ على مدى عمرها الطويل، تبُّه من حديث نفسها التي هو أقرب إليها منها.. ندَّت تنهيدةً طويلةً منها، ثم جرت الكلمات تتعثر على شفيتها:

حياة طويلة قضيناها في حرمان.. حرمان من الأهل، واللقاء، والزواج، والإنجاب.. حتى صرنا عجائز محرومين من الأبناء.. نعيش أليفين وحيدين بغير ابن يصل ذكرنا بالدنيا بعد موتنا وذهابنا عنها..

ربت (ماهان) على كتفها بحنان، وقال:

(جومان)! أنتِ عندي أفضل نعمة من الله.. الحمد لله أن جمع بيننا في الدنيا، وأرجو الله أن نكون رفيقين في الجنة.. وجميع أبناء القرية أبنائنا..

قالت (جومان)، وقد ارتسمت على شفيتها ابتسامة رُضا:

صدقتِ يا زوجي الحبيب! إنَّ الله أكرمنا بأن جمع بيننا بعد شتات طويل، ويكفيني هذا من دنياي.. وإن كُنَّا قد حرمننا ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة من الأبناء، فقد أعطانا الله العشرات والمئات منهم.. فجميعهم أبنائنا بلا استثناء..

نادى صبيٌّ صغيرٌ على (ماهان) من الخارج:

جدِّي (ماهان)! جدِّي (ماهان)!.. لقد توضحأت، وجئتُ أصحبك إلى المسجد..

أجابت (جومان) نداءه:

ادخلْ يا ولدي أنتَ ومن معك!.. فإني أريدُكم!

دخل عددٌ من الصغار فاحتضنتهم الجدَّةُ الرءوم بأمومتها المتدفقة،
وقدَّمت لهم بعض الحلوى، وأوصتهم بالجدِّ في طريقهم إلى المسجد..
أسرع الصغار إلى يد الجدِّ يتنافسون عليه، فاستند برفقٍ على أقربهم منه
مكاناً..
تطلَّع الجدُّ إلى (جومان) يملأ نظره منها، فرمقته هي الأخرى بنظرةٍ
حانيةٍ.. ثم انطلق في طريقه يصحبه هؤلاء الصغار إلى مسجد القرية..
تمت بحمد الله